الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

منى فياض

معنى أن تكون لبنانياً

مقالات في حال الوطن... وأحوال المواطن



معنى
أن تكون لبنانياً

معنى
أن تكون لبنانياً

مقـــالات في حـــال الوطـــن... وأحـــوال المـواطـــن

منى فيـاض



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-543-9



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

القسم الأول

عن الإنتماء والهوية

القسم الثاني

الولاء للهوية الوطنية

القسم الثالث

شرعية الدولة الوطنية وحقوق مواطنيها

المقدمة

عندما نشير إلى الحداثة الآن ننظر إليها وكأنها هبة غير عادلة قدمتها آلهة منحازة للغرب وحده. لكن ننسى ان هذه الحداثة لم تتشكل بالسهولة التي نعتقدها ولا وصلت إلى ما هي عليه من دون معاناة وألم وعنف. فقد استغرقت الحداثة في التجربة الغربية مئات السنين لتطوير مؤسساتها العلمانية والديموقراطية، وهي قامت بذلك من خلال العديد من التجارب المؤلمة التي تخللتها الأخطاء. وأوضح دليل على ذلك الحروب الدينية التي استمرت في أوروبا مئات من السنين، هذا عدا الإضطهاد السياسي الذي عرفته مجتمعاتها حتى وقت قريب، إلى جانب ما رافق الثورة الصناعية من تغيرات نتج عنها الكثير من العنف وليس أقلها الثورة الفرنسية. كل ذلك ترافق مع بروز القوميات والنـــزاعات والعداوات التي نشأت بينها قبل أن تتركز الدولة - القومية وعمّت أوروبا.

كما أدت الحربان العالميتان وما نتج عنهما - وبخاصة الحرب الثانية - من ملايين الضحايا إلى غلبة الاتجاه الديموقراطي وحركة السلم العالمي واللاعنف. ناهيك عن حقبة الاستغلال اللاإنساني للعمّال والنساء والأطفال بحيث تطلّب الأمر الكثير من المعاناة والنضال قبل أن نصل إلى شرعة حقوق الإنسان التي نعرفها الآن. تسبب ذلك كله، بتبدّل كبير في جميع مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية والإقتصادية والفكرية والدينية.

لم يكن ممكنا أن يظل عالمنا العربـــي بمنأى عن هذه التغيرات خاصة بعد اجتياح ثورة المعلومات العالم كله ما ساهم في حصول تغيرات جذرية طاولت مختلف وجوه الحياة وكان لها آثار جمة على العالم الغربـــي نفسه فكيف يكون عليه الأمر عندما يتصل بعالمنا الذي يتأخر في مجالات وميادين عدة؟ وجميعنا يلمس التغيّر الذي أحدثته الفضائيات العربية في السنين العشر الأخيرة.

لكن ما لا يتم الانتباه إليه عادة ان ما نعانيه من اضطرابات عميقة وعنفية هو ضريبتنا لهذا الانتقال إلى الحداثة الخاصة بنا وليس قدراً لا رادّ له ولا مخرج أو من

دون نهاية. وما يشهده العالم العربـــي من تجاذبات وما يحصل في لبنان حالياً يندرج ضمن هذا الاتجاه العام الذي ينحو نحو تثبيت الدولة الوطنية التي لم تكن مرحّباً بها من قبل النخب العربية واعتبرت دائماً كياناً مصطنعاً وغير شرعي أوجده الاستعمار الغربـــي عبر تقسيمه أراضي الامبراطورية العثمانية. ولطالما اعتبر لبنان بينها الكيان الهش والأكثر اصطناعاً. ولنلاحظ كلمة كيان، فهو لم يكن "دولة شرعية" ناجزة، بل مجرد كيان عابر وآني ينتظر بلورة ما فهو بهذا قابل للتغيّر بانتظار التوصل إلى "الوحدة العربية"، غير واضحة المعالم، والتي تجسد الحلم بامبراطورية تمتد من المحيط إلى الخليج.

في نهاية الستينات وبداية السبعينات كان الموقف التقدمي أو الطليعي يفترض أن يكون المناضل اللبناني حكماً "أنتي" أو ضد - دولة. وكانت الإشارة إلى الدولة تتسم بطابع من الرفض والتهكم من ضعفها وكاريكاتوريتها وكان اعتبارها وعاء لسلطة شرعية ومستقلة يعد خيانة إما للأممية الشيوعية أو اليسارية وإما للعروبة أو للأم الحنون وذلك بحسب الجهة المعنية، ولكنها لم تكن ضرورية لوجوب تخطيها وتجاوزها.

ما كان يشجع على ذلك تجارب الثورات الأيديولوجية التي كانت في أوجها وحركات التحرر وشعارات العدالة الاجتماعية ما جعل من الدولة اللبنانية نوعا من النموذج المصغّر الذي أقامته الطبقات البرجوازية الحاكمة والتابعة للامبريالية والمتوجب القضاء عليها. ولم يكن إعلان الإنتماء أو الولاء إلى دولة أخرى يثير الكثير من الاستغراب. ومن هنا كان الفولكور الذي أرسته التقاليد الموسيقية الرحبانية موضع تجاذب إذا لم نقل موضع تندّر يصيب "الوطن" المتغنّى به، بجباله وأرزاته وعلمه.

ولقد تم التوصل ببطء وصعوبة بالغين إلى الاقتناع بشرعية وجود هذه الدولة وهذا الوطن، من قبل السياسيين اللبنانيين أنفسهم بداية وعلى اختلاف مشاربهم. ويعطينا حازم صاغية[1] أمثلة عن هؤلاء من رياض الصلح الذي تحول من عروبة عابرة للدولة الوطنية إلى أن أصبح أحد رمزي الاستقلال اللبناني المنفتح إلى عبد

(1) حازم صاغيّة: سِــيَر السياسيّين وسيرة المجتمع، الحياة، 2008/09/02.

الحميد كرامي الذي تحول من رافض للكيان إلى مشارك فيه وصائب سلام وكمال جنبلاط. وهذا يشمل ازدواجية صورة الإمام المخطوف موسى الصدر وصولاً إلى الحريري الذي ختم حياته كأكبر ضحايا «وحدة المسارين» عندما أراد قيام الدولة اللبنانية واستقلالها مجدداً.

لذا، ومهما قيل حول السنوات الثلاث الماضية التي تلت اغتيال الشهيد الحريري، ومع صعوبة اللحظة الراهنة وعدم وضوح منحى اتجاه الاوضاع إن في لبنان أو في المنطقة؛ فلا بد أن نلاحظ حصول عدة تطورات مهمة وذات معنى طالت معنى لبنان ووظيفته وشرعية وجوده كدولة وطنية ناجزة بما زعزع المفاهيم التي كانت سائدة حول عدم شرعية وجوده وكيانيته المصطنعة.

ربما ليس جديداً القول ان الكيان اللبناني في خطر، فهو مهدد في وجوده منذ لحظة تكونه لأسباب عديدة ومتنوعة. لكن المفارقة حالياً أن هذا الكيان يتعرض للخطر الشديد مرة أخرى أيضاً وأيضاً في الوقت الذي لم يعد فيه هذا اللبنان ذلك الكيان المصطنع منقوص الهوية والمشكوك في عروبته. لقد صار وجود النموذج اللبناني بما هو عليه مطلباً وضرورة لأبنائه وللعالم.

الكثير من التطورات الايجابية حصلت مؤخراً، فهناك مثلاً حقيقة ظاهرة الآن لدى أطراف النـــزاع يجعلها تتبارى في محاولة التأكيد على ديموقراطية ممارساتها فتلجأ مثلاً إلى التجمعات الشعبية، للبرهان على صحة تمثيلها الشعبي، ورغم تحولها إلى الشغب أحياناً، فهذا في حد ذاته انتصار للديمقراطية. ولم يعد التلويح بصور رؤساء ورموز لدول خارجية مدعاة للراحة أو الفخر، بل صار موضع تساؤل. وصار العلم اللبناني ولو ترافق أحياناً مع علم آخر موضع احترام وحب من الجميع ربما لأول مرة في لبنان.

ويجتمع في هذه اللحظة معظم الأفرقاء، في الظاهر والمعلن على الأقل، على إرادة الحفاظ على الدولة اللبنانية ومؤسساتها وعلى تقويتها من أجل الحفاظ على النموذج الذي تشكله هذه الدولة الديموقراطية على طريقتها والمتعددة الأديان والمذاهب والاتنيات. وهذه الدولة العربية التي تنفرد برئيسها المسيحي في محيط إسلامي طاغ وفي وقت تتعرض فيه المسيحية في الشرق – وجميع الأقليات عامة– للانقراض وللتهجير، صارت مثالاً وضرورة. كما صار من

الأمور البديهية التغني بالدستور والقوانين والمؤسسات والمواطنية و. و. وهذا أمر إيجابـــي بالرغم من بعض الممارسات التي تفرّغ كل ذلك من مضمونه أو تعطّل عمله. لكن مع ذلك وعندما ينتهي التجاذب الحالي الموجود والصراع الحاد الذي نشهده في هذه اللحظة من تاريخنا فسوف تتحول شعارات هذه المرحلة إلى أدوات عمل للمستقبل.

لكن إلى أن تصل تلك المرحلة، هناك نواة مهمة من المواطنين تبشر بإمكانية التغيير مستقبلاً بالرغم من تهميشها حالياً وبالرغم من تفشي العصبيات والنـــزاعات المذهبية عبر استخدام جميع أنواع العنف. هذه النواة تتكون من نسبة كبيرة من اللبنانيين، تتراوح في استقصاءات الرأي المتواترة، ما بين 20 و30% من المواطنين الذين سئموا من تعدادهم إنطلاقاً من انتماءاتهم العضوية، أي الطائفية والمذهبية والعائلية أو العشائرية. ولم يعد الزعماء التقليديون أو المتحاربون الجدد والمتواجدون على الساحة ومن جميع الاتجاهات يعبّرون عن قناعات هذه الفئة أو اتجاهاتها. وهؤلاء يريدون دولة تعترف بهم كمواطنين خارج الولاءات المذهبية والسياسية الضيقة، يعتبرون أن ولاءهم الوحيد محصور في الدولة اللبنانية والجنسية التي يحملونها ويرغبون بتطبيق القانون على الجميع وبقوانين مدنية وعلمانية، وعلى الأقل بقانون أحوال شخصية مدني اختياري وليس إلزامياً بحيث يظل للمتدين أن يخضع لأحكام المحاكم الدينية إذا ارتأى ذلك، لكن يسمح بفسحة للمواطن العلماني المستقل أن يفصل بين تدينه الشخصي وممارسته لهذا التدين وبين شخصيته القانونية والاجتماعية.

لقد بلغ الوضع في الممارسة العملية حداً يجعل من المواطن الملتزم بمواطنيته وبولائه لوطنه ويرفض الإنتماءات المذهبية والطائفية المفروضة يشعر أنه يعيش كغريب في بلده وتمارس عليه الضغوط اليومية التي تعيده عمداً إلى حظيرة الإنتماءات التي يرفضها عند تلبية احتياجاته الضرورية أو عند قيامه بأي معاملة بسيطة في دوائر الدولة الحكومية وإلا فعليه التخلي عن مصالحه أو البحث عن وطن آخر يستقبله.

الوضع الآن في لبنان على مفترق طرق، من هنا نجد أن القلق بلغ أعلى مستوياته عند جميع المواطنين بحيث يتساءل المرء كيف يمكن تقدير ما بلغه مستوى

القلق في بلد معين؟ هل هناك مؤشر واحد أم تراكم لإشارات عديدة ومنتشرة؟ لن أقوم هنا بدراسة علمية تقيس مدى بلوغ مؤشر القلق عند اللبنانيين، لكن هناك بعض الظواهر الملفتة التي تفرض نفسها، بغض النظر عن حجم الاكتئاب الذي يقدر الأطباء أن نسبته تثير القلق، ولا بسبب نسبة الاصابة بالسرطان العالية جداً هي أيضاً، وليس فقط لأن عمليات القلب المفتوح تحولت إلى تدخل طبي جراحي عادي ويومي. لكن آخر تقليعات التعبير عن مدى الخوف والقلق من المستقبل هو تحوّل التبصير والتنجيم إلى مؤسسة متمكنة وشبه شرعية – في بلد تُعد فيه نسبة الأمية من أدنى المستويات في العالم العربي – وتحوّل التبصير من تقصي أحوال القلب والزواج أو الطلاق والمستقبل المهني لابن أو زوج، في «الصبحيات النسائية»، إلى حلقات تبصير عن أحوال وطن الأرز وهل سينتخب رئيس للجمهورية أم لا؟ هل سنرسّم الحدود مع سورية أم لا؟ هل تستعاد مزارع شبعا أم ماذا؟ وهل ستنشب الحرب أم لا؟

وبالرغم من الشعارات المعلنة وربما الحقيقية، نجد أن الوضع على الأرض، وفي ظل ضعف سلطة الدولة، يجعل من المواطن خاضعاً في الحقيقة لممارسات أبعد ما تكون عن كل الادعاءات المرفوعة وهو لا يشعر بالحماية ولا بالأمن ولا بحقه بالحصول على أدنى مقومات العيش الكريم من دون اللجوء إلى واسطة ما أو زعيم ما أو حزب أو ميليشيا حالية أو سابقة لتأمين أدنى حق من حقوقه. وهذا يطال المدرسة والكهرباء والهاتف والرغيف والمستشفى وكل مناحي الحياة.

هذا عدا عن الخوف الوجودي الذي يهدد مستقبل المواطن الآمن عبر التهديد المستمر من حرب ما، تشنها إسرائيل على لبنان فيما تنعم الحدود الأخرى وخاصة المجاورة بأمن دائم. في الحقيقة بلغ الوضع النفسي في لبنان أقصى درجات التأزم. وكما يقول سائق تاكسي: «العالم كلها مفقوسة» وصارت «النفسية تعبانة». وفي لبنان هناك شكوى من البطالة ومن الفقر وطلب كثيف على الهجرة لكل هذه الأسباب مجتمعة.

كأن البلد تحوّل إلى مكان تسيّره عجلة دائمة الحركة اسمها الخوف والقلق و«النقّ» باللبناني. تصعد إلى سيارة الأجرة فيتحسر صاحبها على أحوال العام

الماضي – التي كانت متدهورة هي أيضاً – ويخبرك انه يكف عن العمل في الساعة السادسة (بالتوقيت الصيفي) وأن الشوارع تصبح خالية يحتكرها الجيل الصاعد من الصبية والمراهقين الذين صاروا يتربون على السؤال عن مذهب جيرالهم، ولم تعد للأب عندهم كلمة بل هم رهن لمن يدفع لهم «تكلفة حراستهم» ويعلمهم «السؤال عن هوية المواطن» الذي لم يلتزم الحذر فخرج من منـــزله في يوم غير آمن، كما هي الأيام عادة.

ربما هذا القلق لا يطول لبنان فقط، فالأزمة الاقتصادية التي تطل برأسها الآن تطاول مختلف دول العالم، ولقد مرّ العالم بأزمات مشابهة ولا شك في الماضي. لكنه يكتسب الآن بعداً إضافياً بعد أن صار العمل بشكل عام حق لكل مواطن يعطيه معنى لوجوده، وصارت البطالة مصدر الكثير من العلل. من ناحية ثانية يكتسب العمل للطبقات الفقيرة أهمية قصوى، فالعمل هو الرأس مال الوحيد الذي يملكه الفقراء، كما ان زيادة إنتاجية العمل تعتبر أفضل وسيلة لتقليص الفقر. ويتطلب هذا تعزيز فرص كسب المال وتنمية رأس المال البشري بغية حفظ التوازن للمواطنين. وفي بلداننا نجد أنه بدل تزويد الشباب بمهارات متقدمة تتخطى مجرد الالمام بالقراءة والكتابة وحمل الشهادات ذات المستوى المشكوك فيه من أجل إيجاد العمل المناسب، نكسبهم العداوات والتعصب واستخدام السلاح واتباع الأصوليات المفرخة هنا وهناك. ولهذا نجد أنه فضلاً عن المشاكل الناتجة على الصعيد الشخصي وعلى عدم القدرة على الاندماج في المجتمع، يمكن أن يصبح الشباب الموجودين خارج قوة العمل لفترات طويلة، عبئا يعيق الاقتصاد والنمو.

* * *

مع ذلك لا بد من الإشارة إلى التطور الحاصل على مستوى المنطقة العربية إنطلاقاً مما حدث ويحدث في لبنان. فنلاحظ بدايات تغيّر جذري ربما بدا الآن غير محسوس وغير كاف. لكن هناك نوع من مراجعة الأنظمة الاستبدادية والتوتاليتارية لبعض ممارساتها التعسفية. ربما يبدو هذا الكلام مفرطاً في التفاؤل نظراً إلى استمرار احتجاز حرية المثقفين والصحافيين وقمعهم وقتلهم أحياناً بذرائع واهية وبقاء

الآلاف من المعارضين لأنظمتهم بعيداً عن أوطانهم وغير قادرين على العودة إليها. مع ذلك صار هناك نوع من الخوف من المساءلة ومن الحذر من وجود عين مراقبة لهذه الممارسات. وبعد أن كان السجين يقتل من دون أن يثير ذلك أي ردة فعل، هناك الآن بدايات محاسبة ومراقبة طارئتين على المنطقة برمتها. وهناك تنافس على التجلبب بجلباب الديموقراطية ومظاهرها ولو زوراً.. وهذا جديد على المنطقة وغير مسبوق ويحد من بطش الأنظمة ويجعلها تحسب حساباً لممارساتها العنفية والتي لا تعترف بحقوق المواطنين أو بالقوانين ذات المظهر البرّاق والتي تسنّها بنفسها لكي تخرقها وتعتدي عليها. وهذا من مآثر إقرار المحكمة الدولية لقتلة الشهيد رفيق الحريري.

وآخر مظاهر التطور المستجد ما حصل كنتيجة لاغتيال المطربة اللبنانية سوزان تميم، والتي بالرغم من هزء البعض من اهتمام وسائل الاعلام بهذه القضية في نوع من الاستخفاف بالضحية وبأسباب الجريمة، نجد أنها مؤشر مهم لبزوغ عصر وجوّ جديدين تماماً. ففي ظروف أخرى وفي بلد آخر غير الإمارات المتحدة - التي تريد أن تكون نموذجاً للدولة الحديثة المتطورة التي تحترم القانون والمؤسسات وأمن مواطنيها - لكانت مرّت الحادثة مرور الكرام ولما تبعتها أي محاسبة وتظل جريمة محفوظة للتحقيق الذي لا يحصل كما هي العادة. لكن ما حصل أن أحد أعمدة المال وأحد متنفذي السلطة المصرية بجناحيها المالي والسياسي يتعرض للمحاسبة ويخضع للقانون مثل باقي المواطنين العاديين. وإذا لم تتعرض القضية للفلفة فسوف يكون هذا درسا جديدا للسلطات الحاكمة في البلدان العربية في أن للحياة الإنسانية حق لا يضيع وأن لكل جريمة عقابا مهما كانت سلطة ومكانة من يقوم بها، وأن لكل سلوك محاسبة مهما كان بطش الطاغية الذي يتربع على العرش. وهذه المرة تسجّل دولة عربية هذا التطور مما يوحي بالأمل في أن يتعمم هذا النموذج ويطال مناطق وأنظمة أخرى.

أخيراً لا شك إن الوضع في لبنان بحاجة إلى مراجعة شاملة من الجميع بما يساعد على تخطي الوضع الراهن الذي لم يعد معقولاً أو مقبولاً، ومن المعروف أن التقدم والثبات في المجتمعات التي تعاني من الصراعات المختلفة يتطلب البدء بمسار المصالحة الفعلية ودفعه وجعله ينمو بشكل عفوي ومتدرج بحيث يطال

أوسع شرائح من الشعب خاصة فئات الشباب. كما هناك ضرورة للاعتراف بكل الفظائع والاعتداءات التي مورست ضد المذاهب أو الاثنيات أو الطوائف أو أي منطقة معينة أو دين وضرورة إعلان المسؤولية عنها. إن إبعاد منابع النـــزاع المستقبلي الممكنة لا يحصل إلا عبر معالجتها ومواجهتها بجرأة. كما أن تقديم الاعتذار من الضحايا الذين خضعوا لعنف النـــزاعات والممارسات العنصرية والتمييزية هو ضرورة سواء أكان الضحايا أفراداً أو جماعات أو أوطان. إذ أن من شأن الاعتذار أن يضع النـــزاع في اطاره السياسي أي أنه ليس نـــزاعاً ازلياً وله أسباب عميقة لا تزول بل هو قابل للاستيعاب ويمكن أن يُحلّ.

أخيراً هل يدعونا هذا لليأس أم نترك باباً للتفاؤل؟

عندما ذهبت إلى السينما مع ابنتي، وحضرنا فيلم سكورسيزي Gangs of New York الذي يرصد الصراعات التي عرفها تاريخ نيويورك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بين عصابات إيرلندية وأخرى أميركية، أي بين بروتستانت من ناحية وكاثوليك من ناحية أخرى، تركني هذا الفيلم في حالة تأمل حول مصيرنا وهل سوف نستطيع القيام بالقفزة التي قامت بها الولايات المتحدة في نصف قرن أو في أقل من ثلاثة أرباع القرن؟ هل يكفينا 50 عاماً كي ننهض؟ ذلك أنهم كانوا حينها في حالة مزرية أكثر مما نحن عليه الآن، وإذا ما كان سكورسيزي صادقاً وقام بأبحاث وتوثيق جديين فإن هذا الفيلم يعطيك الأمل من ناحية في إمكانية حصول تغيير ملموس عندما تصبح الشعارات واقعاً.

لكنه يأخذك أيضاً إلى تأملات حول الحياة والموت، فبعد كل ما جرى في تلك الشوارع، من يذكر أولئك البشر الذي دفعوا حياتهم ثمناً لما استطاع لنكولن أن يحققه بعد ذلك وأسس لدولة قانون استطاعت القيام بمهام أساسية: توحيد الولايات المتحدة وتحرير العبيد وفرض القانون كمرجع وحيد! وولدت هذه الولايات المتحدة التي نعرفها وصار احترام الفرد حقاً مكتسباً وبديهياً. وصارت النظافة

والصحة والتعليم على الأقل حقاً مكتسباً لمعظم الناس. ناهيك عن القيمة الجوهرية للوجود، أعني الحرية على أنواعها.

ربما هذا يعطينا بصيص أمل إذا ما تبلور الوعي العميق وإرادة التغيير عند نخبة فاعلة ومسؤولة وتعرف قيادة البلاد نحو الأفضل. فعلى الأرض هناك من هو مستعد لتلقف مثل هذه القيادة.

ربما هذا يجعلنا أيضاً نتذكر أننا لا نملك أن نعيش هذه الحياة سوى مرّة واحدة فلماذا نهدرها مجاناً وكما نفعل منذ أكثر من 30 عاماً؟

القسم الأول

عن الإنتماء والهوية

أن تكون شيعياً الآن..[1]

نمر بمرحلة كارثية ومصيرية سوف تنعكس آثارها على بلدنا والمنطقة على امتداد القرن الطالع؛ وبما انها على مثل هذه الخطورة ارتأيت ان أطرح علنا الاسئلة التي يطرحها البعض بينه وبين نفسه أو خفية فلا يتجرأ على إعلانها مخافة مخالفة الجماعة والاجماع، ومخافة أن يتهم بالعمالة والخيانة إذا لم يكن الكفر. ان مواجهة بعض الاسئلة الصعبة وطرحها علانية ربما يساهم في كبح انجرارنا نحو الهاوية التي لا قرار لها ويساعد القيادة على اتخاذ القرار الحكيم والصعب من أجل وقف هذه الحرب الجهنمية مهما كلف الأمر.

فما معنى أن تكون شيعياً - لغالبية الشيعة راهناً - وفي هذه المرحلة المصيرية؟

أن تكون شيعياً يعني أن تسلم أمرك للقيادة الحكيمة والمعصومة دون التجرؤ على طرح أي تساؤل ولو من باب الاستفسار.

أن تكون شيعياً يعني أن تشاهد محطة "المنار" و"نيو تي في" و"إن بـي ان" وتنتشي بأغانيها الحماسية واخبارها حصراً، وأن تنظر بعداء مستحكم إلى جميع المحطات الأخرى لأنها إما "أميركية" وإما "صهيونية" طالما انها تشير مثلا إلى القوات الإسرائيلية باسمها هذا ولا تسميها قوات العدو حصراً ولا تشبعها نعوتا وتكتفي بنقل معلومات.

أن تكون شيعياً يعني ألا تسال عن معنى النصر؟ هل هو انتصار العسكر وبقاء الجنود - مدججين بالسلاح- على قيد الحياة مع تدمير العمران وافناء البشر الذين تعبوا في بنائه ويشكلون الحماية الفعلية للمقاتل نفسه؟

أن تكون شيعياً يعني ألا تسأل عن معنى الصمود والكبرياء، هل هو الهرب من القصف والتكدس على بلاط المدارس وغبارها؟

---

(1) قضايا النهار، 2006/08/07.

أن تكون شيعياً يعني أن تساهم في فبركة "كربلاء 2" اللبنانية إذ أن "كربلاء 1" العراقية لم تقم بدورها كما يجب في تعبئة العرب وحملهم على الانتصار على العدو.

ان تكـــون شيعياً يعني أن تكون بطلا لا تتألم ولا تشتكي ولا تتأزم نفسياً، وتقبل التضحية بنفسك وبلادك وكل ما تم انجازه لكي تلقن إسرائيل درسا وتظهر جنونها، وتؤكد هزيمتها المدوية على ما أشار علينا الوزير السوري في إذاعة البـــي بـــي سي من ان إسرائيل خرجت خاسرة "مع التشديد اللازم على مخارج الحروف". فهي مكروهة الآن كما لم تكن من قبل وألّبت عليها معظم دول العالم... التي تأكدت الآن وبالملموس - والدرس ما زال مستمراً - في مدى وحشيتها وجنونها.

وعندما تكون شيعياً عليك أن ترضى بهذا المنطق بل أن تشيد به معجبا بفصاحته وحكمته ودوره العالمي على صعيد نشر ثقافة الحقوق وتفعيل المواثيق الدولية ودوره على الصعيد القومي في التحرير والصمود. ألم نتاكد بواسطة هذه الحرب علينا ان "سوريا هي حجر الزاوية في المنطقة"؟ والكلام لا يزال للوزير نفسه. بالطبع كان يجب كل هذا الدمار والخراب لكي نؤكد بالملموس صحة هذا المنطق العقلاني فنحن من شدة موضوعيتنا لا نعمل الا بالبرهان والتجربة الحسيين.

أن تكـــون شيعياً يعني أن تقبل بأن يخرب بلدك امام عينيك - غير المندهشتين - وينهدم على رأسك وتتهجر عائلاته وتتشرد وتصبح "لاجئة" في اربع زوايا الوطن والأرض، وأن تقبل الصمود دون تذمر طالما هناك مقاتل يملك صاروخا يمكنه أن يطلقه على شمال إسرائيل وربما جنوبها أيضاً دون أن تسأل عن "اللماذا"؟ أو عن صحة التوقيت؟ أو عن مدى جدوى النتيجة النهائية الحاصلة؟

أن تكـــون شيعياً يعني أن تقبل بأن تضحي بكل شيء ما دام هناك من سيعوّض عليك بالمال وهو شريف فوق ذلك لكي تعيد بناء ما دمر؟ ما مشكلتك في ذلك؟

فنحن قوم أبطال لا نعرف سوى أن نضحي وبإمكاننا امتصاص الصدمات النفسية وموت الأحبة وبهدلة التهجير والقضاء على مقومات الدولة - فهي دولة فاسدة وضعيفة وتابعة - أمام أعيننا أفلا يكفي أن إلى جانبنا دولاً قوية نعمل على تثبيت دعائمها ونقوي من عزيمتها في مجابهة القوة الأميركية الغاشمة والآلة العسكرية

الجهمنية الإسرائيلية التي علينا ان نبرهن عن ضعفها وعدم قدرتها على إلحاق أي هزيمة بمقاومي "حزب الله"؟ أو أي إمكانية للحد من قدراتهم العسكرية؟ وبأي ثمن؟

ان تكـــون شيعياً يعني أن تلتزم الصمت ولا تسأل ما هو دور تحرير الأوطان في العادة: هل لإعادة تدميرها وتسهيل إعادة احتلالها مجددا!؟ وأن لا تسأل عن دور القيادة: هل للمحافظة على قوتها العسكرية ورجالها المدججين بالسلاح دون أن تلقي بالا إلى الإنسان العادي؟ كونك شيعياً يجعل بإمكانك فقط أن تشكر الحزب لبطولته وتضحياته فليست مهمتك الآن أن تساهم في "إضعافه" أو في "كسر كلمته" وتجعله يعرف متى يتراجع أو يهادن لكي يحفظ انتصاره من جهة والدولة اللبنانية وبشرها وعمرانها من جهة أخرى!! فذلك يعني أن تضع موضع تساؤل أن يكون للعزة أولوية على حياة الآخرين وللحجر افضلية على السلاح.

أن تكـــون شيعياً يعني أن تفوّض سيد المقاومة بطلاً مخلّصاً للامة العربية بأجمعها، ليس سواء شئت أنت أم أبيت بل سواء شاءت هذه الأمة نفسها ذلك أم أبت، بل عليك أن تكتفي بالانتشاء بسماع المدائح الجماهيرية والشعبوية التي سبق ان مدحت بطلها المخلص عبد الناصر ولا تزال تذرف الدموع على بطلها الآخر صدام حسين وهي مستعدة لمديح أي بطل يدغدغ أحلامها ومشاعرها لكي تنام قريرة العين (يمكنك هنا مراجعة ادبيات المثقفين وبطولاتهم في صحيفتي "السفير" و"الحياة") أو لكي تستعيد كرامة مداسة تحت نعال الحكام من ثمرة صدام ما دمنا وحدنا ندفع الثمن في انتظار صحوتهم الحقيقية.

ولكن السؤال إلى أي مدى يمكن الاعتماد على هذه الجماهير العاجزة والمستعبدة لكي تقاد -.غصبا عنها - لكي تتحرر وتنتفض؟ دون أن نفكر مجرد تفكير في إعادة النظر بهذه الخطة الجهادية والثورية!! هل هي ممكنة؟ هل هي حكيمة بما يكفي؟ هل هيأت الأرضية فعلا للبدء بها؟ هل أعدت العدة لتهيئة هذه الجماهير بما يمكنها من القتال والصمود بغير سلاح الحماسة والانفعال والخطابة؟

وإذا كنت شيعياً ليس عليك أن تسأل هذه القيادة أين وكيف تمت تهيئة البنية التحتية لاستيعاب مثل هذه الحرب الشعواء ونتائجها "الاحتمالية"، أين هي المستشفيات وسيارات الاسعاف ناهيك عن الملاجئ وغيرها؟ فهذه من المهمات التي نلقيها على عاتق الدولة - التي لم يؤخذ لها رأي في إعلان الحرب - لكي

تكون ذريعة للومها على عجزها وقلة حيلتها. فالدولة هي المرجع عندما نحتاجها لكي تضمد الجراح والقرارات الرشيدة والمصيرية ليست من حقها.

وأن تكون شيعياً يعني أن تعطل عقلك وتترك للسيد خامنئي أن يملي عليك ويسوقك ويقرر عنك حول ماذا يريد (هو) من سلاح "حزب الله"، وأن يفرض عليك معنى للانتصار الذي لا فرق بينه وبين الانتحار.

وأن تكون شيعياً يعني أن تدافع عن تدخل الوزير الإيراني متكي السافر بشؤون الدولة اللبنانية من دون مراعاة حتى للمظاهر، وهو ربما اتى لينبّه وزيري "حزب الله" في الحكومة انهما "لم يوافقا" على البنود السبعة "بل هيّئ لهما" وخاصة بند القوات الدولية كي لا نقفل باب المقاومة ونبقي البلد مشرعا ومستباحا وساحة للاستغلال، بعدما تبيّن الآن ان مزارع شبعا سورية وتخضع للقرار 242 وإلى عدم وجود اجماع حول هذا البند. وهو بهذا كأنه ينبههما إلى خطئهما في تغليب انتمائهما اللبناني على تبعيتهما الإيرانية، فعليهما رغم انفهما أن يغلبا مصلحة البرنامج النووي الإيراني ومصلحة الدولة الإيرانية على مصلحة دولتهما وأولوية الحفاظ على أرواح اللبنانيين وممتلكاتهم، سواء أكانوا شيعة أم غير ذلك، بل خاصة إذا كانوا شيعة. أفليست الأولوية هي جعل إيران قوة إقليمية شيعية عظمى؟ ما أهمية التضحية ببلد اسمه لبنان؟ أو بشيعة هذا "اللبنان"؟

وعليك في هذا الجو المتوتر والقلق عندما تكون شيعياً أن تستمع لمحدثك الشيعي المتوتر والغاضب والذي يريد أن يقلب الدنيا على رأس "14 آذار" وأن يمنع نشر القوات الدولية، وتسمعه يوزع العمالة والخيانة والأمركة والصهينة يميناً وشمالاً دون أن تنبس ببنت شفة بل عليك أن تمتص غضبه وتوافقه على كل آرائه التي عرضنا عينة منها.

وهذا ما يجعلك أبعد ما يمكن أن تكون عن أن تفكر في من انت؟ هل أنت مواطن لبناني؟ هل كونك شيعياً يلزمك باعطاء أولوية لإيران على لبنان؟ هل لك حرية رأي؟ أو حرية تعبير؟ هل مسموح أن تفكر بروية وتسأل إلى أين نحن ذاهبون بالوطن وبمقومات الدولة وبالتعددية وبالعيش المشترك الذي صار علينا ان ندافع عنه الآن؟

فأن تكون شيعياً وتتجرأ على مثل هذه الكتابة وهذا التفكير يعني انك عميل وخائن ومع التقسيم والتوطين ومع مشاريع الصهينة والأسرلة وتدافع عن الدولة بفسادها ومحسوبيتها وأنك تؤيد السياسة الأميركية المنحازة (بجدارة) وأنك تقبل بقصر نظرها وبدعمها لإرهاب الدولة الصهيونية وبعدم اعطائها الفلسطينيين دولتهم اسوة ببقية خلق الله بحجة عدم دعم إرهاب "حماس". ويعني انك تدعم إسرائيل نفسها وآلتهـــا الجهنمية ووحشيتها الفائقة وتبرر قتلها واحتلاله وجنونها وتكون محظوظا إذا لم تتهم بأنك أنت من يساهم بتهديم البيوت على رؤوس اصحابها وتمزيق جثث الاطفال ونثرها على الركام بإعلاء صوتك.

فهل نسيت شيئا من المعزوفة؟ إذا فعلت سوف تعذروني لأني لا استطيع مقاطعة مسلسل نشرات الأخبار أكثر من ذلك، عليّ ان أذهب لأرى من يتهجر الآن ومن يتهدم بيته في هذه اللحظة إذا نجا من القتل.

* * *

أن تكون شيعياً 2007- 2008[1]

قوة ناهضة

ماذا تريد غالبية الجماهير الشيعية في لبنان ومن لبنان؟

النكتة

دخل استاذ الصف يسأل الطلاب عن أسمائهم وطموحاتهم:

سأل التلميذ الأول ما اسمك؟ قال: علي.

ما هو طموحك: قال أن أكون رئيسا للمجلس النيابي.

سأل التلميذ الثاني: ما اسمك: قال علي. ما هو طموحك: أن أكون رئيسا للحكومة.

سأل الثالث ما اسمك: علي أجاب. ما هو طموحك: أن أكون رئيسا للجمهورية.

جاء دور الرابع فقال الأستاذ لا تقل ان اسمك علي أيضاً!

لا أجاب الطالب اسمي ميشال: ما هو طموحك؟ قال: طموحي أن أكون علي.

هذه نكتة تعبّر عن هواجس الآخرين من ناحية وعن لسان حال الشيعة الضمني وممارسة ممثليهم السياسيين من ناحية أخرى.

لقد برز الشيعة كقوة بعد انحسار الوصاية السورية المباشرة، بحيث بدا ان عليهم أن يجدوا الترجمة السياسية لهذا التغير الكبير الحاصل في الطائفة: ديموغرافيا واقتصادياً وسياسياً، إضافة إلى الامتداد الإقليمي. لم يعد الدور المعطى لهم قادرا على استيعاب قوتهم الجديدة. وهذا ما تعبّر عنه قيادتهم. ان ما يطالبون به ليس إلا ترجمة لهذه القوة المستجدة التي يجدون أن على الجماعات الأخرى أن تعترف بها. وعدم انتزاع هذا الاعتراف من الآخرين يجعلهم يلجأون إلى المزيد من عروض القوة وتصعيد المطالب. الأمر الذي يعطي بدوره ارتدادا عكسياً، بمزيد من المخاوف لدى الجماعات الأخرى. الخوف المتبادل سيّد هذه المرحلة.

(1) كتبت هذه المقالة في أواخر العام 2007.

لذا نلاحظ ان الشيعة - إذ أن كلامنا ينحصر بهم هنا (ولا ينفي صفة التعصّب والانحياز عند الطوائف الأخرى) - يعانون من أزمة، نوع من "نوبة حادة" يشعرون معها بالقوة والضعف، الربح والخسارة. ربحوا الحرب وخسروا اطمئنانهم وسكينتهم؛ انهم أقوياء يمتلك حزبهم آلاف الصواريخ يهدد بواسطتها بالويل والثبور ومع ذلك يشعرون بالتكبيل والقصور. فهل من الممكن لسلاح مقاوم أن يوجّه نحو شعبه أو نحو جزءٍ معارضٍ منه ولو ناقضه في التوجه السياسي! لذا تحول الاعتصام عبئاً وغلطة؛ المكابرة وحدها تمنع العودة عنها. وكل التهديد والوعيد على أنواعها لم تتقدم بهم قيد أنملة.

هذه الاستفاقة المفاجئة واكتشافهم انهم قوة لا يستهان بها تجعلهم يحاولون فرض لبنان الذي يريدون، ضاربين بعرض الحائط بكل تاريخهم التوافقي وكأنهم يريدون الثأر من كل إرث الحرمان الذي ينسبون أنفسهم إليه من دون تعلّم أي درس من الحرب الأهلية.

فنسمع منذ أن اندلعت حرب تموز 2006 نغمة تتكرر من بعض الأوساط الشيعية، وخاصة عندما يحتدم النقاش حول خيارات حزب الله الما- فوق لبنانية وتسليم جماهيره الأعمى للسياسة التي يتبعها. يقول لك وأحدهم: لم نعد نريد ان نكون مواطنين درجة ثانية؛ ويقول آخر لن نقبل بأن نعود عمال على البور وزبالين.. وكأن التحسن الذي طرأ كان بفضل أداء زعمائهم المحليين الذين استبدلوا أنفسهم "بالاقطاع" ولم يكن جزءاً - فقط - من الأموال التي أعطيت للجنوب بسبب الإحتلالات والحروب الإسرائيلية، والتي أهدر ما تبقي منها، أو من أموال المهاجرين من أبنائه الذين كدحوا في المهاجر وبنوا قصورهم التي هدمتها إسرائيل صيف 2006...

وفي علاقتهم المتجاذبة مع سوريا يبدو الأمر وكأنهم يتوهمون ان هناك قوة سحرية اسمها نظام الأسد شكلت لهم الرافعة التي انتشلتهم من وضعهم وأن هذا السحر سوف يزول بزوالها مثل قصور علاء الدين. هذا الشعور بالاستقواء بالنظام المجاور يعود إلى شعور ضمني بالهشاشة والضعف والغبن؛ أو ما اصطلح على تسميته بالحرمان منذ أن تصدّى لمعالجته الإمام المُغيّب موسى الصدر. *[وفي هذا قفز عن الإنماء العام الذي عرفه لبنان بين عامي 1960 و1967 حيث انتعشت كافة*

الأطراف بما فيها الجنوب بفعل السياسة الانمائية للعهد الشهابي، ومعظم المنتمين إلى طبقة المثقفين الحالية تعلموا بسبب هذا الإنماء الذي حصل من قبل الإدارة الشهابية الإصلاحية، الأمر الذي يتم القفز عنه الآن وتجاهله]. ومع أن انتساهم إلى الحسين كمحرك ثوري في التاريخ يتناقض تماماً مع دفاعهم، أو على الأقل سكوتهم، عن نظام قامع للحريات ومستبد. مع ذلك يدافعون عن نظام الأسد ولو على انقاض لبنان. وتشن حرباً كرمى لعيون أسير لبناني[1] في إسرائيل ويتم التغاضي عن مئات المعتقلين والأسرى اللبنانيين في سوريا. ورغم الشعور المتناقض الذي يكنونه لأشقائهم السوريين، إلا أنهم يتخطون كل هذه العوائق وبعناد الثابت على موقف فقد كل مبرراته ويشهرون مع ذلك حرمانهم العتيد الذي تكذبه أي عين ناقدة تجول قرى الجنوب قبل أن تهدمه الحرب الأخيرة بالطبع.

نتائج المعاناة من الإحتلال والعدوان الإسرائيليين ومفاعيلهما على الجنوب والجنوبيين وخاصة الشيعة؟

في مطلع الثمانينيات وعند بدايات تكوّن حزب الله وفي الفترة التي لم يكن يعلن أي منتمٍ لهذا الحزب عن انتمائه هذا، فلقد كانت تلك مرحلة العمل السري المطلق. كانت لي نقاشات كثيرة مع أفراد منهم وخاصة طالبات وكانت كلها تؤدي إلى وجود تمايز عن إيران وحتى عن إفصاح عن النعرات التعصبية والعنصرية المتبادلة. وعندما كنت أسأل لماذا لا تتوجهون للدراسة في إيران كانوا يشتكون من عدم سهولة التأقلم هناك للأسباب المذكورة.

بينما نجد الآن تنامي مشاعر التعصب والولاء لكل ما هو شيعي – بالمعنى الإيراني للتشيّع – في ردة فعل حرون على الوطن ومكوناته. ان التشيع الذي انتج في إيران كأيديولوجية تعبوية في خدمة الثورة الإيرانية، ليس إعادة انتاج بسيطة للتشيع التقليدي. ثمة تحولات جمة حصلت داخله وجعلت منه سلاحا يستخدمه العديد من فئات المجتمع الشعبية ضد "الطغاة". فبالنسبة لهم يُعدّ تديّن وتشيّع الطبقات المسيطرة مزيفاً، التشيع الثوري الحقيقي هو "تشيّع علي". وهذا هو تشيّع حزب الله.

---

(1) قال السيد حسن نصرالله حرفياً على شاشة التلفزيون للأسير القنطار وأمام آلاف المشاهدين: لقد قمنا بهذه الحرب كرمى لك، وذلك أثناء حفل استقباله.

أخبرني طالب عراقي – بعد تردد شديد – عن ذهابه إلى الضاحية للتعرف على الوضع هناك عن كثب. دخل دكاناً وطلب وشاحاً عليه العلم اللبناني فأجابه البائع الأول: نحن لا نبيع العلم اللبناني نبيع هذا العلم: وأشار إلى علم حزب الله. لم يكوّن الطالب رأياً وقال ربما هو موقف فردي من قبل هذا البائع. ذهب إلى المحل الثاني وكرر طلبه، ردّ البائع قائلاً: نحن لسنا لبنانيين، نحن إيرانيون ولا نبيع العلم اللبناني. خرج الطالب مذهولاً متسائلاً: هل هذا معقول؟

ربما هي مجرد إجابات استفزازية، ويتمنى كل لبناني أن لا يكون هذا الرأي معبّراً سوى عن أقلية نادرة، لكن في ذلك مشكلة في كل الأحوال.

فهل يمكن أن نقبل إذن أن يكون الولاء الطائفي والديني ذريعة للمسيحي لكي يعلن ولاءه وانتماءه إلى فرنسا أو الفاتيكان مثلاً وتطبيق سياستهما؟ والارثوذكسي يطبّق سياسة روسيا؟ والبروتستانتي سياسة الولايات المتحدة؟ وهكذا؟

الأسباب النفس – اجتماعية لتكيّف الفرد مع عصبيات الطوائف المتراصة: لماذا يخضع لهيمنة الآخرين؟ لماذا ينقاد من دون تساؤل إلى الأكثرية؟

الخلفية:

- جميعنا نعرف كيف قام حزب الله منذ تأسيسه ببناء شبكات اجتماعية ودينية وتربوية وصحية واقتصادية وسياسية شكّلت على مرّ السنين إطاراً حامياً وسياجاً كان يزداد تشابكاً وتجذراً مع الوقت وأحدث تغييراً في سيكولوجيا وسوسيولوجيا الجماهير وفي نوعية وطرق ممارسات طقوسها الدينية والاجتماعية، ودرجت "موضات" مستجدة في حياة الشيعة واجتماعهم فلقد تم استيراد ممارسات وطقوس التشيع الإيراني بحذافيرها. بحيث صار بإمكان خطابهم الإشارة إلى "ثقافة شيعية خاصة" بمعنى "غير لبنانية" دون الانتباه إلى الها هي نفسها مستجدة وإيرانية المكّونات.
- ربما لا تنفرد الطائفة الشيعية ولا حزب الله بهذا الأمر أي عبر إيجاد مؤسسات أهلية بديلة عن مؤسسات الدولة، وأكيد الهما قاما بما سبقتهما إليه الطوائف الأخرى منذ زمن بعيد؛ لكن تأثير هذه الممارسات كان مختلفاً إذا نظر إليه من

زاوية الولاء والإنتماء الوطنيين. ففي حين ظل ولاء المسيحي للبنان حصراً رغم الإرساليات الاجنبية ودورها في تمكين المسيحي على مر السنين الطويلة. بينما نلاحظ ان حزب الله يعلن ولاءه التام لمرجعيات دينية تحمل جنسية وولاء سياسيين تاماً لدولة أخرى لها مصالحها الخاصة وسياساتها ولو جمعهما الإنتماء المذهبي.

- إن التحرير الذي حصل في العام 2000 لم ينل حقه من الاعتراف والاحتفال فقبل أن يتخذ بعده كإنتصار ناجز وتام ومعترف به، سرعان ما تم "اكتشاف" نقصان هذين التحرير والانتصار. وكان الأمر بمثابة نفي لحصولهما – التحرير والانتصار – وانطلقت عملية التجييش لاستكمال تحرير مزارع شبعا. وشكّل هذا نوع من إنكار وكبت وقمع لشعور الانتصار التاريخي الذي شعر اللبنانيون عامة والطائفة الشيعية خاصة لاحقاً – وعن حق- أنهم "حرموا منه" إذ مرّ مرور الكرام وكما حرموا من التمتع بالتميز عن باقي الجماهير العربية التي تبقيها الهزائم المتكررة في وضعية إحباط مزمنة. وهذه الجماهير نفسها هي التي قيّمت الانتصار بأكثر مما فعله أصحابه أنفسهم. وإذا كان الانتصار -الذي جُعل نسبياً وناقصاً نقصاً فادحاً- قد عُدّ في البداية انتصاراً للبنان بجميع أبنائه بسبب سلوك المقاومة الناضج حينها؛ لكن سرعان ما أدت الممارسات اللاحقة والانـــزياحات والأحداث المتتابعة منذ اغتيال الحريري إلى حرب تموز إلى احتكار حزب الله لهذا الانتصار وجعله "ماركة شيعية – حزب – الهية مسجلة". وأكثر ما برز هذا الأمر بعد "الانتصار" في حرب تموز 2006. وتحولت نتائج الحرب الكارثية إلى "انتصار إلهي" مع ما رافقها من استعادة للتراث الأسطوري الخرافي والعجائبـــي في نكوص إلى أزمنة بائدة لم تبرهن عن نجاعتها.
- جعل ذلك كله من شعور الغبن يستعيد قوته مبرراً شعور الاستكبار عند الجماهير وقياداتها: كيف لا يتثمن هذا الانتصار؟ وكيف لا "يكرّم" أصحابه بإعطائهم الحق بالتصرف المطلق بالجنوب "كملكية خاصة"! وبحصة أكبر في الدولة ومؤسساتها وبالحق برسم سياساتها ومصيرها طالما انهم الأقوى والأقدر على الدفاع عن جنوبهم ولبنان وطالما أن ما حدث في 2006 كان "انتصاراً صافياً" لا لبس فيه؟؟ و لم يعترف لهم به الآخرون؟

مع ذلك لا يمكن فهم ما يحصل على صعيد الطوائف في لبنان ومنها الطائفة الشيعية دون العودة إلى ما يسمى بـــ "سيكولوجيا القطيع" وقدرة الجماهير على التكيف مع أحكام خاطئة. وسوف أذكرها بسرعة:

هناك إختباران سيكولوجيان أحدهما هو اختبار مِلغرام والآخر إختبار آش. الأول يجعل متطوعين متنوعين يقومون بتعذيب شخص يراد منه أن يتعلم مفردات لغوية فتطلق عليه شحنة كهربائية تتزايد باطراد (إلى أن تبلغ قوتها 450 فولت المميتة) في كل مرة يخطيء فيها التعلم. وكان الهدف من الدراسة قياس إستعداد المشاركين لإطاعة سلطة تأمر بتنفيذ ما يتناقض مع ضمائرهم. أراد مِلغرام من الإختبار أن يجيب على السؤال التالي: "هل يُعقل أن دور الجنود الذين نفذوا الهولوكست لم يتعد تنفيذ الأوامر؟ أم أنهم شركاء في الجريمة؟".

أمكن في هذا الإختبار، لمشرف مجهول، من أن يوجه الأوامر لمجموعة من البالغين لقهر رجل في الخمسين من عمره وإخضاعه لصعقات كهربائية، مؤلمة رغم إحتجاجه ومرضه!

ولقد نفذ 65% من المشاركين التجربة حتى النهاية. وحصلت نفس النتيجة مع إعادة تكرار التجربة. إذن لا يسعنا إلاّ أن نتساءل عما تستطيع الحكومات بما لها من سلطات أوسع بكثير أن تأمر به؟؟ ونفهم عندها لماذا أطاع الألمان هتلر! ولماذا خضع العراقيون لحكم صدام؟ ولماذا تخضع الجماهير العربية لأنظمتها والطوائف لزعمائها... ذلك ان عدد الأشخاص الذين على استعداد لمقاومة السلطة أقل بكثير ممن هم على استعداد لطاعتها العمياء؟ كما نفهم لماذا تنصاع الجماهير لحزب الله الذي يجمع القوة مع القداسة ومع "التكليف الشرعي" الإلهي!!

لماذا تتم الأمور بهذه الطريقة؟ ما الذي يفسر الانصياع للسلطة؟

- انها التنشئة الاجتماعية التي تدربنا على طاعة الآخرين.
- النقص في التعاطف مع الآخرين وعدم القدرة على احلال أنفسنا مكانهم.
- كون مرجعية السلطة شرعية وذات مكانة (كجامعة يال المحترمة حيث أجريت التجربة، حكومة أو مرجع ديني أو ما شابه).

ربما يكمن فهم هذا السلوك أيضاً في مدى القدرة على تحمل المسؤولية الفردية أو عدمها. لقد برهنت هذه التجربة وغيرها ان المسؤولية الفردية تنتفي عندما يكون الشخص منفذاً لأوامر آخر أو آخرين. حينها يقل عذاب ضميره، فليس هو من يقرر هذا العمل، بل *آخرين*.

أما في تجربة آش فقدمت صورا فيها خطوط غير متساوية وكان على المفحوص أن يقارن مع صورة أخرى ويقرر تشابه طول الخط فيما بينها. *والهدف من هذه التجربة معرفة ما إذا كان الفرد يتكيف مع الجماعة ذات الأحكام الخاطئة*. وفعلاً عندما كانت تجمع الجماعة على الخطأ كانت غالبية المفحوصين يتبعونها.

كم من مفحوص لدى Asch كفّ عن المقاومة؟! 75% أي 3 من أصل 4 وافقوا على جواب خاطىء مرة واحدة على الأقل.

عدد من التجارب الحديثة أظهر أن الرغبة في التكيف لم تتماش مع الرغبة في التغيير.

- أما العوامل التي تؤثر على التكيف فعديدة منها الشخصية:

  الرغبة لأن يكون الفرد محبوباً من قبل أعضاء الجماعة،

  الرغبة في أن يكون على صواب،

  امتلاك وعي مرتفع بالذات،

  خجل إجتماعي،

  ألفة في العمل.

- ومنها عوامل موقفية:

  حجم المجموعة والدعم الإجتماعي.

ويبقى أن يُضاف، أنه إذا كان هناك شخصٌ واحدٌ فقط يوافقك الرأي سيدفعك ذلك إلى الثبات على موقفك.

ولقد تم إثبات أن الأشخاص الذين يفضلون أن يكونوا على صواب على أن يكونوا محبوبين في الجماعة، هم أقل تكيفاً مع ضغوط المجتمع.

زادت الحرب الأخيرة تكتل الطوائف جميعها وتعصبها، لكن هذه الظاهرة كانت أكثر بروزا عند الطائفة الشيعية.

إذا كان هذا الوضع، من غلبة الإنتماءات الطائفية والمذهبية، سائداً وشاملاً لكل الطوائف، فما هي خصوصية الطائفة الشيعية إذن؟ لماذا يكثر النقد الموجه إليها بشكل خاص؟

إن تكوين وطبيعة واهداف حزب الله والتفاف غالبية الشيعة حوله - مهما تعددت هذه الأسباب - جزء من الخصوصية الشيعية. وهناك عاملان على الأقل يجعلان من الوضع الشيعي أكثر تفاقماً مما هو عليه الوضع عند سائر الطوائف، وتشمل هذه الخصوصية:

الدمج الحاصل بين الدين والسياسة وتقديس القائد الذي يصبح تجسيدا للخير والجمال والقوة والعدل والحكمة. هناك التحام بين الدين والسياسة، الفرد والجماعة حول مجسّد المقاومة وحاميها والولي الفقيه من خلفه. ينقل حزب الله رؤيته عن التجربة الإيرانية حيث قام الخميني بتطوير مفهوم ولاية الفقيه وجعل السياسة خاضعة للدين باسم الله. وعندما يتوصل خطاب من هذا النوع إلى إرساء دعائمه تصبح التوتاليتارية في المتناول والنموذج الإيراني تأكيداً لذلك.

من ناحية يتمتع قائد حزب الله بصفة القداسة وتتمحور عقيدة الحزب حول ولاية الفقيه من ناحية أخرى. فأن تنتقد قائد المقاومة ولا تخضع لأوامر الحزب وهي "تكليف شرعي" يعني الكفر ذاته والخروج على الجماعة. ولا زلنا نذكر عرض عضلات المحازبين رداً على برنامج تلفزيوني في شباط 2006. ومن ناحية ثانية يمتلك حزب الله سلاحا يفوق في قدرته سلاح الدولة نفسها ويرفض إخضاع هذا السلاح لسلطتها وحصر استخدام العنف وقرار الحرب والسلم بيد هذه الدولة وحكومتها المنتخبة حصراً. هذان هما عنوانا المشكلة.

وهذه المشكلة وضعت حزب الله في وضعية مساءلة حول وظيفة سلاحه. وهذا ما أفقده الاجماع السابق الذي كان حاصلاً حول المقاومة وسلاحها. كما حصل في العام 1996 وهو الأمر الذي كان حاسما في انتصارها لاحقاً.

الآن أصبح دور المقاومة موضع تساؤل وهذا بحد ذاته كاف لاضعافها. فهذا السلاح المقاوم الذي يحمي لبنان من ماذا يحميه؟ طالما أن الدمارً الذي نتج عن الحرب حصل على مستويين: مستوى بنية الدولة من اعمار واقتصاد وبنى تحتية ومستوى النسيج والتوازن الاجتماعيين الداخليين؟؟

عسكرة المجتمع وتسليح العقول

أحد نتائج سلاح حزب الله ووضعيته الخاصة أدت إلى عسكرة المجتمع وتسليح العقول. يرتفع إطلاق النار عند أقل مناسبة وعند كل خطاب وأثناءه وبعده. تهدد مؤسسات الدولة والسرايا الحكومية وتقطع الطرقات أوعلى الأقل يتم التهديد بذلك. ومن الملفت ان مؤسسات حزب الله تحمل في معظمها اسم تعبئة وهي الكلمة نفسها المستعملة في إيران وتعني "الباسيج": تعبئة المجتمع اجتماعياً وسياسياً واعلامياً ورياضياً وتربوياً، كل ذلك في إطار ولبوس دينيين ما يعني غطاء قدسياً لكل سلوك يومي. ومن أخطر المؤشرات التي حصلت و لم يتم نقاش دلالاتها كما يجب اللعبة الالكترونية التي جعلت هدفاً لها اقتحام السرايا وقتل رموز الموالاة!! انها لعبة خطرة جدا على عقول الاطفال والناشئة ولمثل هذه الممارسات نتائج بعيدة وعميقة تساعد على خلخلة التماسك والانسجام الاجتماعيين دون اهتمام بالسؤال: أي طفل نعدّ للمستقبل؟ عدا عن دور الاعلام التجييشي عبر البروباغندا التي لا تتورع عن القيام بغسيل دائم للادمغة.

وتنعكس هذه الظاهرة تسليحاً تدريجياً للطوائف جميعها، والشرائح الاجتماعية الأخرى في تخوف من تعميمها على المجتمع كافة .بما يهدد بعودة العنف والحرب الأهلية وتجدده رغم التخوف والرفض الجديين لهذا الأمر من قبل معظم اللبنانيين.

المأزق

كل ذلك أدّى إلى وضع مأزقي ويبرهن على هذا المأزق ذلك الموقف الملتبس لحزب لله من القرار 1701 والذي يمنع بموجبه من القيام بأي عمليات ضد إسرائيل.

ولقد ظهر التعبير عن المأزق المتعدد الاوجه والناتج عن حرب 2006 وعما آل إليه وضع المقاومة، واضحا مع التدريبات الأخيرة (2007/11/05) التي أعلن عنها بطريقة متناقضة (حصلت يوم الجمعة 2007/11/02)، ففيما أكد الحزب انه أجرى "أكبر مناورات عسكرية". وفي حين أكد نعيم قاسم: "المقاومة تتصرف كمقاومة وبمعزل عن الوضع السياسي الداخلي، المناورات للمقاومة كانت خالية من أي مظاهر عسكرية وباشراف شخصي من السيد نصر الله!!". بينما أشار كل من رئيس الحكومة واليونيفيل إلى تدريبات نظرية وتمرين على الورق.

هذا الإعلان أمر مستجد. السؤال هو حول الغرض من تسريب مثل هذا النبأ؟ هل هو نوع من البروباغندا عن جهوزية المقاومة؟ هل تحوّل عمل المقاومة إلى إعلامي أكثر منه سرّي!

إنه نموذج عن تحوّل المقاومة عن وظيفتها التحريرية المشروعة التي كانت لها قبل العام 2000، عندما لم يكن الاعلام والإعلان همها الأول، إلى البحث عن إظهار قوتها وقدرتها على تعطيل الحلول التي لا تتلاءم مع وظيفتها الجديدة كحامية للنظام السوري وكحليفة استراتيجية للمتشددين في النظام الإيراني.

مقارنة مع ذلك نجد أن الطوائف الأخرى لا تمتلك سلاحاً يمكن أن يقاس بسلاح حزب الله، وإعادة تسلحها هو نتيجة لهذا السلاح. إضافة إلى أن الطوائف الأخرى تملك نوعاً من تعددية معينة مهما كان تمثيلها: فالطائفة السنية لديها زعامات تقليدية احتفظت بالحق بالتعبير: الحص وعمر كرامي وسعد والبزري في الجنوب. والدروز لديهم طلال ارسلان وبعض المراكز الدينية عدا عن ابواق دمشق، والمسيحيين تتم الشكوى من إنقساماتهم وتعدد زعاماتهم.

لكن هذا التمثيل المتنوع أو شبه المتنوع عند الطوائف الأخرى معدوم عند الطائفة الشيعية ولا يسمح لأي فئة -عدا حزب الله وأمل بنسبة أقل - بادعاء التمثيل وهذا له وجهان: وجه يلعبه "مصادري حق تمثيل الطائفة القسري" بقوة السلاح ولو رمزياً ووجه آخر سببه احتياج الشيعة إلى الاطمئنان على استعادة حياتهم وبيوتهم وأعمالهم ومن دون نتائج جانبية لكل ما يحصل. كما أن هناك تواطؤ واضح من الطوائف الأخرى وحتى الدول، على تهميش أي تمثيل شيعي مختلف، إذ سرعان ما يقال لك: أين هم الشيعة المختلفون؟

أنواع الشيعة

في الحقيقة عدما تُقرأ بعض استطلاعات الرأي الموثوقة، نكتشف أن ما يبدو "كتلة متراصة" من الخارج، هو ليس كذلك في الواقع. هناك عدة فئات أو تيارات مختلفة ضمن الطائفة الشيعية:

- المتمحورون بقوة العصبية والعقائدية حول حزب الله أو نواته الصلبة هم حوالي 15% ويمكن أن نطلق عليهم أيضاً: المستفيدون، إذ لا ينبغي أن ننسى عامل الترقي الاجتماعي والرمزي في عملية الاستتباع الحاصلة للحزب خاصة في وضع اقتصادي واجتماعي مأزوم.
- المعارضون بصمت نسبـــي 30% وهم حتى الآن خائفون من التصدي للتيار العصبوي.
- الممتثلون والمنقادون خلف موجة التعصب وتغليب الولاء للطائفة وللحزب العقائدي الشيعي على الولاء للدولة والوطن 50-55%، وهناك فئة من هؤلاء تلحق الجماهير خوفاً على معاشها ومهنتها وكي لا تتعرض للمقاطعة وهؤلاء هم المخطوفون.

السؤال الآن متى سوف يحصل فك الارتباط بين هذه "الجماهير" وبين من تعتبرهم مثالاً وقدوة وتعترف انهم قادة لها، وتنطلق خلف خياراتهم بشكل أعمى ودون سؤال؟ كيف ومتى سوف يمكن تفكيك هذه الكتلة المتراصة التي تتميز بالتعصب والانحياز في الاعتقاد وفي التعلق الغامض بأفكار لا يمكن اثباتها أو نفيها (يمكن هنا مراجعة الأدب المتعلق بالمعجزات الخارقة التي ترافقت مع الحرب وساعدت على الانتصار) وهم يقسمون العالم إلى فسطاطين: الخير والشر؛ الابيض والاسود، الكافر والمؤمن. وهذه عادة مواصفات الديكتاتوريات.

لا يحدث تنفيس التوترات إلا باكتشاف الواقع من جديد، الواقع الذي لديه جوانب سيئة وأخرى جيدة، بينما المتعصبون يعيشون في عالم لا واقعي منقسم إلى قسمين حصريين وخاضع لهوامات مرعبة وبالتالي تصبح العدوانية المثارة ضد الآخر الشرير أكبر وأعمق إلى جانب تضخيم مرضي للذات مما يسبغ عليها المزيد من القدرة الكلية والعلم الكلي.

المعاناة وكيفية الخروج من هذه الوضعية

إن اليأس الشديد الذي ينتج عن وضع حرج يؤدي إلى التحول نحو التشدد الذي يبرز كنتيجة للشعور بالخطر الذي يهدد مستقبل الطائفة، فيناهضون كل من يعتبرونه ضد الحرب فهو بالتالي حكماً ضد المقاومة التي لا تريد أقل من تحرير القدس وقبلها الجولان وليس فقط القيام بالدعم أو المساندة للشعب الفلسطيني. يريدون للبنان أن يقاتل وحده عن جميع الآخرين. الأمر الذي لا يوافقه عليه اللبنانيون. ماذا يمكن تسمية ذلك: هل يمكن تسميته "مرض المقاومة"؟

يولّد ذلك لديهم شعورا بأنهم يشكلون جزءاً من المجتمع أكثر نقاء إنهم "أشرف الناس" أنقياء أطهار مقابل الخونة والعملاء والصهاينة والراكضين خلف الحلول الانتهازية. يصبح اللبناني الذي يريد أن يعيش حياته العادية مجرد "خائن" و"ضعيف"؛ وتصبح حملة "أحب الحياة" مدعاة للسخرية وتعبير عن جبن ويأتي الرد "بكرامة" يعني أن اللبنانيين أو الآخرون عامة هم من دون كرامة ويرتضون "العيش الرخيص". يكتلهم هذا الشعور ويجعلهم اختلافهم أكثر قدرة على مقاومة ضغوط الآخرين. حصل نوع من تسييج الذات ووضعها ضمن حدود ضيقة لا تتوسع خارجها.

لكن من الملاحظ وجود تململ يعبّر عن نفسه على الأقل في الحركية الملاحظة وفي تعدد الاجتماعات والنقاشات من داخل الطائفة. ثم هناك معاناة خلف هذه الاقنعة من التبعية والانقياد المتعصبين، هناك الكثير من أخبار يتم تناقلها همساً عن بوادر ما يمكن تسميته بالتفكك الاجتماعي:

يوجد عند الشبيبة أنواع من الإدمان على ادوية ومخدرات مختلفة؛ ناهيك عن نوع من الفلتان الجنسي ولو انه يتخذ غطاء شرعياً اسمه "زواج المتعة" حيث لم تعد تحترم – في بعض الأحيان– حتى القواعد الأساسية لهذا النوع من العقود المؤقتة. وأخيراً الهجرة المتفشية عندهم كما عند جميع الفئات والطوائف. ناهيك عن الاكتئاب المتفشي (متلازمة لبنانية) والعمل من أجل الهجرة رغم رصاص الابتهاج المنهمر كالمطر.

ثم هناك أيضاً ما صار يعلن عنه من مظاهر الفساد المالي والاداري والمتعلق بطريقة توزيع الأموال وظهور بوادر الثراء على العديد من الشرائح المنتمية إلى

الحزب.. ذلك كله قد يؤشر إلى أن كيفية النظر والتعامل مع الحزب قد تكون بدأت بالتغير.. وربما اكون مفرطة بالتفاؤل!!

لكن الأكيد أن التعصب عند الآخرين المنتمين إلى الطوائف اللبنانية المتعددة والتعامل مع الجماعة الشيعية أو غيرها كبلوك وكصخرة صمّاء هو أفضل هدية للمتعصبين فذلك يجعلهم يجدون العذر لتعصبهم ويعطيهم التبرير لها فيتغاضون ويتسامحون عن المشاكل التي يعانونها. إن اعتراف الآخرين بمثل هذا الإنتماء يزيد من تماسك الجماعة ويشكل هدية أخلاقية واجتماعية تزيد من قوة هذا النسيج الاجتماعي. وإذا كان في الإنتماء إلى جماعة نوع من تخلي عن قدر من الحرية فـYن ذلك يعوض عنه بإثبات الذات في شكلها الجماعي أي اثبات الهوية الجماعية لهذا الإنتماء والتعصب له ويعوض الإحساس الجديد بالقوة عن الضعف الممكن... ويعود هذا فيغذي الشعور بالخطر عند سائر الطوائف. وهكذا نظل قابعين في دائرة مغلقة.

ما هي آفاق المرحلة؟ وكيف يمكن احداث تغيير في جسد الطائفة المتماسك؟

إن ما يحصل الآن هو تعصب وانتماءات عضوية غالبة وولاء للطائفة وليس للوطن.. وينتج عن هذا كله تعبئة وشحن مذهبيين يؤسسان لتنشئة جيل بكامله يتعايش مع هذا الجو الموبوء الذي سوف ينعكس على مستقبلنا لسنوات عديدة...

الأسئلة التي يجب أن تطرح لكي تعالج:

كيف يمكن كسر دائرة التعصب؟

كيف يمكن تقوية الممارسة المواطنية بما هي علاقة بين الفرد والدولة؟

هل يمكن الوصول إلى هذه العلاقة التي تكفل كامل العضوية السياسية للفرد في هذه الدولة وتتطلب ولاءه التام لها؟

ليس المطلوب التخلي عن الطائفة لكن اعتبار الإنتماء إلى طائفة أو امتلاك هويات خاصة أمر ممكن شرط أن يظل تحت حدود المواطنية، أي عدم طغيان هذا الإنتماء وخلطه أو تناقضه مع الولاء للوطن والدولة.

* * *

لماذا تثير مقالة كل هذه الردود؟

تجربتي بين الخطي والشفهي، بين اللبناني والعربي[1]

عندما تأخذ مقالة مثل مقالة: "أن تكون شيعياً الآن" ("قضايا النهار" 2006/08/07) كل هذا الاهتمام والصدى، وتتلقفها الأيدي وشبكة الانترنت بمثل هذه الحماسة، وعندما تتوالى الردود عليها شفهية ومكتوبة أو مرسلة بالبريد الالكتروني أو منشورة في المواقع الالكترونية، فإن هذا يلزمنا بأن نتوقف قليلاً لكي نتساءل عن اللماذا؟ عن الأسباب المتعددة، ربما الظاهر ومنها وغير الظاهر..

بداية لا بد من الإشارة إلى أن الدعم الشفهي كان هو الغالب في معظم الأحيان كما انه جاء من مختلف الاماكن وخاصة من الداخل مباشرة وعبر اقنية شخصية وعبر تناقل المقالة أو الاتصال من الخارج بالطبع.. بينما كان النقد، سواء توجه بشكل شخصي أو علني وبصوت جهوري متعال موزعا الدروس مكتوباً، وكان في معظمه من الدياسبورا اللبنانية أو العربية أي المتنعمين بنعيم "الديموقراطيات الغربية الزائفة" هرباً من بلادهم التي يريدونها حرة ومقاومة لكن عن بعد فقط ومن دون مقابل سوى الكلام الحماسي... والدعم يأتي من مختلف الطوائف، الشيعي مثله مثل الآخرين وعندما أقول لماذا لا تعبرون عن ذلك إذن كتابة؟ تأتي الإجابة في منتهى الصراحة أحياناً: انه لا يقدر على الإعلان عن رأيه!! هكذا!! بسبب مكان سكنه أو ما شابه.. كذلك الأمر بالنسبة إلى الطوائف الأخرى فهم أيضاً لا يقدرون على ممارسة النقد العلني "كي لا نقع في فتنة طائفية". وفي هذا توصيف للداء وللدواء!!

السؤال الأول في هذا المجال: لماذا تثير مجرد مقالة كل هذه الردود؟ وما الذي يعنيه ذلك؟ ألا يعني ذلك فيما يعنيه أنها عبرت عن حقيقة ما قوية ولو مختلف عليها؟ وانها رفعت "صمام" الصمت والتكاذب والمداهنة؛ وأن ذلك تسبب بحصول تعد وتجرؤ على الثوابت الجامدة والأفكار المسبقة والاستلاب التي سادت في مجتمعنا؟

---

(1) قضايا النهار، 2006/09/01.

وهذا ما ينقلنا إلى السؤال الثاني: ما هو دور السلاح هنا؟ وهل حقاً أن امتلاك فئة معينة هذا السلاح، ولو أنه مقاوم وغير موجه إلى الداخل، ألا يؤدي بجرد وجود السلاح بأيدي فئة معينة إلى ممارسة نوع من الضغط؟ أو لنقل "الهيبة" الضاغطة.. وماذا ينتج عن ذلك؟ ومهما كانت مقاصد هذه الفئة شريفة ومقدسة (وخاصة لأنها مقدسة) ماذا يترتب على ذلك من أنواع من القمع العلني أو المترسب أو الضمني ولو بمعنى الاستلاب والامتثال للرأي السائد والمتغلب الذي يلجم ويمنع و"يخجّل" الآخرين من حرية التعبير (الحقيقي) ومن الإعلان عن آرائهم، ما دام الأمر يتعلق بسلاح مقاوم، بسبب خضوعهم للفكر المهيمن وللذهنية المسيطرة والتي تقوم بتعبئتها وسائل متعددة ليس أقلها البروباغندا التي طالما اشتهرت بها المنطقة العربية والتي يبرع فيها الآن حزب الله بشكل تام، والتي لا تعني أقل من ترداد شعارات ولازمات تحمل مواقف تحفظ غيباً ويتم تردادها، وتهدد الآخرين بتخوينهم ما يعني هدر الدم العلني والمكشوف أو المستتر والضمني لكل صاحب رأي مختلف!!

فهل دلت طريقة استقبال مجرد مقالة على "التسامح" (مع الاحتفاظ بحق نقاش المعنى السلبـــي لعملية التسامح نفسها والتي تفترض ضمنا وجود فئة أقوى من فئة أخرى فـــ "تتسامح" مع وجودها بما يتضمنه ذلك من رفض أولي لهذه الفئة لكن يتم التسامح معها بكرم أخلاق تتمتع به الفئة المتسامحة!!) إذن هل يدل ذلك حقاً على تقبل للآخر المختلف أم انه يعني عدم قدرتنا على قبول هذا الرأي الآخر المختلف؟؟

كتبت لي صديقة عربية أنها معجبة بمدى حرية الفكر في لبنان، وهذا صحيح في جزء منه فقط، لكنه لم يتعمم بعد ولقد دفع اثنان من خيرة صحافيينا ومفكرينا حياتهما ثمنا لحرية فكرهما التي عدت تهوراً وتجرؤاً على كسر محرمات وتخطي حواجز.

إن ما هو مطلوب حقاً في هذه المرحلة من أجل إعادة السلم الأهلي وتهدئة "الشوارع" المستفزة هو الانخراط في عملية حوار جاد وهادئ بعيداً عن الانفعالات المسيطرة والخوف المتبادل حول ما يجمعنا وما يفرقنا؟ وحول ما الذي نريده لبلدنا ولمستقبل أولادنا فيه؟ أي نظام وأي مستقبل وأي دور؟ فلا ينفرد أي طرف في فرض أي روزنامة.

إن كل ما أشير له أعلاه يرمي بثقله على مجتمعنا بجميع فئاته ويمنعه من النقاش العلني والصريح ومن تقويم التجارب التي نتعرض لها دورياً والتصارح حولها لكي نتعلم ونستفيد منها وهذا يستدعي إطلاق المخاوف الكامنة من أجل ضبطها فلن يفيدنا عدم الافصاح عنها في شيء.

فما الذي يمكن استنتاجه من كل هذه الضجة المثارة حول "الانتصار" في هذه الحرب؟ وما هي الحقيقة أو المعنى المختبئ خلفها؟

الامثولة

لا شك أن ما حملته هذه الحرب الأخيرة شكّل امثولة وأسطورة مؤسسة حقيقية في منتهى الأهمية للعالم العربـــي ولشعوبه المغلوبة على أمرها والخاضعة للقمع والفقر والأمية، وهي: هدم أسطورة تفوّق إسرائيل المطلق أوعدم القدرة على غلبتها.

لقد برهنت الحرب أن إسرائيل نمر من ورق، آلة صمّاء من دون دماغ يعقل صممت لتوزيع العنف ولممارسة الحرب عن بعد دون الاستعداد للقيام بأي تضحية بشرية وأن حياة الآخرين (العرب) هي أقل قيمة ولا تعني لها أي شيء.. وأن الإرادة في المقاومة المحتضنة من محيطها قادرة على أن تتغلب عليها ولو بأدوات بسيطة (نسبياً)!! وهذا ما كان يمكن أن يحصل بالطبع لولا تضحيات وبطولات المقاومين المحضونين من اللبنانيين جميعهم وإن بطرق مختلفة ومنوعة.

كما برهنت ردود الفعل على هذا الانتصار - فتسميته صمود هي الصحيحة - عن مدى التهديد الذي تشعر به الجماهير العربية لوجودها الرمزي وعن عمق الجرح المنغرز في قلب ووعي المواطن العربـــي الذي لم يعتد سوى الهزائم والظلم. ولذا نجده يبحث عن نصر أي نصر وعن بطل لكي يمجده، وهذا ليس انتقاصاً من أهمية أبطالنا بالطبع، لكنها محاولة لفهم وتفسير هذا التعطش للبطولة.. فشعوبنا لا تستطيع أن تعتمد على نفسها ولا تثق بقدرتها وتحتاج إلى مخلص تعتمد عليه وتتبعه فهذا أكثر راحة للنفس ويعفي من التفكير والمسؤولية وإعمال الضمير الفردي الذي سرعان ما يصبح "شقياً" عندما ينوجد.

وعلى أهمية هذا العامل في استنهاض الشعوب العربية وفي حملها على استعادة ثقة مفقودة وعلى المساهمة في شفاء جروحها النفسية والروحية، يتساءل اللبناني

بساطة: ألم يسبق أن أعطي هذا الدرس نفسه في العام 2000؟ ألم يكن ذلك الموعد هو الانتصار الحقيقي؟ هل هناك قصور ما يعاني منه المواطن العربـــي لكي يحتاج إلى أن يكرر له هذا الوطن الصغير الدرس دورياً ويعيده هو نفسه لكي يحفظه ويغيبه ولكي يقدر على القيام بتطبيقه (عند توفر شروط المقاومة بالطبع وليس اقلها الحصول على الحرية وعلى كرامة العيش في الوطن نفسه وعلى احترام حقيقي للذات البشرية) فيثأر لكرامته المثلومة؟؟؟

هل نحتاج إلى تدمير لبنان دورياً للمساهمة بتحرير فلسطين ولإقناع العالم بحق الشعب الفلسطيني المطلق في الحصول على دولته الديموقراطية وفي الحد من الدعم اللامتناهي الذي تقدمه الولايات المتحدة لإجرام الدولة الإسرائيلية وغطرستها وعنصريتها؟ هل نحتاج إلى هدم دوري للنموذج الديموقراطي النادر في العالم العربـــي لكي نحصل على تعميم لهذا النموذج نفسه؟ الا يشكل هذا تناقضاً صارخاً ونوعاً من الخُلف بالمعنى الفلسفي؟

ومتى سوف يعي المثقف العربـــي - الشديد الحماسة للنضال عن بعد وعلى حساب غيره - أن تحرير فلسطين لا يتطلب أقل من تحرير الإنسان العربـــي من الإحباط والفقر والأمية والعبودية والخضوع للانظمة القمعية واللاديموقراطية؟ ما يعني إعطاء الأولوية للجهاد الأكبر على الجهاد الأصغر!! وما يعنيه من مسؤولية المثقف العربـــي المتحمس إياه في مجتمعه نفسه وليس الهروب إلى الأمام بدعم لبنان ومقاومته عن بعد، لكي ينام بعدها متخففاً من ذنبه.

ويسأل اللبناني: هل يمكن أن نترك وحدنا لكي ندفع دورياً كلفة مقاومتنا مثل هذا الثمن الذي إذا ما قمنا باحتساب نسبة كلفته من القتلى، بدم بارد، إلى نسبة عدد السكان والنتيجة الحاصلة على الصعيد اللبناني؟ ماذا نستنتج؟ ألن يكون ثمن "مقاومة" الأطراف العربية الأخرى لتحرير أنفسهم من انظمتهم ومن العدو الإسرائيلي أقل كلفة - نسبيا- بما لا يقاس وأكثر فاعلية إذا كانت العبرة بالاعداد الكمية!!!! على قدر الحماس والانفعال؟!

ولكي لا نختلف على معاني الكلمات ونتباحث حول مغازيها ولكي لا نتسرع في إطلاق شهادات الوطنية وحسن السلوك أو الخيانة والعمالة لنتفق على بعض الثوابت التي لا خلاف حولها:

في المسلمات البديهية: الإحتلال الإسرائيلي لفلسطين هو "الجريمة الاصلية" وهو أحد - وأشدد على أحد هذه - الأسباب الجوهرية لكل التردي والعنف الحاصل في المنطقة. إنه العنف المؤسس الحقيقي، وأن ممارسات الدولة الصهيونية الإجرامية والوحشية واستخدامها منطق القوة والبطش كوسيلة وحيدة للتعامل مع شعوب المنطقة وعدم مراعاتها لأي من المواثيق أو الاعراف الدولية هي أصل كل الحروب والنـــزاعات في المنطقة.

كما أن الموقف الأميركي المنحاز بشكل مطلق لإسرائيل والداعم لها في جرائمها والمتواطئ في حمايتها من أي مساءلة هو أحد أهم عوامل إبقاء الصراع على ما هو عليه. كذلك الأمر شكّل ويشكل الدعم الأميركي للانظمة العربية المستبدة أصل التدهور الحاصل على صعيد الأمن، الأمن بالمعنى العميق وليس العسكري فقط، وهو الذي يتسبب بتخلف المنطقة بشكل جوهري وبعيد الأثر على صعيد التأخر في النمو وكل ما ينتج عن ذلك من مشاكل. دون أن يعني ذلك التخفيف من المسؤولية الذاتية للشعوب العربية وحكامها عن التخلف الحاصل.

في المسلمات المحتاجة إلى إعادة النظر: تأجيل النقاشات وممارسة النقد والنقد الذاتي إلى أن ينجلي غبار المعارك. كذلك وضع مسألة قداسة أي سلوك يتنافى مع الاحترام الحقيقي والعميق للحياة البشرية موضع التساؤل. وهنا علينا ان نتعلم من ممارسات العدو الديموقراطية وعدم الشماتة بهم لكونهم يمارسون هذا النقد وأن لا نعد هذا تفسخاً وتخاذلاً. فلا نستشهد بهم إلا عندما يخدمنا ذلك.

أيضاً الإقلاع عن فكرة قبول كل ما لا تقبل به إسرائيل ورفض كل ما تقبله من أجل إمعان النظر في مصالحنا الحقيقية والكف عن استخدام كليشيهات صارت مبتذلة تعتمد التصنيفات نفسها حول الوطنية والمقاومة وكل ما يتبع. إسرائيل في حالة تراجع وانكفاء وهذا مفهوم وواضح. يكفي انسحابها من لبنان وبنائها الجدار الإنعزالي لكي نقدر ما تريده.. لكن ذلك لا يعني تهديم لبنان على رؤوس أبنائه مقابل إثبات ذلك.

في معنى المقاومة ومعنى التحرير!!: السؤال الجوهري الذي علينا أن نطرحه على أنفسنا، خاصة عندما نتناول وضع الدولة اللبنانية والمجتمع اللبناني والمؤسسات اللبنانية ومدى ديموقراطيتها.. وخاصة عندما يضعها البعض الآن موضع تساؤل

متهكما – في نـــزعة ثورجية أو إنقلابية – حول ضرورة الحفاظ على هذه الدولة الفاسدة والمفككة وكل ما نعرفه من ذرائع. لا تفعل شيئاً سوى إضعاف الدولة لمصلحة العصبيات المذهبية.

إذن السؤال الجوهري الذي ينبغي أن نوجهه إلى أنفسنا هو: لماذا برزت المقاومة الحقيقية في لبنان فقط وليس في سوريا مثلاً مع وجود الإحتلال نفسه؟ (دون أن يعني ذلك اغفال مساعدة النظامين السوري والإيراني لدعم هذه المقاومة). لكن لماذا لم يكن هناك مقاومتان مثلاً؟ واحدة لبنانية وأخرى سورية؟ بمعنى آخر هل كان يمكن بروز مقاومة حقيقية إلا في الظروف اللبنانية الخاصة والمعروفة من وجود مجتمع تعددي ومنفتح ويميل إلى ممارسة حريته في التعبير، وديموقراطي حقيقي – ولو أضفنا إليها نسبياً – فليس هناك وصفة جاهزة وجامدة لـــ "الديموقراطية" بل هي ممارسة تختلف مواصفاتها باختلاف الظروف المحيطة. افلا يعني ذلك ان أي جنوح نحو تغيير الوضعية الجوهرية التي انبثقت عنها المقاومة – وهي بدأت وطنية عامة ونعرف دور عهد الوصاية في حصرها في جهة واحدة فقط نرى الآن إحدى نتائجها التي لم تكن واضحة في حينه!– الا نكون نجري تغييرا في الشروط نفسها التي انتجت هذه المقاومة!! أوليس في هذا خُلف أيضاً وتناقض جوهري؟

ألا يعني الإخلال بقواعد هذا التوازن الدقيق والهش ومحاولة تغيير مقومات الديموقراطية اللبنانية خاصة المساهمة في القضاء على أحد أسباب انبثاق ووجود المقاومة نفسها؟؟

في معنى النصر ومعنى الصمود: عندما ننظر كيف تعاملت شعوبنا مع ما حصل في حرب الـــ 33 يوماً ندرك كم أن معاييرنا متساهلة وتعبر عن نظرتنا إلى أنفسنا وعن القيمة التي نعطيها للفرد العربـــي أو عن هواننا بمعنى آخر!! وتعبر عن مدى افتقادنا إلى الحس النقدي وإلى القدرة على اتخاذ مسافة من الذات ومن الأحداث لكي ننظر إلى الأمور بشكل محايد مما يزيد من قدرتنا على التقويم الافضل.

عدّ الصمود – البطولي والأسطوري لا شك في ذلك – انتصاراً كبيراً.. وليسمح لنا هنا أن نطرح بعض التساؤلات: هل يحتاج المنتصر إلى كل هذه الجلبة وإلى صرف كل هذه الطاقة لكي يثبت انتصاره وقبل أن ندفن الموتى ونقيم حدادنا عليهم؟ وإذا كان هذا انتصاراً فما هي شروط الهزيمة أو على الأقل عدم المبالغة في

"الانتصار"؟؟ ومتى تعلن الدول هزيمتها؟ عندما يبقى لديها سلاح ورجال قادرون على القتال أم عندما تتعرض بلدالها للتهديم وبشرها للتقتيل؟ لماذا أعلنت اليابان هزيمتها بعد تعرضها للقنبلة الذرية؟؟ هل لافتقادها لأي مقاتل أو أي سلاح؟

أسأل نفسي لماذا نقوم بذلك؟ أليس لأننا ننظر إلى أنفسنا "كغير قادرين" في الأصل؟ فنتساهل في المعايير المستخدمة للتقويم عند أقل انتصار، متساهلين مع الذات فقط لاثبات كفاءتنا؟ ونكون هكذا نقبل على أنفسنا بأن نتعامل بحسب معايير العدو نفسه في نظرته إلينا وفي نظرته إلى نفسه؟ قتيل واحد إسرائيلي يعادل مائة واحد عربي؟ ألف؟ لا أهمية للأرقام هنا الها مجرد كمية!! سجين واحد إسرائيلي نريد ان نستبدل به مئات؟ لماذا نقبل بهذه المعايير التي تفترض وتعني دونيتنا وهواننا وقيمتنا الأقل؟؟ وليس غير؟

وهذا لا يعني أن إسرائيل انتصرت، الها مهزومة بالطبع، لكن لنقبل فكرة انه في الحروب يكون الجميع مهزومين ولنكف عن الصراخ بأننا انتصرنا. صمدنا نعم وهذا جدير بأن يؤخذ بعين الاعتبار، ولنسم الأشياء بأسمائها.

ثمن للانتصار

نقرأ ونسمع عن أن انتصار المقاومة هذا يستدعي إعادة توزيع في موقعها في السلطة، من المؤكد أن السلطة لم تكن موزعة بشكل عادل، ولست ضد أي إعادة توزيع للسلطة بشكل ديموقراطي وحقيقي وعبر المؤسسات الدستورية التي تعبّر عن مواقف المواطنين الحقيقية، لكني أتساءل، أنا التي طالما نظرت إلى المقاومة كمثال ونموذج للتضحية وللسلوك الاطيكي ولعدم إستغلال سلاحها في الداخل وخاصة لمآرب شخصية، اسأل نفسي: هل حقاً تطلب المقاومة الآن ثمنا لهذا الانتصار عبر تمثيل أفضل في الحكومة؟ وهل كانت الحرب من أجل ذلك في أحد جوانبها؟ كل هذا الدمار من أجل تحسين مواقع؟؟ لقد حصل أخيراً اعتراف بآلام البشر(حيث كان يمكن الاستغناء عنها كما يبدو)[1]، البشر الذين كانوا في آخر سلم الأولويات في هذه الحرب. لذا استغرب الآن أن هناك من يطالب بثمن لما حصل أو بالدعم

(1) إشارة إلى قول السيد حسن نصرالله أنه لو عرف أن رد إسرائيل سوف يكون بهذا الحجم لما قام بتلك العملية من خطف للجنديين.

لمن ساعد عليه، وكيف ذلك؟ بمطلب تغيير الحكومة مكافأة للمساعدة التي قدمها العماد عون لـــ "حزب الله". ولست هنا في معرض تقويم مدى صوابية المطالبة بهذا التغيير في لحظات مصيرية مثل هذه ومدى الحكمة فيها، لكن ما أود الإشارة إليه يتعلق باستخدام ذريعة الديموقراطية لتبرير الطلب هذا!! أين الديموقراطية في أن نفرض مكافأة لمن ساندنا؟ وهنا يتم السؤال باسم من وباسم أي مرجعية يطلب ذلك؟ وهل انه يفترض انـــزال عقوبة بمن لم يفعل ما فعله الجنرال؟ وهل تمخضت الحرب ودمارها عن مطلب لاكتساب مقعد وزاري أو أكثر؟ ويكون هكذا ثمن هدم المنـــزل حفنة من الدولارات وثمن الدعم المرضى عنه مقعد وزاري، فماذا عن ثمن الاستشهاد والشهداء بعد أن نكون تفرغنا لمعرفة أعدادهم بدقة؟

هل هذا سلوك ديموقراطي حقاً؟ أم أنه أقرب إلى السلوك الامبراطوري أو على الأقل الإقطاعي؟ هل نغيّر حكومة باسم المكافأة أوالعقاب؟ وما دور مؤسساتنا الاشتراعية في تقرير ذلك؟ ما هو دور هذه القوى في تهدئة الشارع وفي تهدئة مخاوف القوى المتعددة حفظاً لحد أدنى من الوحدة في هذه اللحظات الحرجة؟

* * *

لا شك أننا في مرحلة مصيرية وأن أي خطأ في التقدير يجرنا إلى ما لن يكون في مصلحتنا كمواطنين في وطن نريده حراً حقاً وسيداً حقاً، ديموقراطياً أولاً وبالتالي غير طائفي... لذا يستدعي ذلك ممارسة أقصى الشفافية من الحكومة بدعم من رئيسها وبدعم من مجلس النواب وبدور خاص من رئيس المجلس، لتنفيذ بعض الخطوات التي قد تساهم في أحداث تغيير من أجل طمأنة اللبنانيين إلى ما ينتظرهم من الطبقة السياسية وهل سوف تكون على قدر المهام الجسام الملقاة على عاتقها؟ وهل سوف تلبـــي بعض طموحات من لم يهاجر من جيلها الشاب!!

وكنوع من أمثلة لما هو مطلوب منها القيام به بجرأة ومن دون استئذان: فلماذ لا يتم الآن اعتماد مشروع القانون الانتخابـــي - الذي لا يرضي أحداً ما يعني أنه الأفضل ربما؟

لماذا لا تتجرأ الحكومة على إصدار قانون مدني اختياري للأحوال الشخصية؟ فلماذا لا يوعز للوزير المختص إلى إلغاء الإشارة إلى طائفة ومذهب اللبناني على قيد

النفوس؟ ألا نريد وطناً معافى من الطائفية؟ فلنثبت ذلك الآن على الأقل.. نحن الآن بحاجة إلى مثل هذه الخيارات الديموقراطية حقاً والمصيرية وهذا لكي نقنع المواطن اللبناني بأن هذه الحرب ساعدت على الأقل في تطوير قوانيننا وانظمتنا وساهمت في جعلنا مواطنين نرجو أن نكون على قدم المساواة امام دولة تنظر إلينا كمتساوين امام القانون وليس داخل طوائفنا وجماعاتنا وسواهم..

تماما مثلما نرجو أن لا تذهب تضحيات اللبنانيين سدى فتكون حسنة هذه الحرب على الأقل انها قد تكون وضعت أولى دعائم سلم حقيقي عبر البدء بمباحثات سلام حقيقية تعطي للفلسطينيين دولتهم الديموقراطية.. وإلا فلا عزاء لأحد...

* * *

"حزب الله" و"الشارع الجديد"(1)

صبيحة اليوم الثاني للجريمة، بيروت مدينة يتيمة. الساعة بعد الثامنة والنصف صباحاً ولا نسمع أي صوت أو أية ضجة. كأن بيروت تحولت مدينة اشباح. الناس في حيرة، تجمعات صغيرة متفرقة، لكن الإقفال تام. لم يفتح أي محل بيع صحف في الصنائع. الأشرفية فارغة أيضاً وفيها تجمعات صغيرة من بعض الأشخاص. الإقفال طوعي وبديهي وكامل.

الوجوم يخيم على لبنان. إنها من المرات القليلة النادرة التي يشعر فيها الناس بالتضامن في ما بينهم إلى هذا الحد وبالخوف على مصير البلد، مع شعور بالقيد وبأن من الممنوع عليهم بناء بلدهم أو إعادة بنائه. بلد مخطوف، هذا لسان حال الناس. عرفت مقدار فداحة الأمر حتى على الأجيال الجديدة التي غالباً ما انتقدنا عدم اهتمامها وهامشيتها عبر الحالة التي انتابت ابني الذي عاد إلى المنـــزل شبه مريض، محبطاً ومثقلاً ولم يستطع تناول طعام، أي طعام طوال النهار الا القليل القليل مساء. شعر هذا الجيل بأن المستقبل نفسه مهدد. ولأول مرة صار يفكر بالهجرة من كان يرفضها، فهل سوف يكون بمقدورنا منعهم من التفكير في الهجرة عبر رفض هذا الواقع المسف وتغييره؟ أليس هذا من مسؤولية الجميع الآن وواجبهم؟

في اليوم الثالث

نـــزلنا للمشاركة في العزاء، جمع من الصديقات والباحثات لأننا وجدنا ان علينا أن نقول لا وأن نقول كفى! شعرنا بوجوب المشاركة ولو من أجل زيادة العدد فقط ولنقول رفضنا لما يحصل لبلدنا وإدانتنا لهذه الجريمة التي أرادت اغتيال الحرية والديموقراطية، كي لا ننقل العدوى إلى البلدان العربية بهذا الفيروس المهلك للقوى الاستبدادية المتحكمة بالعباد، فكانت جريمتهم ضد الإنسانية.

---

(1) النهار، 2005/02/23.

الشوارع التي سرت فيها فارغة تماماً كأننا في أحد أيام الحرب التي كانت تفرض على الناس الاختباء في بيوتهم مجبرين، لكن الفارق هنا أنهم اختاروا ذلك بإرادتهم. فقط الشرايين المؤدية إلى وسط بيروت، كان السير فيها متواصلاً لا انقطاع فيه. سيل بشري متواصل غير قابل للنضوب. الناس يسيرون ساهمين ورؤوسهم في الأرض في منظر شبيه بالافلام العلمية الخيالية التي تجعل الناس مشدودين بخيوط غير مرئية تجذبهم كما المغناطيس، خاضعين لسلطة ما يطيعونها دون تفكير.

سرنا مشدودين إلى وسط بيروت الذي كنا ندعي اننا لا نحبه لأنه "مصطنع" و"متصنع". كنا ننتقد الحريري بالطبع، مثل معظم اللبنانيين ربما لأننا عرفنا أنه رجل دولة مدني فيحلو لك انتقاده وتشعر أن لك الحق في ذلك تماماً لأنه يتقبل الأمر برحابة نسبية وفي الوقت نفسه لا تشعر بنفسك مهدداً بالعقاب أو الانتقام كما هو الأمر مع ممثلي الميليشيات وسواهم من المستبدين أو من غير المدنيين... لقد أعاد بعض الاحترام للسياسة بهذا المعنى.

ذهبنا إذن إلى وسط بيروت الذي كان موضع انتقادنا المعلن لكننا في السر كنا نحب هذا "الداون تاون" الذي يضاهي بجماله وأناقته أفضل مراكز عواصم العالم وأكثرها شهرة؛ وفي الحقيقة كنا نحبه ونحب الالتقاء فيه وأخذ أصدقائنا من العالم العربي وغير العربي إليه لأننا كنا فخورين به ضمناً ولو أننا نكابر ولا نريد الاعتراف بذلك؛ كنا كالأولاد المدللين الذين ينتقدون المسؤول عنهم وهم يعرفون ان ذلك لن يؤثر على حبه لهم وقيامه بما يعدّه من واجبه وفي مصلحتهم.

عندما أعود الآن لفهم دوافع انتقادنا لهذا النموذج الفريد في عالمنا العربي أجد أنه كان يعبر عن اندهاشنا وعدم اعتيادنا على ظاهرة مماثلة مستجدة، رجل الأعمال الناجح عالمياً أو "السلف ماد مان" على الطريقة الأميركية؛ لكنه عربي! يحاول خدمة بلاده. انه نموذج جديد على مجتمعنا العربي برمته. لقد استغل الحريري قوته ومكانته الدولية لكي يجعل من اسم هذا البلد الصغير على كل لسان وعلى الصفحات الأولى لكبريات الصحف العالمية ومحور المنتديات الدولية. وربما هذا ما استكثره القتلة علينا.

ونحن لم نعتد على هذا النموذج فلقد حُكمنا طويلاً - ولا نــزال - من قبل مسؤولين مستبدين لا يمكن الوثوق بأنهم قد يفعلون شيئاً فيه مصلحة لبلادهم. لذا لم نفهم ظاهرة الحريري وربما سوف يحمل لنا التاريخ القريب التفسير لخياراته في بناء البلد، أو الحجر كما كنا نردد، بالرغم من الكلفة العالية التي اضطر ربما أن يدفعها كرشوة وخوة للنظامين الشقيقين ولبطانتهما الحاكمة. وكان خياره على ما يبدو صائباً. وهذا متروك لحكم التاريخ على كل حال.

إنه "السلف ماد مان" الذي سيصبح التجسيد الحي والفاعل لأسطورتنا المؤسسة البسيطة التي كنا نتداولها ببعض الهزء، كما يحصل مع الأساطير عادة قبل أن تتجسد. لقد أعاد إحياء إحدى أساطيرنا الفاعلة، سواء أقبلنا بذلك أم لا، أهزئنا أم لا، أسطورة طائر الفينيق الذي ينهض من رماده في كل مرة.

الوجوه التي اجتمعت في تشييعه حزينة وجامدة، إنه أكثر من الحزن، شرود ووجوم وضياع وذلك كله مختلط بالغضب والرفض الصامتين. يدهشك الحزن على وجوه شابة، حزن وهمّ مبكرين، الحزن نفسه عند شيوخ وأطفال ونساء... حشود لا تحصى والازدحام يجمع كل اصناف اللبنانيين وفئاتهم، من كبار وصغار، عمال ومثقفين، فقراء واغنياء، مدينيين وقرويين، محجبات وسافرات. موزاييك هائل يمثل جميع فئات اللبنانيين. لقد استطاع الحريري أن يجمع اللبنانيين حول جثمانه أكثر مما استطاع جمعهم في حياته.

الوضع في منتهى الخطورة وليس فقط في لبنان، الحريري لم يكن مجرد شخص لبناني ناجح، انه عملاق لبناني وعربــي وعالمي كرس نفسه وعلاقاته الدولية لخدمة القضايا العربية جميعها. لقد خسرته فلسطين وكل العرب وخاصة المقاومة اللبنانية موضوعياً.

ان قيادة المقاومة تبدي الآن حكمة لا شك فيها بالدعوة إلى الحوار وعدم عزل أي فئة لبنانية للأخرى. وهذا مطلب موضوعي ومحق، وبعدم الاحتكام إلى الشارع لأن في لبنان "شوارع" متعددة وكل طرف قادر على تحريك فئاته الخاصة، وهذا صحيح عموماً.

لكن السؤال هو ألم يلاحظ قادة المقاومة الاختلاف الشديد في كيفية تشكل "الشارع" الجديد الذي برز إثر اغتيال الشهيد الحريري؟ من قوى شديدة التنوع

وذات تمثيلية عالية لمجمل الفئات اللبنانية التي لم تكن ممن يحسبون على "الشوارع" من قبل؟

السؤال الآخر هو هل يمكن مقارنة الجمهور المدني المختلط والمتنوع والسلمي الذي نـــزل وتشكل بطريقة غير مسبوقة في تاريخنا الراهن وبشكل عفوي وديموقراطي ونابذ للعنف بكل وعي، هل يمكن مقارنته إذن مع الجمهور الذي تحرك في يوم عاشوراء وفقاً لأوامر قياداته الحزبية وبنَفَس احادي وفيه قدر من المنافسة؟

ألم تشكل تظاهرة 10 محرم استفتاء بديلاً من استفتاء الجماهير العفوية التي نـــزلت من أجل تشييع الحريري ورفض الوجود السوري؟ تعداد المذيع "لمئات الآلاف" من الحسينيين، فالآلاف المجردة وحدها لم تعد تكفي، إذ يجب التأكيد على أن المشاركين كانوا "مئات الآلاف" مثل الحشد الآخر ألا يعد هذا وحده تحدياً ومواجهة ولو ضمنية للجمهور الآخر؟ ألم يكن من الأفضل طلب وجود رمزي والاكتفاء به؟ وإذا لا، ألم يكن مناسباً الإشارة على الأقل إلى الشهيد الآخر الذي لم يجف دمه بعد؟ كنت أتمنى وأنتظر بعض الشعارات التي تشير إلى الجريمة التي حصلت من قبل هذا الجمهور. فهل ثمة تعارض بين الدفاع عن المقاومة وإدانة هذا الجمهور نفسه للجريمة النكراء عبر شعارات واضحة تحمل بعض العزاء للطرف اللبناني الآخر؟ ألم يعن ذلك تكريساً/ولو سهواً، لوجود طرفين متقابلين؟

وهل يمكن للمقاومة ما دامت لبنانية أن لا تبحث عن حماية نفسها أيضاً وبشكل أساسي من قبل الحشود العفوية التي تشكلت في رفض عملية الاغتيال؟ وذلك عبر التضامن مع تلك الجماهير؟ ولو فقط لمسايرتها ولتأكيد الوحدة اللبنانية تجاه المخاطر الخارجية؟ وهل يمكن لمقاومة "لبنانية" ان لا تأخذ آراء مختلف الفئات اللبنانية في الاعتبار؟ أن لا تريد مشاركتهم؟

ثم لماذا يقبل قادة المقاومة الدفاع، في المطلق، عن الوجود السوري الذي لم يعد محط إجماع اللبنانيين؟ لماذا لا يتخذون المسافة الوسط كما هو مفترض؟ وإذ يرفض هذا الجمهور الواسع الممثل لمعظم القوى اللبنانية الوجود السوري ألا يكون من يدافع عن هذا الوجود هو أيضاً يساهم ولو بطريقة غير مباشرة في الشرخ العميق الذي بدأ ينحفر بين اللبنانيين؟ ألا يرى قادة المقاومة أن عليهم إبداء بعض

التنازل أو حسن النية تجاه مواطنيهم الذين لا يشاطروهم الرأي والطلب على الأقل (من موقعهم الحليف) من المرجعية السورية الانسحاب إلى البقاع على الأقل، أو الوعد بذلك في أقرب فرصة؟ هل يمكن اجراء انتخابات نـــزيهة في ظل التحدي السوري للإرادة اللبنانية المعبّر عنها بوضوح؟

إن قيام قيادة المقاومة بخطوة أخرى في اتجاه المعارضة (ما يصار يعرف بقوى 14 آذار فيما بعد) يبرهن ان المقاومة تتصرف مثل أم الصبـــي وتشعر بمسؤوليتها تجاه الشعبين السوري واللبناني وتجاه مختلف فئات اللبنانيين وليس فقط تجاه جمهورها. وذلك قبل القضاء على آخر مشاعر الاخوة وقبل أن يتبخر آخر شعور بالامتنان تجاه المساعدة السورية سابقاً! وللحفاظ على نوع من الروابط الأخوية والصداقة بين الشعبين السوري واللبناني؟

أليس على قادة المقاومة "حسن الاستماع" إلى اللبنانيين مع قراءة كيف أهم فقدوا شعورهم بالصبر وأن الغضب الصامت من الوضع المهين الذي وصلوا إليه أخطر من الغضب العالي الصوت؟

إنها فرصة لكي تبرهن المقاومة أنها أم الصبي، فلا تكتفي بمطلبـــي الحوار وعدم عزل أي فئة والانتخابات، وهي مطالب محقة ومسؤولة بالطبع، دون ابداء بعض التنازل إكراماً للدم الذي أهدر والذي تعترف هذه القيادة نفسها أنها فقدت فيه حليفاً ومدافعاً؟

وهنا كيف لا يطرح قادة المقاومة على أنفسهم السؤال حول شرعية بحثهم عن "شرعية" دولية دعمت المقاومة - بفضل اتصالات الحريري وعلاقاته - وقبولهم بهذه الشرعية كغطاء دولي من المجتمع الدولي نفسه في مقاومتهم لإسرائيل واستغنائهم الآن ورفضهم لهذه الشرعية الدولية نفسها؟ وهل يمكن أن يبحث قادة المقاومة عن مناصرة حليفهم السوري بشكل يتعارض مع المطلب الجماهيري المعارض لهذا الوجود؟ حتى ولو كانت هذه الجماهير غير محقة وحتى ولو عبّرت عن نصف المجتمع اللبناني فقط؟؟ ثم الا تكفي السوريين ضمانة المقاومة والمسؤولين عنها كطرف لبناني يعد جزءاً أساسياً من التركيبة اللبنانية لكي يضمنوا المحافظة على المصالح السورية في لبنان من دون الوجود المخابراتي والعسكري المباشر لهم؟

أليست هي فرصة للاندماج اللبناني اللبناني بدل حفر خنادق تهميشية جديدة؟؟

فرصة لمد اليد والجسور بين المقاومة اللبنانية وشعبها بكل فئاته؟

المشكلة أن الأنظمة الاستبدادية تجرنا معها إلى الهاوية، سمعت أحدهم يقول أن أول ما يفعله العالق في حفرة هو الكف عن الحفر؟ لكنه لفعل ذلك عليه أن يتمتع ببعض الحس السليم وهو أمر بعيد عن مثل هذه الأنظمة، وعلى حد قول (حنة ارندت) أن الديكتاتور يظل يعتقد حتى الربع الساعة الأخير أن كل شيء على ما يرام!!

* * *

حكمة "حزب الله"؟[1]

إن متابعة ما يجري على الساحة اللبنانية من "صدام" تحاوري بين "حزب الله" وسائر القوى اللبنانية بحيث نأمل أن لا يتحول إلى صدامات واقعية فيتحول عبره محرّر الوطن إلى سجّانه، تثير استغراب المراقب المحايد. واعتبر نفسي كذلك بالرغم من كوني انتمي إلى الطائفة بحكم مولدي، لكني من فئة كبيرة من اللبنانيين والمتزايدة اعدادهم باطراد، يرفضون تحديد هويتهم إنطلاقاً من الإنتماءات الطائفية أو الفئوية أو المناطقية (...).

في الحقيقة ان المواقف التي صار يتخذها "حزب الله" تبعده عن الصورة – المثال التي عرفت له والتي لا تزال في ذهن العديد من الشباب الذين يبررون تبنيهم وجهات نظره بالحكمة التي طالما تمتع بها وبمعاملته العادلة حتى لمن تعامل مع العدو في الجنوب طالما أنه لم يحمل سلاحه في وجه الوطنيين اللبنانيين. يجد القريبون إلى الحزب مبرر دفاعهم عن سياسته – معظم الأحيان– في تشديدهم على أخلاقياته، وكما يقول أحد محازبيه الشباب، بالرغم من أن عوامل عديدة حكمت انتماءه إلى الحزب (منها انتماؤه الطائفي وسكنه في الضاحية) "إن المفاضلة اليومية التي يقوم بها كلّ واحد منّا أثبتت لي أنّ حزب الله هو أشرف حزب في لبنان".

لطالما لفت "حزب الله" الانتباه إلى الحكمة التي تعامل بها مع المستجدات والتحديات، وإلى الصدق واحترام القيم الإنسانية والعالمية ولو انه يستمدها من التراث "الحسيني". والسؤال: هل لا يزال الحزب على حكمته هذه وقيمه أم أنه ينـــزع نحو الجدالات السياسية المماحكة والمتسمة بالحدة وعدم الموضوعية، وعلى أقل تقدير عدم الالتزام بمواقف مبدئية طالما كان يجسدها ويعرف كيف لا يحيد عنها؟

فما الذي تغيّر؟ وما الذي يدعو تنظيما عقائدياً إسلامياً، ولن أقول شيعياً لأنه لم تتم الإشارة إليه سابقاً تحت هذه الصفة، وخاصة عندما كان يقاوم لتحرير

---

(1) النهار، 2006/01/06.

الجنوب ويحرص على لبنانيته وإسلاميته وعلى أنه يمثل جميع اللبنانيين المقاومين- وهو بالمناسبة لولا دعمهم لما كان توصل إلى هذا التحرير- وكان النموذج الإسلامي المقاوم والملتزم بالأخلاقيات والقيم الإسلامية من دون تعصب وتمتع بصدقية كلمته امام الجماهير العربية السنية في معظمها والتي تبنته وتبنت خطابه لأنها لم تلمس لديه أي تعصب شيعي أو فئوي لا مبرر لهما لمن يريد مقاومة الاستعمار والاستيطان الصهيوني لفلسطين. فما الذي يدعوه أن يصير فجأة شيعياً ومتعصبا لهذه الشيعية ومحاولا أن يكون الناطق الاوحد باسم هؤلاء الشيعة الذين لطالما كانوا متعددي الإنتماءات وتغذت جميع الأحزاب منهم؟!

ثم كيف انتقل التحالف السياسي الاستراتيجي لتحرير الأرض إلى دفاع عن نظام مستبد والالتصاق به بالرغم من كل ممارساته القمعية والتعسفية؟ وإذا لم تثبت ادانته في ما حصل في لبنان حتى الآن فهو لم تثبت براءته على كل حال؟ فهل يمكن لمن يدعو إلى تحرير شعب من الإحتلال أن يقبل بأن يدافع عن انظمة أو فئات مستبدة لشعوبها ومن دون أن يخجل من إظهار ذلك والإعلان عنه وممارسته من على شاشات التلفزيون؟ وليس علينا الآن سوى متابعة نموذج النقاش في البرلمان السوري الذي يجمع النواب في خطاب وحيد لا يحيدون عنه مثل كلمة سر! ويجعل من عبد الحليم خدام فجأة شيطانا فيتذكر ممثلو الشعب السوري الآن فقط أنه مشارك في الفساد والسرقة ويريدون محاكمته! فماذا يعني ذلك؟ اسرق وكن فاسدا ودافع عن النظام تكنْ حراً ومقبولاً وعندما تنتقده نفضح فسادك؟ هذا نوع من الابتزاز المعلن إذن. ماذا عن الفاسدين الآخرين؟ ولَمَ فضح فساد خدام فقط ولَمَ الآن؟

كيف يقبل الحزب لنفسه الدخول في الدفاع عن مثل هذه المواقف والممارسات؟

إن أكثر ما تميز به "حزب الله" هو صدقيته والسلوك الأخلاقي الذي عرف به وجعل منه مثالا أعلى ومرجعية لجيل من الشباب العربي. وشكلت ممارساته لاول مرة فخر هذا الجيل الجديد من الشباب الذين من مصادر اعجابهم بالحزب انه فرض احترامه على العدو الإسرائيلي نفسه وفرض كلمته حتى صار معروفاً انه عندما يصرح بشيء فهذا يعني أنه صحيح. وكانت هذه أول مرة تحصل فيها مثل

هذه الممارسة التي تعد على النقيض مما عرفه المواطن العربـــي من سلوك الأنظمة وفسادها وعدم مراعاتها لعقول مواطنيها (ولنتذكر أحمد سعيد والصحاف) مما حتم على المواطن العربـــي الابتعاد عن السياسة التي ارتبطت في ذهنه بالكذب والنفاق!!!

لقد اعتاد المواطن العربـــي على كذب الأنظمة ومبالغات ابواقها الدعائية التي تستخدم اساليب بروباغندا عفى عليها الزمن وكانت تصلح في وقت كان يتم فيه احتكار السلطة وخاصة سلطة الاعلام كما هي الحال مع غوبلز أيام النازية أو كما هي الحال مع النظام السوري، ومن هنا نقمته على الصحافة اللبنانية الحرة. ولكن الآن وبعد أن صار الاعلام متعدد الاتجاه والمصدر وبعد أن صار بإمكان المواطن حرية اختيار مرجعيته الاعلامية من ناحية والقدرة على المقارنة والموازنة بين مختلف منابر الاعلام فقدت بروباغندا الأنظمة الاستبدادية فاعليتها.

فلماذا الآن، وبعد أن أصبحت ممارسات الحزب موضع ثقة عربية وعالمية، نجده يتراجع إلى ممارسات من المفروض أنه لا يقبلها لنفسه لما عرف عنه من أخلاقيات عالية واحترام للقيم الإنسانية؟ أفليس من بينها احترام حقوق الإنسان ومحاربة الفساد والعدل وعدم اللجوء إلى قمع المواطنين أو سجنهم أو تعذيبهم أو استخدام السلطة الجائرة من أجل الانتقام من كل من يعارضهم في الرأي؟

أليست الأخلاق هي أهم ما يمكن أن يتمتع به مقاوم إسلامي؟ كيف بإمكانه إذن الانحياز إلى ممارسات نظام مستبد ودعمه بكل الوسائل المتاحة وعلى حساب الوحدة الوطنية الداخلية؟ كيف يبرر دعمه للنظام الأمني اللبناني - السوري ولممثليه الأكثر مدعاة للتساؤل؟ هل هذه هي المثل والقيم التي استشهد من أجلها الإمام الحسين؟ من أجل الدفاع عن المفسدين والظالمين والطغاة؟ ألن يكتشف محازبو الحزب نفسه هذا التناقض الجلي بين المثال المعلن والممارسة؟ أين سوف تصبح الشعارات الحسينية التي يتم الافتخار بها في مقاومة الظلم والطغيان؟ هل الظلم له جنسية يهودية حصراً؟

كيف سوف يُقنع المحايدين من أبناء الطائفة وأبناء لبنان عموما تجاه هذه الخيارات المنحازة إلى الظلم والاستبداد؟ من جهة أخرى هل يعبّر هذا عن احترام لمشاعر الجمهور اللبناني الذي يخالفه الرأي؟ أم أن مخالفة الرأي ممنوعة أصلاً؟ فيتحول إلى حزب طائفي ضيق الأفق لا يهمه سوى الرأي العام الضيق الذي يتبعه

إنطلاقاً من فتاوى صارت تشكل ذريعة لتغطية سلوك غير مقنع لمن لا يزال يملك حرية فكرية تجعل منه ناقداً ومتسائلاً؟

وإذا كانت وحدة لبنان واستقلاله الهدف الذي يتماشى مع تحرير الأرض من الإحتلال الإسرائيلي، يندهش شخص مثلي، خارج دائرة الطائفية الضيقة الافق والممارسة، لعدم تقدير جهود الرئيس فؤاد السنيورة الذي يعتبر اقرب مثال إلى الممارسة السياسية البعيدة عن الحسابات والمصالح الضيقة في دائرة السلطة معطياً الأولوية للمصلحة الوطنية العليا.

أورد هذا الكلام حرصاً على الصورة المثالية التي لن تجد مبرراً لها إذا ما استمرت الممارسات التي جنح إليها الحزب في الآونة الأخيرة. ان ما يسيّر الشعوب وينهضها ويساهم في جعلها حرة هي الأفكار والمثل العليا أيضاً وهذا ما جعل من شخص مثل تشي غيفارا يعيش في مخيلة ملايين البشر الذين جعلوا منه قديسا بسبب انحيازه إلى العدل ووقوفه ضد الظلم. فأرجو أن نظل نفتخر بسلوك الحزب الأخلاقي والقيمي وأن يجعل له الأولوية على الحسابات الأخرى التي يبدو أنها لا تعمل لا في مصلحة الوطن ولا في مصلحة الحزب على المدى البعيد. فهو في النهاية حزب لبناني ولن يجد من يقف إلى جانبه ويدافع عنه سوى اللبنانيين مجتمعين، فالرجاء أن يحافظ عليهم ولا يساهم في تفرقتهم لأن هذا يشكل تناقضاً أساسياً مع التصور الذي له في مخيلة الجماهير والمعجبين به.

* * *

حول مقولة الحرمان "الشيعي" وصلته بالإحتلال الإسرائيلي لفلسطين[1]

برز الشيعة اللبنانيون كقوة بعد انحسار الوصاية السورية المباشرة، بحيث بدا أن عليهم أن يجدوا الترجمة السياسية لهذا التغير الكبير الحاصل في الطائفة: ديموغرافياً واقتصادياً وسياسياً، إضافة إلى الامتداد الإقليمي. لم يعد الدور المعطى لهم قادرا على استيعاب قوتهم الجديدة. وهذا ما تعبّر عنه قيادتهم. ان ما يطالبون به ليس إلا ترجمة لهذه القوة المستجدة التي يجدون أن على الجماعات الأخرى أن تعترف بها. وعدم انتزاع هذا الاعتراف من الآخرين يجعلهم يلجأون إلى المزيد من عروض القوة وتصعيد المطالب، الأمر الذي يعطي بدوره ارتدادا عكسياً، بمزيد من المخاوف لدى الجماعات الأخرى. الخوف المتبادل سيّد هذه المرحلة.

لذا نلاحظ أن غالبية الشيعة أو الملتحقين منهم بالشيعية السياسية – إذ أن كلامنا ينحصر بهم هنا – يعانون من أزمة، نوع من «نوبة حادة» يشعرون معها بالقوة والضعف، الربح والخسارة. ربحوا الحرب وخسروا اطمئنانهم وسكينتهم؛ انهم أقوياء يمتلك حزبهم آلاف الصواريخ يهدد بواسطتها بالويل والثبور، ومع ذلك يشعرون بالتكبيل والقصور. فهل من الممكن لسلاح مقاوم أن يوجّه نحو شعبه أو نحو جزءٍ معارضٍ منه ولو ناقضه في التوجه السياسي! لذا تحول الاعتصام عبئاً وغلطة؛ المكابرة وحدها تمنع العودة عنها. وكل التهديد والوعيد على أنواعهما لم تتقدما بهم قيد أنملة.

هذه الاستفاقة المفاجئة واكتشافهم انهم قوة لا يستهان بها تجعلهم يحاولون فرض لبنان الذي يريدون، أو الذي يعتقدون أنه الأنسب لسياساتهم ضاربين بعرض الحائط بكل تاريخهم التوافقي وكأنهم يريدون الثأر من كل إرث الحرمان الذي ينسبون أنفسهم إليه من دون تعلّم أي درس من الحرب الأهلية.

---

(1) الحياة، 2008/01/08.

فنسمع منذ أن اندلعت حرب تموز (يوليو) 2006 نغمة تتكرر من بعض الأوساط الشيعية، وخاصة عندما يحتدم النقاش حول خيارات حزب الله - الما فوق لبنانية وتسليم جماهيره الأعمى للسياسة التي يتبعها. يقول لك وأحدهم: لم نعد نريد ان نكون مواطنين درجة ثانية؛ ويقول آخر لن نقبل بأن نعود عمالا على المرفأ و... و...، وكأن التحسن الذي طرأ كان بفضل أداء زعمائهم المحليين الذين استبدلوا أنفسهم بـــ «الاقطاع» ولم يكن جزءاً - فقط - من الأموال التي أعطيت للجنوب بسبب الإحتلالات والحروب الإسرائيلية، والتي أهدر ما تبقى منها، أو من أموال المهاجرين من أبنائه...

وفي علاقتهم المتجاذبة مع سورية يبدو الأمر وكأنهم يتوهمون ان هناك قوة سحرية اسمها نظام الأسد شكلت لهم الرافعة التي انتشلتهم من وضعهم وأن هذا السحر سوف يزول بزوالها مثل قصور علاء الدين. هذا الشعور بالاستقواء بالنظام المجاور يعود إلى شعور ضمني بالهشاشة والضعف والغبن؛ أو ما اصطلح على تسميته بالحرمان منذ أن تصدّى لمعالجته موسى الصدر. (وفي هذا قفز عن الإنماء العام الذي عرفه لبنان بين عامي 1960 و1967 حيث انتعشت كافة الأطراف بما فيها الجنوب بفعل السياسة الانمائية للعهد الشهابي، ومعظم المنتمين إلى طبقة المثقفين تعلموا بسبب هذا الإنماء الذي حصل من قبل الإدارة الشهابية الإصلاحية، الأمر الذي يتم القفز عنه الآن). ومع أن انتسابهم إلى الحسين كمحرك ثوري في التاريخ يتناقض تماماً مع دفاعهم، أو على الأقل سكوتهم، عن نظام قامع للحريات ومستبد. مع ذلك يدافعون عن نظام الأسد ولو على انقاض لبنان. ورغم الشعور المتناقض الذي يكنونه لأشقائهم السوريين، إلا أنهم يتخطون كل هذه العوائق وبعناد الثابت على موقف فقد كل مبرراته، ويشهرون مع ذلك حرمانهم العتيد الذي تكذبه أي عين ناقدة تجول قرى الجنوب قبل أن تهدمه الحرب الأخيرة بالطبع.

فلطالما أُشهر هذا الشعور بالحرمان وبالفقر وبالتهميش بوجه الآخرين. لكن عند التدقيق في الأمر نجد أن الحرمان هذا والذي اتخذ طابع القمع والفقر بسهولة هو في الحقيقة أكثر تعقيدا ولا يختص بالفقر في جوهره.

عندما توفي عمي في العام 1995 وهو كان مختاراً ووجيهاً، طالما اعتقدت ان نفوذه محلي فقط، أخبرني أخي مندهشاً عن أناس من فلسطين أتوا من أماكن بعيدة

لحضور مأتمه. أما صديقتي التي دمّر منــزل عائلتها الأثري في حرب تموز والذي يعود إلى مائتي عام في بنت جبيل، فاخبرتني عن العلاقات المتبادلة بين أسرتها وبين أسر فلسطينية وتبادل الزيارات والعلاقات المتعددة وعن التجارة والتداخل الذي كان قائما بين جنوب لبنان وشمال فلسطين. وعندما أشير إلى هذه المسألة تتراكم الشهادات المتنوعة والذكريات غير البعيدة عن مختلف أنواع العلاقات (وربما نحتاج إلى القيام بتسجيل كل ذلك على ألسنة من بقي من الأحياء من مجايلي تلك الفترة). لذا شكّل الانقطاع القسري المفاجئ الذي حصل مع قيام دولة إسرائيل نوعا من صدمة وتسبب بما يشبه بتر عضو من جسم واحد بما يعنيه ذلك من معاناة. وكان له آثار متعددة.

كانت علاقات الجنوبيين تاريخياً، قبل إحتلال إسرائيل، قائمة مع فلسطين أكثر مما هي مع بيروت، ولقد شكل الإحتلال ضربة قاصمة للجنوب فتقطعت الروابط والعلاقات السابقة وتدهور الوضع فيه بشكل عام. الأمر الذي يؤكد ان قدر الجنوبيين طالما ارتبط بقدر الفلسطينيين وأن التأثير الكارثي لاحتلال فلسطين طال جوارها أيضاً وخاصة لبنان وجنوبه.

حصلت بسبب ذلك أولى موجات النــزوح وتحول الجنوبيون الذين تعرضوا لضائقة اقتصادية فقدوا معها أعمالهم وتجارتهم مع فلسطين إلى عمال ومأجورين في بيروت. وهذا قانون طبيعي يطال المهاجرين من الريف إلى المدينة خاصة ان بيروت كانت في طريقها إلى الانتعاش والازدهار بعد إقفال مينائي حيفا وعكا.

شكّل عامل الإحتلال هذا سبب الهجرة الأولى في تاريخ معاناة الجنوبيين وليس فقط الفقر والتهميش اللذين طالما نظر إليهما كإفقار وتهميش متعمدين من الطبقة الحاكمة والتي تم الاعتياد على تسميتها بالمارونية السياسية. وهذا لا ينفي بأي حال السلوك الاستعلائي للمسيحيين ولسكان بيروت من السنة وكيفية تعاملهم مع القادمين من الأطراف وخاصة الشيعة منهم أي «المتاولة». ولا ينفي أيضاً الفقر أو التهميش أو اللاعدالة في ممارسات النظام، ولكن هذا النوع من اللامساواة كان يطال كافة الأطراف والمناطق الريفية وطوائفها وهو غير مختص بالجنوبيين فقط. فالفقر، وكما هو حاصل عادة في دول العالم الثالث، يطال الريف عامة بكافة مناطقه؛ لذا لم يختص الجنوب عن سائر المناطق الأخرى بالحرمان،

وبعضها لا يزال يعاني الحرمان الشديد حتى الآن مثل منطقة عكار. وهي منطقة ذات غالبية سكانية سنية وحرمانها صامت، بسبب أن الإعتداءات والإحتلالات الإسرائيلية وجهت الأنظار نحو الجنوب، فكان ذلك أحد أهم أسباب احتضان تلك المناطق الشمالية للحركات الأصولية ولاستقبالها مؤخرا حركة «فتح الإسلام».

أيضاً حصلت الهجرة الجنوبية الثانية بعد هزيمة حزيران (يونيو) 1967 وتصاعد المقاومة الفلسطينية. إن الإحساس بالتهميش أو الشعور بالتخلي يعود في الحقيقة إلى أواخر الستينات عندما انطلق العمل الفدائي من الجنوب بعدما ألزم اتفاق القاهرة الدولة اللبنانية بالتخلي عن سيادتها في الجنوب لصالح «فتح لاند». خاصة بعد أن أغلق الأردن بوجه المقاومة الفلسطينية بعد ما عرف بأيلول الأسود. ولقد شكلت ممارسات الفلسطينيين حينها مناسبة أخرى لمعاناة الجنوبيين ذوي الغالبية الشيعية، فشعروا بأنهم يقمعون ويهجرون في وطنهم نفسه دون إمكانية الرد ودون أي سند من الدولة. وهذا ما دعّم الشعور بالحرمان.

الإحساس الغالب الذي تجذر منذ ذلك الحين كان يطغى عليه نوع من الفصام: الإحساس بالتخلي السياسي والاقتصادي والسيادي أيضاً من قبل الدولة. فكان يُطلب من الدولة المنهارة والمغلوبة على أمرها أن تقوم بدورها كدولة سيدة وقوية!! وتنتقد عندما تعجز عن ذلك. لكن حصل في نفس الوقت انشطار آخر حول الموقف من المقاومة: فكان يشكو منها ومن ممارساتها من يطالب بدعمها ويناصرها! ولذا طولبت الدولة اللبنانية بأداء واجب التحرير والدعم إلى جانب المقاومة أو ربما بدلاً عنها.

ترافق ذلك مع الإعتداءات الإسرائيلية المستمرة والإحتلالات المتواصلة منذ 1979 إنتهاء بالاعتداء الشهير المعروف بعناقيد الغضب عام 1996 الذي شكّل مناسبة لمحطة نوعية في تاريخ المقاومة. يتم الآن التغاضي عنها ونكران دور الشهيد الحريري في إعطاء المقاومة شرعيتها وغطاءها الدوليين وتمكينها من التحرير في العام 2000.

كل ذلك ساهم في إرساء المقاومة البطولية التي قام بها الجنوبيون والشيعة خاصة من أجل محاربة عدو أصيل، حتى التحرير الذي شكّل سابقة ونموذجاً لكل عربي يشعر بالذل أو بالإحباط بسبب وجود دولة معتدية غاصبة على أرضه

المقدّسة. إن السبب الأساسي في مجمل معاناة الجنوبيين- كما الفلسطينيين- هو وجود دولة عنصرية معتدية ومحتلة اسمها إسرائيل بالطبع. إن توضيح أصل ونوع الحرمان ضروري للرد على الأزمة التي يعاني منها الشيعة وتظهر على شكل موجة التعصب المتفشية التي تشبه نوبة مرضيّة معدية تستعيد تاريخاً طويلاً تعرفه المنطقة من التعصب والنبذ المتبادل على مرّ العصور، والذي يعاود الازدهار في أوقات الأزمات.

* * *

ولاية الفقيه وإمكانية حرية الإعلام[1]

إن أول ما استفاق عليه سكان بيروت، غداة خطاب السيد نصرالله وانتشار المسلحين فيها وبعد أن بدأت المعارك المستعيدة ذاكرة الحرب الأهلية وسيرتها، كان الهجوم على صحيفة «المستقبل» منذ السادسة صباحاً، وإطلاق أنواع من الصواريخ والأسلحة أحرقت الطابق الرابع بأكمله، وأصابت الطابقين الثالث والخامس. لكن الوقت المبكر للهجوم قلل من عدد الضحايا.

ثم تمّ الهجوم أيضاً على تلفزيون «المستقبل»، وهوجمت إذاعة الشرق. أي هوجمت وسائل إعلام «تيار المستقبل» جميعها وتم تعطيلها. ما يعنيه ذلك من نظرة هذا الفريق إلى الإعلام كسلاح أساسي بما يشبه "سلاح الإشارة" المستجد إلى الاتصالات الهاتفية.

لن ندخل هنا في التفاصيل، لكن ما أود الإشارة إليه أن إقفال صحيفة «المستقبل» وتلفزيونها، في إطار غلبة إعلامية واضحة لحركة 8 آذار، يعني رفض الصوت الآخر، وقمعه، وعدم تقبّل أي اختلاف في الرأي والتعبير. إن الهجوم على وسائل الإعلام هذا شكّل ضربة كبيرة لحرية الإعلام وحرية الصحافة في بلد طالما كان مركزاً للصحافة الحرة والمتنوعة. هذا الهجوم المبكر على وسائل الإعلام يعدّ مؤشراً أكيداً على ما ينتظر لبنان في حال سيطرة «حزب الله» وحلفائه على لبنان، كما أنه يذكّرنا بحركات الانقلاب العسكرية التي كانت تحصل في القرن الماضي في العديد من دول العالم الثالث، حيث كان يكفي إحتلال الإذاعة وإذاعة البيان رقم واحد منها حتى يكون قد تم الاستيلاء على السلطة.

من الملاحظ أنه منذ إنتهاء حرب 2006 بدأت لهجة ممثلي «حزب الله» بالارتفاع واستخدام التهديد والوعيد بالكلام، وباستخدام الإشارات الجسدية أيضاً المهددة والمتوعدة، أو ما يطلق عليه لغة الجسد، لكل مخالف أو معترض

---

(1) اوان الكويتية، 2008/06/12.

على سياسة «حزب الله»، أو على طرح موضوع سلاحه. إلى أن انفجر الوضع كما رأينا في 7 و8 مايو (أيار) وما تبعها.

هذا في وقت يؤكد لنا فيه السيد نصرالله: «أنا اليوم أعلن وليس جديداً، أنا أفتخر أن أكون فرداً في حزب ولاية الفقيه، الفقيه العادل، الفقيه العالم، الفقيه الحكيم، الفقيه الشجاع، الفقيه الصادق، الفقيه المخلص. وأقول لهؤلاء: ولاية الفقيه تقول لنا، نحن حِزْبُهَا: لبنان بلد متنوع متعدد يجب أن تحافظوا عليه».

ما معنى المحافظة على بلد متنوع في هذا السياق بعد أن تكون وسائل الإعلام المخالفة لوجهة نظر الحزب، وإعلاميوها والعاملون فيها قد تعرضوا إلى ما تعرضوا إليه؟ في المقابل فإن نموذج الدولة التي تطبّق ولاية الفقيه هي إيران، حيث لا مجال للافتخار بالحريات على مختلف الصعد، لا حريات شخصية، ولا حرية صحافة أو إبداء الرأي، ولا حتى حرية الترشح للانتخابات!؟ فبماذا تعدنا ولاية الفقيه إنطلاقاً مما حصل في لبنان ومما هو معلوم عن إيران؟

لا يمكن الحديث عن الرأي العام دون الحرص على حرية التعبير والاتصال، وإذا كان الاتصال صعباً أو مختزلاً أو مقموعاً فإن الرأي العام يصبح أقل استعداداً لأن يتشكل أو يتغير. إذن يكون الرأي العام أقوى في مجتمع حر، منفتح ومتقدم، عما هو عليه في مجتمع منغلق وبدائي. على أنه حتى في هذا الأخير لا يمكن تجاهل الرأي العام. الجهود لمعرفة الرأي العام كانت دائماً ميزة المجتمعات الديمقراطية. ذلك أن قوة وفعالية الرأي العام الأميركي هي التي سمحت مثلاً بمحاسبة كلينتون على كيفية استخدامه للمطار وللطائرة الرئاسية (كممتلكات عامة) لمآربه الشخصية (كسلوك خاص). والأمثلة أكثر من أن تحصى في هذا المجال.

فهل يلعب الرأي العام opinion publique في بلادنا الدور نفسه الذي يلعبه في الغرب؟ الجواب البديهي هو لا... لماذا؟ لسبب بسيط، لعدم وجود الفرد، المستقل، المسؤول وغير التابع، ولتقلص الحرية وممارسة الرقابة الذاتية، معظم الأحيان، بسبب القمع الظاهر والمبطن. هنا تأتي أهمية التسامح، الفكرة التي أطلقها جون لوك في أواخر القرن السابع عشر والتي حملت عنوان «رسالة في التسامح».

هذا دون أن نغفل أن مفردة التسامح غالباً ما تترافق مع معاني التعالي والقبول المشروط. فالأقليات التي تتمتع بالتسامح من قبل الآخرين غالباً ما تشعر أنها مقبولة بدافع الشفقة من دون أن يكون وجودها مضموناً بشكل نهائي.

إن هناك حاجة لما هو أكثر من التسامح. هناك حاجة لاحترام الآخرين وتقبّل أفكارهم وعقائدهم لقبولهم كما هم باختلافهم.

وهنا يجدر بنا قبول أن حرية التعبير تنطوي على إمكان أن نثير غضب الآخرين وحنقهم، وأن يثير الآخرون غضبنا وحنقنا. هذا هو الجوهر الحقيقي لهذه الحرية. ليس لحرية التعبير أن تكون إرضاء لأحد، إنها تحدٍ وتحريض. هذا ما يتحتم على أوساط حزب الله إدراكه وتعلّم التكيّف معه. لكنْ كيف يمكن التوفيق بين حرية التعبير هذه ومفهوم ولاية الفقيه التي يعتنقها حزب الله؟

تشرح مصادر حزب الله موقفها من ولاية الفقيه كما يلي: «لا علاقة لموطن الولي الفقيه بسلطته كما لا علاقة لموطن المرجع بمرجعيته. فقد يكون عراقياً أو إيرانياً أو لبنانياً أو كويتياً أو غير ذلك (...) فالإمام الخميني كوليّ على المسلمين، كان يدير الدولة الإسلامية في إيران كمرشد وقائد وموجّه ومشرف على النظام الإسلامي هناك، وكان يحدد التكليف السياسي لعامة المسلمين في البلدان المختلفة»... هذا «والارتباط بالولاية، كما يقول الشيخ نعيم قاسم - تكليف والتزام يشمل جميع المكلفين، حتى عندما يعودون إلى مرجع آخر في التقليد، لأن الإمرة في المسيرة الإسلامية العامة للولي الفقيه المتصدي... أما الولاية فهي «مطلقة وعامة»، وهي تشمل كل صلاحيات النبـــي والأئمة المعصومين من دون نقصان أو استثناء».

ألا تعد سابقة استخدام السلاح بهذا الشكل تأكيداً على ما يفرضه تطبيق ولاية الفقيه على الصعيد الاجتماعي وعلى صعيد حريات الصحافة الاعلام؟ وما بدأت محاولات تطبيقه؟ لقد نقلت صحيفة الحياة بتاريخ 8 يوليو الخبر التالي:

«ولم يمرّ أمس وقبله من دون حوادث أمنية سجلتها التقارير الرسمية. وأشارت مصادر أمنية إلى أن عناصر من «حزب الله» اعترضوا فريقاً من محطة «أل بـــي سي» التلفزيونية ظهر أمس في منطقة بشامون وطالبوه بتسليم كاميرا التصوير والشريط الذي فيها وأصروا على هذا التدبير. ولم ينفع اتصال الفريق التلفزيوني بالجيش إلى

أن تدخلت إدارة المؤسسة واتصلت بقيادي في الحزب. و لم يُسلّم الشريط والكاميرا إلا بعد الاطلاع على ما يتضمنه».

أليس هذا دليلاً جديداً على الممارسات التي تنتظر لبنان في حال استمرار الوضع على ما هو عليه لجهة احتفاظ حزب الله بسلاحه الموجّه إلى الداخل؟

* * *

كيف يمكن فصل الطائفي عن السياسي ومرجعية حزب الله الفقيه الولي السيد خامنئي؟[1]

في كل مرة يتدهور فيها الوضع الأمني في لبنان ويتصاعد التوتر المذهبـــي نجد من ينبري لكي يذكرنا بأن الصراع في لبنان هو سياسي وليس طائفي أو مذهبي. ولفهم معنى وسبب هذا التمييز علينا التدقيق بمعنى الصراع السياسي من ناحية وبمعنى الصراع الطائفي من ناحية أخرى وما وجه الاختلاف بينهما.

نلاحظ بداية أن هناك نوعان من المعترضين على اعتبار الطائفية إحدى أوجه التعبير عن الصراع السياسي وعن وجود تضاد بينهما. النوع الأول يعترض لرفضه إستغلال البعض "الصراع السياسي" من أجل تأجيج الصراع الطائفي ربما دفاعاً عن النفس ضد تهمة المذهبية دون نفي الحق باستخدام العنف في الصراع السياسي. وهذا التمييز تستخدمه المعارضة في لبنان - وخاصة حزب الله- ضد الموالاة أو 14 آذار.

لكن هناك من يذهب به الأمر حد الاعتقاد أن الصراع الدائر هو نوع من ازدواجية بين الصراع السياسي من ناحية والصراع الطائفي من ناحية أخرى. وفي ذهنه أنهما من طبيعتان مختلفتان، هناك السياسة من ناحية والطائفية من ناحية أخرى، كالفرق بين البراءة والدناسة، أو الايمان والكفر أو السلم والحرب. وفي كلا الحالات نجد أن محور النقاش يميل عن جوهر المسألة وهو استخدام العنف أو عدمه في الصراع السياسي نفسه، سواء أكان مذهبياً أم لا.

لنعاين أولاً ماذا تضمر الإشارة إلى أن الصراع "مجرد صراع سياسي" وتهديد من يعتبره مذهبياً أو طائفياً بأنه يلعب على التناقضات ويستحق العقاب!

ما الذي تخفيه هذه المقولة التي تبدو عقلانية وصحيحة بالنسبة لهذا الفريق؟ ألا نلاحظ أنها تريد تحديداً التقليل من أهمية استخدام العنف في الصراع ضد غالبية ذات طابع مذهبـــي معين وجعله مقبولاً من أجل فرض واقع سياسي ما. وهذا الواقع

(1) اوان الكويتية، 2008/06/19.

يصبح مقبولاً طالما أننا نخفيه تحت الحجاب السياسي، فيما سوف يكون مرفوضا لو خلع عنه هذا الحجاب وبرز كاستخدام للقوة، من قبل طرف طائفي -أو أكثر- لفرض واقع سياسي مختلف طالما أن الحصص الطائفية محددة بقوانين وأعراف.

أما بالنسبة للفريق الآخر فجوهر المسألة يكمن في اعتقاده أن النـــزاع عندما يكون مذهبياً فهو يعني قبول فكرة استخدام العنف كوسيلة لحسم الصراعات أو حتمية استخدامه، ويعتبر أن السياسة تعني عدم استخدام العنف. وهذا فهم أو استخدام ملتبس يعود إلى القرن السادس والسابع عشر عندما برز اتجاه جديد حينها من المعتدلين الذين استخدموا "السياسة" بمعنى الاعتدال وعدم استخدام العنف في سياق الحروب الدينية في تلك الفترة.

لكن عند العودة إلى تحديد مفهوم "الصراع" في هذا السياق فهو يعني أيضاً "حالة عدم استقرار سياسي". كما أن الصراع السياسي قد يكون أيضاً صراعاً عنفياً ومسلحاً؛ ففي تعريف الصراعات السياسية نجد أن الحرب هي نوع من صراع سياسي، والانقلاب العسكري والثورة هما كذلك، والعصيان المدني أيضاً. هذا لناحية استخدام العنف في الصراع السياسي، لكن يمكن أيضاً للصراع أن يكون "لا عنفياً" بالطبع على طريقة غاندي...

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الفئة تتبنى وجود اتجاه عام في الرأي العام العالمي الآن يسلم بضرورة حسم الصراعات بالطرق السلمية وعن طريق التفاوض والحوارات والقضاء عبر المحاكم الدولية. وهذا ما كان في مبدأ إيجاد فكرة الأمم المتحدة وفي اتجاه لعبها دور حكومة دولية على صعيد الكرة مع الوقت وهو اتجاه لم يتركز بعد.

ولفهم الموضوع بشكل أفضل وانعكاسه على لبنان يجب الإجابة على أسئلة من نوع: ما هو تعريف الصراع السياسي؟ وما هو الصراع الطائفي؟ ثم على ماذا يتصارعان؟ اليسا وجهان للصراع على السلطة؟

في محاضرة لماكس فيبر حول "السياسي"، يتراوح تعريفه للسياسة بين قطبين، أحدهما متسع وشامل لكل أنواع النشاط الموجه: سياسة قطع بنكية، سياسة نقابية من خلال أحزاب، سياسة مدرسية، وأخيراً وبعد أن يعدد "سياسات" أخرى، يورد التعريف التالي:"سياسة امرأة ماهرة تبحث عن حكم زوجها". نلاحظ هنا إلى

أي حد يوسع مفهوم السياسة. ولدى فيبر تعريف آخر للسياسة، محدد وحصري: "هي كل ما يتعلق بإدارة المجتمع السياسي، أي الدولة". وبحسبه للدولة حق استخدام العنف من ضمن هذا التعريف، الأمر الذي وسعته حنة أرندت لاحقاً واكدت على حصرية استخدام العنف من قبل الدولة. وفي النقد الذي تقوم به الحركات النسوية لهذا الفهم ولهذه الممارسة السياسية السلطوية والتي تجعل السياسة تنتمي إلى ميدان العام فقط فتستبعد المرأة بسبب من ذلك، يرفع شعار *"كل ما هو شخصي هو سياسي"* ويقصد بذلك أن يوسّع العالم السياسي بحيث يشمل الاجتماعي والشخصي. فالحاجة إلى مدرسة للطفل أو تطبيبه هي شأن سياسي لأنها تطال سياسات الدولة الاجتماعية. كذلك الكهرباء المقطوعة ومياه الشفة أيضاً، جميعها تصب في الشأن السياسي. وكذلك القوانين المتعلقة بالأحوال الشخصية هي شأن سياسي.

إذا اعتمدنا إذن على هذا التعريف، يصبح الصراع الطائفي هو بالضبط صراع سياسي، هذا في العام؛ أما في الخاص وفيما يتعلق بالوضع اللبناني فنجد أن الطائفية قائمة في صلب النظام أو حتى الكيان اللبناني، ورغم أن الهدف هو التخلص من هذا العبء والتخلص من الطائفية عبر اعتماد مبدأ المواطنية والمساواة أمام القانون دون اعتبار للمذهب والطائفة، إلا أن الطائفية كانت ولا تزال هي الناظمة للحياة السياسية اللبنانية، فكيف تخطر إذن ببال أحد فكرة اعتبار وجود تناقض بين الصراع المذهبي أو الطائفي والصراع السياسي؟ الطوائف في لبنان قائمة أصلاً على مبدأ تقاسم السلطة عبر ممثلين سياسيين. فلماذا يشدد البعض على وجود ازدواجية وتناقض بين الصراع السياسي والصراع الطائفي وهما وجهان لعملة واحدة؟

ولست هنا في مجال التوسع كثيراً في هذا المجال، لكن في الاطار اللبناني أيضاً، وفيما عدا عدم صحة الفصل نظرياً بين الصراع السياسي والصراع الطائفي أو الديني يجب لفت نظر انتباه الفئة الأولى التي ترفض اعتبار الصراع الدائر صراعاً طائفياً (مذهبياً) سياسياً وخاصة من قبل منظّري ولاية الفقيه وممارسيها والمؤمنين بها إلى أن من يقوم عملياً بعملية المزج بين السياسة والدين، بين السلاح والقداسة لا يمكنه منع الآخرين من استخدام نفس المنطق ونفس الحجة أو نفس اللعبة. هذا الحزب القائم على عقائد دينية نابعة من مذهب محدد بعينه، فعندما يتخذ حزب الله

كل قراراته بحسب مراجعه الدينية - المذهبية بالذات والموجودة في حدود دولة وطنية أخرى ذات مصالح خاصة بها وبتاريخها، لا يمكنه منع الآخرين من استخدام منطقه نفسه واستخدام المرجعية الدينية والمذهبية في صراعهم معه على السلطة. وما يساعد على ذلك تاريخنا بالذات والذي طالما كان يتحول فيه الصراع من مذهبـي إلى سياسي والعكس بالعكس. طالما أن الصراع هو في كل الأحوال صراع على السلطة بلبوس ديني أو غيره.

هناك الكثير من التخبط والتناقض الآن في لبنان بين مختلف التيارات السياسية والطوائف. والجديد البارز هو تحول الطائفة إلى وحدة أمنية قائمة بذاتها. وهناك ميل للتأكيد حتى على الخصوصيات الثقافية للطوائف واشهارها من أجل تفسير التناقضات والصراعات السياسية. الأمر الذي يؤكد عليه السيد نصرالله في التأكيد على وجود ثقافة خاصة بالمقاومة والطائفة الحاضنة لها بشكل أساسي. وهنا يكمن الخطر على وحدة لبنان وعلى نسيجه الاجتماعي وكيانه عندما يتم الاعتراف بوجود اختلاف ثقافي جوهري والتأكيد عليه ومحاولة تغليبه أو فرضه على الآخرين بالقوة، مع التسليم الافتراضي والغائم على القبول بالتعددية والذي تبرهن الممارسات على الأرض عكسه تماماً.

وفي عودة إلى بداية النقاش، عن وجود تناقض في أن يكون الصراع سياسياً ومذهبياً في نفس الوقت؟ هناك ربما ثنائية بين الطائفية والعلمانية - لكن ليس بين الطائفية والسياسة - يصدر معها البعض حكماً قطعياً مؤداه أن جناحي هذه الثنائية هما نقيضان لا يلتقيان ولا يتصالحان أبداً. مع ذلك نجد أن كليهما، الطائفية والعلمانية، تعبيران سياسيان وإن اختلفا في كيفية الحكم أو إدارة شؤون الدولة لجهة إما تدخل الدين في السياسة وإما إبعاده عن السياسة وجعله ممارسة شخصية وإيمان فردي وداخلي، لكن استخدام العنف أو عدمه لا يدخل في هذا التصنيف.

يصبح الحل عندها من ناحية، في جعل الصراع سلمياً ولا عنفياً وفي منع استخدام السلاح تحت أي ذريعة كانت. ومن ناحية أخرى في اعتماد مبدأ العلمانية بمعنى فصل الدين (الكنيسة والجامع) عن السياسة من دون تصادم بينهما. ولقد سبق لطارق متري أن وسّع هذه المسألة في كتابه "مدينة على جبل"، مشيراً إلى التجربة الأميركية التي سمحت بالتعايش السلمي بين الجميع بالرغم من وجود

التنافس والصراع في ماضيهم الديني، وهم يفخرون غالباً بأنهم احتفظوا بخصوصياتهم الدينية عبر القرون من دون إكراه أو أي شكل من أشكال العنف.

الحل إذن لا يكون إلا باعتماد الفصل بين الدين والسياسة من ناحية وعدم اللجوء إلى استخدام العنف من ناحية أخرى. هذا وحده ما يعيد الأمور إلى سويتها.

* * *

يمكن لحزب الله بالطبع أن يسيطر عسكرياً على لبنان: لكن ماذا عن اليوم التالي؟[1]

أو

في ضرورة الاعتذار من بيروت بعد عملية 7-8 أيار المسلحة

عندما هبطت الطائرة أرض المطار، بعد الغياب القسري الذي تسبب به اجتياح بيروت المسلح[2]، غاب شعور الفرح. إحساس بالحزن يهبط على المسافرين ويثقل حركتهم. ينهون معاملاتهم دون أي ابتسامة، وكأن القدرة على الابتسام نضبت، بقيت هناك في الأماكن البعيدة التي غادروها. القاعات قاحلة فيما عدا عدد الركاب القليل الذي كان على الطائرة نفسها. الخواء هو الذي يستقبلك، وعندما تصل إلى نقطة التفتيش الجمركي. يدفع الركاب عرباتهم دون حواجز تعترضها. يقف دركي بعيداً كأنه سهى عن نفسه هناك ونسي العودة إلى البيت. الهواء في الخارج ثقيل على الرغم من اعتدال الطقس، والخواء استوطن الأمكنة والطرقات. الشوارع ترزح تحت وطأة الصمت الصباحي. تحس بموت يخيم على المدينة، تنطق به الشوارع والأحياء والأرصفة الخاوية تحرسها صور من يصرخون بالنصر، فقط لا غير. أسبوعان بالكاد.. ماذا فعلا ببيروت؟

مساء، في الداون تاون مشهد مختلف تماماً، تبحث عن موقف لا تجد، تبحث عن طاولة لتجلس، كلها محجوزة. تتوالى دفعات البشر بأعداد غفيرة لليوم الرابع

---

(1) اوان الكويتية، الأسبوع الأول من حزيران 2008.

(2) بالنسبة لمن يعترض على استخدام اجتياح بيروت المسلح، مجيباً أن بيروت لكل أهلها والقاطنين فيها ولكل اللبنانيين، الأمر المحق تماماً، نذكر بكلمة مسلّح، أن اجتياح وغزو مسلحين مرفوض ومدان ولو من قبل بعض أهلها، لأن الأهل الحقيقيين لا يفترض بهم حمل السلاح بوجه مدينتهم المفترضة أو الشرائح الأخرى من سكانها.

على التوالي من دون توقف. عندما تقترب الساعة من الحادية عشرة تكون الجماهير في ساحة البرلمان، والشوارع المحيطة بها، قد تحولت إلى ما يشبه التظاهرة. بشر حقيقيون ومتنوعون بمن فيهم فئات شعبية في غالبيتها لا تكف عن التقاطر.

قال لي صحافي أجنبـــي: هل صحيح ما يقال عن أن حزب الله كان باستطاعته اجتياح لبنان، والسيطرة عليه عسكرياً خلال يومين؟ قلت له بالطبع، وربما بساعتين، لكنه ماذا سيفعل بعد ذلك؟ ليس المهم أن يقوم بعمليته العسكرية من أجل اجتياح لبنان، المهم ماذا سيحصل في اليوم التالي؟ باستطاعة أي كان أن يطلق قنبلته الذرية، لكن المهم: the day after.

يختلف اللبنانيون في تقييم ما حصل، وفي التعليق على الأحداث. هناك من يعتبرها لعبة كبيرة قام بها السياسيون على حساب الناس. «كانوا متفقين على ذلك، سيناريو ونفذ». يأخذك هذا الرأي إلى نظرية المؤامرة الشهيرة التي تفسر كل شيء بأنه معدّ سلفاً. تجد هذه النظرية جذورها في القدرية التي طالما فسرت مناحي الحياة وخواتيمها قدر ومكتوب. وهناك من آمن بالمقاومة، ووجد تفسيرات لكل تصرفاتها منذ حرب 2006 وحتى الآن. ويبرر ما حصل بأنهم "حشروها"، فاضطرت للرد. هناك من دعم المقاومة، لكنه الآن لا يصدق ماذا حدث، لماذا إذلال المدينة بهذا الشكل؟ أي حقد وأي ثأر؟ قال نعيم قاسم إنها «عملية جراحية موضعية دقيقة»، هذه وصفة الأميركيين لتدخلهم في حرب الخليج الثانية في العام 1990ضد صدام حسين!! وتسمية «العمليات النظيفة» تطلق عادة عندما ننظر إلى صور المعارك عن بعد بواسطة الأقمار الصناعية، دون مشاهدة «آثار» المعارك. دون أن نشم رائحة البارود، أو صوت القذائف. لكن الآثار هنا لم تمح بعد، والمشهد حيّ ومباشر لا تحمله الأقمار الصناعية، بل يلتصق بالعين وحتى بعد تنظيف المدينة، ما زلت تجد سيارة محترقة هنا، وزاوية مهدمة هناك وشجرة نصفها محترق ونصفها أخضر. هنا احترقت منازل وسيارات، وتعرض الناس للإذلال، أريد لهم أن يُذلّوا. كيف تكون عملية جراحية نظيفة وأطرافها متواجهون ومحكومون بما يفترض أن نسميه «التعايش»، ليسوا طيارين أميركيين لا يعرفون ماذا ومن يضربون ولا تهمهم النتيجة. لا يزال «جمهور المقاومة» يردد لمن يريد.. إنها مجرد عملية صغيرة.. عينة عما سوف يحصل لقد ربيناهم. وإذا «لم يمشوا»، فسنلجأ إلى الحل العسكري مجدداً! الجذري هذه المرة؟

الوجوم يغطي الوجوه في الأحياء حتى الآن. سمر وصفت ما حصل بأنه كان أشبه بألعاب الفيديو التي يمارسها هؤلاء الفتية الذين أخلى لهم مقاتلو حزب الله الشوارع. ومقاتلو حزب الله هم «الرجال الكبار الذين يلبسون الأسود ويضعون الشارات الصفر على رؤوسهم». بعد تدخلهم السريع في بيروت أخلوا الساحات لفتية، وأولاد يطلقون الرصاص في الهواء، وعلى الصور، وعلى السيارات المتوقفة، ويوزعون «ولي.. وولا» على سكان البنايات، وكأنهم يلعبون. وربما من هنا جاء تشبيه سمر لما حصل بالألعاب.. مطلبها تربوي الآن: منع هذه الألعاب كي لا تتحول في لبنان إلى حقيقة. مطلب سهل لكن هل حقاً يكفي منع الألعاب؟ وماذا نفعل بالنفوس المعبأة بالبروباغندا؟ وأشرف الناس المقتنعين بأنهم هم فقط الذين على حق، وأنهم أفضل من كل الآخرين الموزعين على سبعة أصناف أخفّهم ذنبا الواقفون على الحياد، ثم المجموعة التي تأكل وتشرب وغير المعنية بشيء آخر، ثم تكر فئات العملاء، وأصحاب المصالح المتعاونين مع العملاء، إلى المهزومين واليائسين، وهذه تختص بها النخب، ثم رافضو الإحتلال بالكلام، وصولاً إلى الفئة السابعة على رأس الهرم، ومع أننا لم نعرف تعداد هذه النسب وتوزيعها العددي، لكن الواضح أن الفئة السابعة فقط هي فئة القلة من الأخيار المصطفين وهم «أشرف وأكرم وأطهر الناس». ونحن نعرف ان الرقم سبعة له وقع وسحر خاصين في التراث الديني. ماذا نفعل بالباقين جميعهم؟ نهلكهم "بنظافة"؟!

يقول لك البعض، حسناً ارتكبت الحكومة «معصية» وأخطأت بقراريها المتسرعين، لكن ما دخل الأهالي والمواطنين؟ لماذا الانتقام منهم نتيجة قرار سياسي -لنسلم أنه خاطئ- من الحكومة؟ طيب إذا استحق قراران غير قابلين للتنفيذ عملياً هذا التأديب فماذا إذن كان يستحق من احتل قلب المدينة كل تلك المدة الطويلة دون أن يتعرضوا لأي هجوم أو اعتداء؟

ما الذي كان يستدعي كل هذا الذي حصل؟ هناك أسف عند البعض، أسف على فكرة ومثال المقاومة! كيف يمكن أن تتحول المقاومة لتواجه شعبها وأهلها؟ لا تحتاج المقاومة إلى إجماع أو غطاء، يخاطبنا السيد نصرالله؟ بالطبع هذا صحيح عند انطلاقها ومع ذلك، فهي ما كانت ستنجح دون التفاف الشعب واحتضانه لها. ولو أن المقاومة انطلقت في البداية، ومارست ما تمارسه الآن، لما نجحت في

مقاومتها، ولما حررت أرضاً، أو فضاء. وهي تحتاج بالتأكيد إلى تسمية أخرى عندما تحتاج إلى اجتياح الأحياء وإذلالها واستفزازها بهذه الطريقة؟

إن طريقة الاجتياح والإعداد له عبر تكراره على دفعات صغيرة على مدى العام 2007، وكأنها بروفات لجس النبض، كل ذلك يشعرك بوجود رغبة دفينة بالانتقام من المدينة وسكانها، رغبة في إظهار ضعفها وجبنها. إعادة بناء وسط بيروت أثارت الكثير من الجدل منذ البداية؛ ولم يتوقف الانتقاد بعد تعميره وتجديده وظهوره على تلك الصورة الباذخة لعمارة عريقة ومتقنة وراسخة أكدت على استعادة بيروت أمجادها ورسخت صورة جديدة للداون تاون تضاهي أجمل مراكز عواصم العالم. حمل إحتلال وسط بيروت في رأيي بعض الشبه بما حصل للبرجين التجاريين في نيويورك، كان هناك تشف من تهاوي البرجين اللذين رمزا للقوة والسلطة والطاقة. فغدا انهيارهما علامة على انهيار الولايات المتحدة رمزياً. هناك أوجه شبه فيما حصل في بيروت نتيجة الاعتصام الشهير، فالتسبب بالشلل التام للحياة المدينية فيها حمل شحنة هائلة من الضغينة والتشفي من العاصمة ومن قدرتها وطاقتها. وجاءت أحداث لبنان الأخيرة لتستكمل ما كان قد بدأ منذ أواخر العام 2006 وبروفات الهجومات المتقطعة وتقطيع أوصال المدينة والخطط العسكرية لمهاجمتها والسيطرة على أحياء بيروت وكأنها مناطق خالية ومجرد تضاريس لخارطة عسكرية لمدينة عدوة لا يتعرفون على سكانها، ولم يسبق أن تعاملوا معهم إلا كمجرد أعداد، أو أعداء. لكن التساؤل هو: ما دامت المقاومة بغنى عن الإجماع الوطني، لماذا إذن تريد إخضاع من لا يوافق على سلوكياتها وخططها ومشاريعها؟ وما دامت لا تريد سلطة، ويكفيها رضى الله عنها، ما حاجتها لاستخدام القوة في بيروت؟ ثم ماذا تعني المطالبة بالمشاركة بالسلطة لمن يشارك بها منذ بداية التسعينيات عبر نواب ووزراء ومدراء عامين وموظفين وكل ما هنالك!!

الشائعة الرائجة الآن، أن من يطالع اللبنانيين الآن هو شبيه نصرالله. «مش هوي ذاته»، حسن نصرالله الأصلي قضى بغارة. الجديد عابس وغاضب، يخاف ومتوتر ولا يضحك. متوتر من أول الخطاب إلى آخره. هذه الشائعة تلعب دور الأسطورة، الأسطورة كحكاية قد تكون غير حقيقية، ولكنها تحمل في قلبها بذوراً من «الحقيقة» كما هي، أو كما يتمناها من يؤمن بها. وفي كلتا الحالتين، فإنها تعبّر

عن واقع معين. شائعتنا تعبّر عن تبرير لفهم التغير الذي حصل في توجه المقاومة وخطاب قائدها، تعبّر عن رفض للتحول الحاصل عبر حفظ صورة القائد الأصلية كي لا تمس، وتتمنى أن يكون ما يحصل الآن زائفاً وغير حقيقي. وفي هذا رفض لتحوّل قائد المقاومة التي هزمت ودحرت إسرائيل إلى زعيم-ديكتاتور.

ينقل عن هتلر قوله: إن القائد الذي يكسب الأرض ويخسر الشعب لا يمكن أن ينتصر.

القسم الثاني

الولاء للهوية الوطنية

المجتمع المثالي ليس خارج المجتمع الحقيقي، إنه جزء منه. المجتمع غير مكوّن فقط من جماهير الأفراد التي تكوّنه ولا من الأرض التي يشغلها ولا من الأشياء التي يستخدمها ولا من الحركات التي يقوم بها. ولكن وقبل كل شيء من الفكرة التي يكوّنها عن نفسه. ومن دون شك يحصل أن يحتار حول الطريقة التي عليه أن يكوّنها عن نفسه فيشتّت بين معاني مختلفة، بين مثال الأمس ومثال اليوم، بين مثال التقليد والمثال الذي يبحث عن مكان له.

دوركهايم

"أشكال التدين الأولية"

الأساطير المؤسّسة

للوحدة الوطنية اللبنانية[1]

مهما تعقدت حياتنا ومهما تطورت العلوم والتقنيات وغيّرت في أنماط وجودنا يظل الإنسان بحاجة إلى الايمان بأفكار بسيطة قادرة على أن تعطيه معنى لحياته. ان الأفكار هي المحرك الأساسي للعالم، وهي القوة التي تتفوق على اعتى الاسلحة. هناك بعض الأفكار التي تملك القدرة على إثارة انفعالاتنا وعلى مدنا بطاقة هائلة على الفعل وهذه الأفكار التي تحرك العالم بسيطة وواضحة، انها تتعلق ببعض الأساطير المؤسّسة التي تنشد خلاص الإنسان واعطاءه معنى لحياته.

لكن يبدو ان لكل لغة بنيتها ونظمتها الداخلية الخاصة على ما تزعم الالسنية. أكثر ما يبدو هذا الأمر واضحا عندما يتم الحديث عن الأسطورة: ففي الفكر الغربـــي ومنذ أعمال مرغريت ميد وبنديكت هناك إعادة تعريف للأسطورة بحيث صار يحمل هذا المفهوم معان متعددة. فعندما نقرأ في اللغة الفرنسية مثلا عن الأسطورة لا نستنتج أي معنى تحقيري لهذا المفهوم، خاصة بعد أن أعطاه ليفي ستراوس وظيفة معينة لجهة إقامة علاقة خاصة بين الماضي والحاضر عبر الأجيال والطقوس. ويمكننا بحسب هذه الوجهة القيام بقراءة القوى اللاواعية التي تشكل العقل الإنساني. تشيع الآن في العالم الغربـــي استعادة البحث عن الأساطير المؤسسة وحيث يمكن للعقلانية أن تتحول إلى أسطورة ضمن هذا المفهوم. ويرى العديد من كبار المفكرين استحالة العيش من دون أساطير ملهمة للكائن الإنساني.

هذا بينما في عالمنا العربـــي ومن خلال فهمنا الراهن للغتنا نفسها، ترتبط كلمة أسطورة بالمعاني المحقرة، إنها خرافة بالمعنى السيء للكلمة، وهي تعبير عن التخلف والتعلق بالماضي والعيش على فتاته. حتى ان مفكرا مثل محمد أركون يتبنى الخلفية نفسها فيكتب "حول وجوب تحرر العرب والمسلمين من الميتولوجيا والأحلام..."

---

(1) النهار، 2005/05/21.

السؤال لماذا في وضعية معينة يؤدي الركون إلى الأساطير والأحلام إلى الركود الفكري والمراوحة التاريخية، بينما يقوم في عالم آخر بنيان حضاري على أساطير مؤسِّسة بسيطة، غايتها اما تخليص الإنسان واما تخليص المجتمع، وخلفيتها العامة فكرة الخلاص المسيحي؟ أين تكمن المشكلة؟ في نوعية الأساطير؟ في نوعية المجتمع؟ أم في اللحظة التاريخية التي يمر فيها مجتمع معين وعبر ديناميته في التغيير والانطلاق نحو التأسيس لمرحلة جديدة؟ الا نمرّ الآن في مرحلة دينامية خلاقة نلاحظ انها تستدعي الاستلهام من أولى الأساطير المؤسِّسة الحديثة والتي تتم العودة إليها في مناسبات مختلفة وهي فكرة العقد الاجتماعي! ولقد برزت أخيراً هذه الفكرة في لبنان بكثرة، وتكررت في العديد من الكتابات: فكرة ضرورة التأسيس لعقد اجتماعي جديد؟ فما معنى ذلك في السياق الحالي الذي نعيشه؟ وهل هذا ممكن الآن؟ ولماذا؟

ان أول فكرة مؤسسة لأسطورة العقد الاجتماعي هي فكرة "الليفياتان" لهوبز. من غير الممكن تقدير ابتكارية "الليفياتان" إذا ما لم نضع نصب اعيننا السياق الذي تبلور فيه هذا المخاض التفكيري الذي استخدم التاريخ الأسطوري من أجل جعل ولادة المجتمع القائم على عقد بين الناس ممكناً. بحسب هوبز، الإنسان في حالته الطبيعية، ذئب للإنسان. وهذا لا يعني أن الحياة الاجتماعية غير ممكنة، لكنها تجري في جو غير مستقر حيث لا يمكن للإنسان أن يحقق نفسه: فطمع الآخرين يهدده دائماً. ان حالة الطبيعة كما يصفها هوبس هي حالة جماعات وصلت إلى نوع من فقدان الذات إلى درجة تضييع معنى القيم. في مثل هذه الحالة تسود التعاسة وتتواجد شروط جحيم حقيقي. وفي هذا العالم الذي يسود فيه الاعتداء والتهديد تتملك الإنسان نـــزوات مَرضية ومن هذا اللانظام الخارجي الذي يولّد المنافسة الوحشية تسود الفوضى الداخلية حيث يولد الخوف. لذا يأتي العقد الاجتماعي كي يطرد هذه التوترات (كما نفعل مع الأرواح الشريرة): ويقوم في الفلسفة العقلانية مقام المعتقدات الدينية التي تساعد الإنسان على التكفير عن ذنوبه.

الحل ينتج إذن من المشهد الفوضوي بالذات: عندما يفهم الناس أن تعاستهم تتأتى عن غياب المبدأ المنظم القادر على إقامة النظام والانسجام؛ فيتحدون بواسطة

ميثاق أو عهد رسمي ويتركون سلطاتهم الخاصة لسلطة تحوّل حشدهم الممزق إلى جسم منظم– فيتشكل "الليفياتان" من أعداد الخلايا المبعثرة والتي تجمعت الآن بواسطة سلطة تقودها.

يعتقد هوبز أن العقل فطري وهو الذي يدفع الناس إلى حركتهم التأسيسية: يجب أن يتلاءم فعلهم مع العقد الذي يشكل سلطة مطلقة لأنه في مصلحة الجميع.

فكرة العقد الاجتماعي هذه لا تنفي ضعف البشر أو تشرذمهم الطائفي، بل ان هذا العقد الاجتماعي هو الذي يسمح بالسيطرة على هذا الضعف والتشرذم ويفضي إلى حالة أعلى حيث العقل هو قاعدة السلوك الاجتماعي. إنطلاقاً من هذا الفهم هل هناك لحظة انسب في لبنان من هذه اللحظة التاريخية المفصلية من أجل تأسيس عقد اجتماعي جديد بين اللبنانيين، والذي طالبت به شريحة كبيرة، وبالفم الملآن، تمثل فئة واسعة من اللبنانيين معظمها من الشباب عبر انتصارها لفكرة الوحدة الوطنية وبناء مجتمع المواطنية الصالح والخاضع للقانون؟ وذلك قبل أن يجري تحويل الحركة من جانب زعمائنا وسياسيينا التقليديين إلى عودة مؤسفة إلى الوراء وإلى الكيانات الطائفية والعواطف التناحرية؟

أورد هذا الكلام بسبب النقاشات السائدة في مختلف الأوساط حول ما حصل ويحصل في لبنان: هل هناك تغيير ما؟ هل هو تغيير جذري حقاً؟ هل هو تغيير نحو الأفضل؟ هل يمكن أن نتخطى إنقساماتنا المعهودة؟

في نقاش بين مجموعة من طلاب وأساتذة في العلوم الاجتماعية والنفس اجتماعية (من الجامعة الأميركية والجامعة اللبنانية) في مناسبة أول جلسة لتقليد يمكن أن يتكرس لما سمي "سوسيولوجي كافيه" – على الطريقة الفرنسية – برزت وجهتا نظر متعارضتان، وبغض النظر عن أنواع الإنتماءات المختلفة: وجهة أولى تنظر إلى الأمور بسوداوية وتشاؤم وتجد أن المجتمع اللبناني ثابت لا يتغير فهو مشتت الإنتماء طائفياً ومذهبياً وأن الإنقسام هو السائد وكي لا نضحك على أنفسنا، فبعيداً عن ساحة النجمة حيث تتوحد الاعلام وتنحصر في أحمر وأخضر وأبيض العلم اللبناني، إذن بعيداً عن هذه الساحة الجامعة تستعيد الاعلام الفئوية شرعيتها وترفرف معلنة حقها في الوجود. ولقد برهنت المعركة الإنتخابية محاولة تغلب هذه الوجهة في اللحظة الراهنة.

وهذا ما يفترض الاعتقاد بفكرة مغلوطة عن معنى الوحدة الوطنية، فالأخيرة لا تعني التشابه ولا تلغي الاختلاف أو تنفي تعدد الإنتماءات لكنها تسمح بها من ضمن القبول بتغليب الإنتماء الوطني الأساسي على تلك الإنتماءات الفرعية التي سوف تظل موجودة بالطبع ولكنها لن تعود مصدراً للنـــزاع طالما أن الاعتراف بها موجود شرط أن لا تطغى وتسيء إلى الوحدة الوطنية المبتغاة! وهنا يجدر التاكيد على أهمية الرغبات والأفكار والأحلام وامكان تحولها إلى دينامو فاعل.

وجهة النظر الثانية التي برزت تعاطت مع الموضوع بشكل مختلف ورأت في الاجتماع في ساحة الشهداء عنوانا لبدايات وحدة وطنية حقيقية ورغبة في التلاقي وفي التعرف على الآخر المختلف وقبوله، ولأول مرة منذ 30 عاماً!!

بدا هذا الإنقسام في شكل واضح قبل المعركة الإنتخابية وفي بيئات مختلفة وعلى مستويات عدة، في محيطنا القريب وفي التصريحات السياسة وفي المقالات الصحافية. هناك إنقسام في لبنان، لكنه ليس من النوع الذي قد يتسبب بحرب أهلية! بل هو نوع من إنقسام في المشاعر تجاه ما يحصل، وكأن ما حصل غير خاضع حتى لمجرد المساءلة: هناك من جهة فئة المتشائمين والذين يبحثون عن نقاط الضعف ونقاط الاختلاف لكي يجعلوا منها الدليل على استحالة الاجتماع واستحالة الديموقراطية واستحالة التغيير واستحالة الإصلاح وما يساعد على ذلك ما يحصل من تركيب لوائح إنتخابية مسبقة تصادر إرادة الكثير من اللبنانيين. وهناك فئة المتفائلين والذين يعون ضخامة حجم التغيير الحاصل وعمقه، فيبحثون عما هو جامع وعن الدينامية الكامنة خلف ما يبدو مجرد شعارات، وعن الآليات التي ينبغي اللجوء إليها لمنع سيطرة الفئات التقليدية ولو عاد الكثير منها إلى البرلمان.

ربما يعكس هذان الموقفان إنقساماً جوهرياً آخر وغير معبّر عنه بوضوح، خاصة من فئة المتشائمين، وهو الخوف من التغيير الحاصل ومن انعكاساته الممكنة على وضعية هؤلاء الخائفين.

ذلك ان ما ينقل عن رغبة المشاركين في خيم ساحة الشهداء، وهم عبّروا عن وجهة سائدة لدى اللبنانيين، هو الاندفاع في مطلب التغيير: " يريدون أن ينتفضوا على كل قديم"، فهم "يرفضون تفكير الأجيال السابقة، يفكرون في الجديد من الموضوعات أي أنهم أكثر حداثة"، و"يطمحون إلى تغيير كل شيء، وأهم ما

يريدونه تغيير القيادات السياسية الحالية والأحزاب القديمة والانتفاض على النظام الطائفي. يتوقون إلى إيجاد وطن يحاسب من يخطىء من دون النظر إلى هوية المخطىء وموقعه وتقوده نخبة صالحة في نظام يكافح الفساد وتسود فيه العدالة، في اختصار يريدون نظاما مختلفاً جذريا". هل يمكن التغاضي عن مثل هذه الرغبات المرتكزة إلى مثل هذه الإرادة الواعية والواعدة بالتغيير؟ والعمل بالآليات القديمة نفسها؟

من هنا ضرورة محاولة تلمس ركائز وأسس لإقامة العقد الاجتماعي الجديد، ومهما كان اللون الذي سيأخذه البرلمان المنتخب، بل وعبر الضغط عليه وبالوسائل السلمية من أجل أن نجد قواسم مشتركة بين مختلف الفئات اللبنانية. ألم نلاحظ أن القاسم المشترك لمختلف القوى التي اعترضت هو القضاء على دولة الفساد والمحاصّة والزبائنية والطموح إلى بناء وطن حقيقي وحكم ديموقراطي متعدد يشترك فيه اللبنانيون كمواطنين على قدم المساواة في الحقوق والواجبات؟ كما يحصل في بلدان العالم الديموقراطي!

ذلك أن ما تقدمه الديموقرطيات الليبرالية التي تتميز بتحديد السلطة وضمان حقوق الأفراد صار من المسلمات التي يطمح إلى الحصول عليها كل شاب وشابة. فهل هناك من يعترض على الاعتراف بأن التقدم الحاصل وغير القابل للنقض والمتمثل بحماية الأفراد من جانب دولة القانون هو فكرة قيّمة تجعل من هذا التطور مطلباً ضرورياً على مستوى الإنسانية ككل؟ يعي جمهور الشبيبة اللبناني ان الخضوع لسلطة القانون وخاصة ضمان حقوق الإنسان لم يعد قابلاً للمساومة؛ وهو ليس متعلقاً فقط بالأشخاص ذوي الامتيازات أو الناطقين باسم طوائفهم، بل يجدر أن ينطبق على الجميع، ويسري على جميع الرجال وعلى جميع النساء.

ومن هنا لم يعد هناك أي سبب يبرر الاغتيال أو العبودية أو القمع الأيديولوجي، وتمثل هذه الافعال اعتداء سافراً في أي مكان تمارس فيه على الأمن والحرية والوعي أو الضمير. إن هذه مطالب مشتركة لمعظم فئات الشباب اللبناني ومن هنا الانتفاضة السلمية ضد جريمة الاغتيال التي حصلت والتي قلبت المعايير والموازين في لبنان.

كذلك لم تعد فكرة العالمثالثية التي حافظت على عبادة الخصوصيات الاتنية ومنعت محاسبة الأنظمة السياسية للبلدان النامية بحسب المعايير الديموقراطية مقبولة. إن ما هو جيد للعالم الصناعي هو جيد أيضاً لعالمنا النامي في ما يتعلق بحقوق الإنسان فلم يعد مقبولاً الحفاظ على ممارسات أركيولوجية بحجة الخصوصية الثقافية أو أي خصوصية أخرى. فحيث يسود عدم الحفاظ على حقوق الأفراد، كأفراد وليس كجماعات، وعدم ضمانها من جانب الدولة تسود العبودية ولدينا مثال الأنظمة العربية كأكبر دليل وما كنا قد وصلنا إليه نحن أنفسنا.

هذا بالرغم من المعركة الإنتخابية التي تقاد على ما يبدو بالادوات التقليدية البالية نفسها لأن الطبقة نفسها التي تحكمت حتى الآن تحاول استعادة أنفاسها من أجل السيطرة مجدداً، لكن ذلك لا يمنع تشكيل حركة مدنية واسعة ترفض العودة بلبنان إلى نفس الممارسات السابقة والعمل على الضغط من أجل أن تستعيد القوى الشبابية والعلمانية المبادرة كي لا تضيع انتفاضتها سدى.

انها فرصة تاريخية متاحة امامنا لكي نعيد بناء أسس وحدتنا الوطنية المطلوبة والممكنة والتي تشكل نقطة ارتكاز مطلبية لجمهورنا الشاب فلنتمسك بها ونمنع العودة بنا إلى الوراء، فالأوطان تبنى على أفكار ورغبات مماثلة وعبر البحث عن طرق تحقيقها ولا تبنى بالاستسلام والتشاؤم رغم ان المقصود ربما الحذر المطلوب في بلد عانى من الخيبة والخيانات مراراً كما أحبطت الكثير من آماله وأحلامه بشكل جعل معه اللبناني لا يتحمس كثيراً، بل يظل على حذره كي يرى عن ماذا تتمخض هذه الأحداث. إن تعدد الفرص الضائعة يجعل من الخشية شعوراً مبررا خوفا من أن تتحول هذه الفرصة مثل غيرها من الفرص إلى سراب.

لكن ذلك لا يمنع عنا إحساسنا بالاسف الشديد أنه فيما يتحدث الشباب من مختلف الفئات والاتجاهات ويمارسون وحدتهم الوطنية، لا نـــزال نلمس من بعض الأطراف العمل، ولو من دون قصد، على التسبب بالعودة إلى لغة خشبية مرفوضة من كل لبناني يملك حسا سليما وهم كثر على أي حال.

إنها لحظة تاريخية مؤسسة إما إن نستغلها لكي نروج لفكرة الخلاف والتصادم والتشاؤم والخوف! وإما أن نعمل على بناء عقد اجتماعي جديد يستوعب التغيرات الهائلة الحاصلة - بعد صدمة اغتيال الحريري - في وعي فئات الشباب

الرافض للحرب الأهلية بوعي وحكمة، والمطالب بدولة على قدر طموحاته: عصرية علمانية وغير طائفية بالرغم من ممارسات الفئات السياسية التي لا تزال تصادر إرادة المواطنين عبر المحادل والبوسطات.

السياسة كمهنة وامتهان(1)

إنها المرة الثانية التي يشعر فيها اللبناني بفخر حقيقي لكونه ينتمي إلى هذا المجتمع اللبناني الحيوي ولكونه لبنانياً وفي أقل من خمس سنوات. وهذا كثير في عمر إنسان خصوصاً انه ينتمي إلى طائفة البلدان العربية.

المرة الأولى كانت عندما تحقق الانسحاب الإسرائيلي بفعل المقاومة اللبنانية البطلة، والتي برهنت في حينه على أنها فوق الطائفية وفوق الحساسيات والصغائر فحافظ الجنوب على هدوئه و لم يعرف أي تجاوز واي انتقام. وعندما كنت أسأل في المؤتمرات العلمية التي نناقش فيها آثار الحرب وتداعياتها والمشاكل التي قد تنشأ عنها أو النـــزاعات التي نتجت، كنت أنفي حصول ذلك في الجنوب وعندها كانوا يبدون دهشتهم وإعجابهم أن تتم الأمور بعد إحتلال دامٍ وفي ظل حرب اهلية مستعرة وتظل متسمة بالهدوء والسلم اللذين عمّا الجنوب، فكنت أشيد بحكمة "حزب الله" الذي برهن عن وعي ومسؤولية تامين عبر رفضه منطق الانتقام الثأري والعشائري.

الآن أشعر بالفخر نفسه وأنا أشارك في هذا الرفض اللاعنفي وهذه التظاهرات السلمية التي تعبّر عن انتماء إلى مواطنية راقية ومسؤولة وعن نضج يبدو أنه تبدى الآن في اهى صوره عند المواطن اللبناني الذي عانى طويلاً من الحرب. مواطنون لبنانيون من كل الفئات وخاصة الشابة، يجتمعون بالآلاف من دون أي سلوك نافر وخاصة بعد أن تمت لملمة الشعارات العنصرية والفئوية التي يتوجب وعي أنها تنتمي إلى عصر بائد وثقافة يحصل الارتقاء بمنتجاتها أمام أعيننا. لذا علينا صيانة هذا المستوى من الرقي والمسؤولية والحفاظ عليهما.

ابتسم عندما أسمع أو أقرأ ضيق البعض وتحسّرهم أمام هذه الظاهرة التي تجمع اللبنانيين الذين "تبخرت تبايناتهم وخلافاتهم وتمايزاتهم" ويتم التهكم على تجمعهم

---

(1) النهار، 2005/05/03.

كما في "مسرح الرحابنة العجائبـــي"... بواسطة انتفاضة سلمية، شبابية، تتجاوز، "موقتا"، الإنقسامات الطائفية. وكأن هناك تبشيراً ضمنياً إذن أو تمنياً للعودة إلى التشرذم!!!

وكأن الشعوب تملك تاريخاً واحداً وتصوراً واحداً، وإلى الأبد، وإذا هي تعرضت للتشرذم والتجزئة في حقبة ما يكون هذا قدرها ومصيرها إلى نهاية العالم. وتغيب عن البال التجارب القريبة والماثلة للعيان في التاريخ الأوروبـــي الحديث بحيث أن الهزيمة الأخلاقية للإنسان الغربي، والتي سببتها الحرب العالمية الثانية بكل وحشيتها، أدت إلى استعادة التساؤل حول القيم التقليدية، خاصة القيم التي تمجد القوة والعدوانية والعنف، والتي تسببت بجعل الموت منظماً وعقلانياً وممارساً ضد المدنيين. فأوروبا لم تعرف ابداً مثل هذه الخيانة لنماذجها ومثالاتها والتي قامت ببنائها خلال قرنين. لذا وعى من بقي على قيد الحياة بعد تلك الحرب مدى إتساع الكارثة الإنسانية والغى معظم هؤلاء من وعيهم الأفكار المتعلقة بالعرقية وبالتمييز. وكان أن نعمت أوروبا ومنذ ذلك الحين بالسلم الحقيقي وبنبذ العنف وبمحاولة احترام حقوق الإنسان بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ. هذا ناهيك عن أن الثقافة الألمانية لا تزال تعاني حتى الآن من عقدة اللاسامية.

تهكّم آخر يطاول الفئات المعارضة، فيتم الاستدراك أنها "معارضات" كما يحب البعض ان "يُمرّك" في اشارة إلى عدم التقاء وجهات النظر لدى مختلف هؤلاء المعارضين سوى على فكرة الاستقلال الفعلي، متجاهلين أو جاهلين لأبسط مبادىء الديموقراطية الا وهي فضيلة وجود الاختلافات داخل الفئة الواحدة وبين الفئات المتعددة وقبولها والتعامل معها كمكوّن اساسي وطبيعي. ان الاصطفاف في بنيان مرصوص وموحد الكلمة قلباً وقالباً هو من سمات الأنظمة والمؤسسات التوتاليتارية المستبدة. وأن وجود "معارضات" هو أكثر التعبيرات "صحية" عن سلامة الوضع اللبناني ومدى عمق تمثيله لمختلف فئات المواطنين اللبنانيين.

والحسرة الأخرى التي يشعر بها البعض هي أنه لولا "أخطاء المسؤولين في سوريا ولبنان" (أو عبقريتهم) في إدارة البلدين وكأن هذه الإدارة مسلم بها ومن أكثر الأمور طبيعية ويجب أن تكون ابدية!!! – لما وصلنا إلى هذه النتيجة الكارثية التي تسببت في انتفاضة الشعب من أجل استقلاله الحقيقي عبر الإستفادة من الدعم الدولي الضاغط!

وهذا يدعو إلى أكثر من مجرد الابتسام، ويذكّر بأقوال بعض الامهات الطيبات (كي لا أقول الساذجات) اللواتي ينظرن إلى الطفل المعوّق عقلياً (ومن علامات الإعاقة العقلية عدم القدرة على استخدام اللغة كالأسوياء) تقول واحدهن "لو ان ابني يتكلم فقط، لكان صار طبيعياً". وهكذا لو لم يخطىء المسؤولون في هذه المسألة البسيطة والتي هي "ادارة الشأنين اللبناني والسوري" لأمكننا النجاة من هذه الكوارث المتوالية. وكأن المسألة هي مجرد "ارتكاب أخطاء"! وليست بنية أنظمة استبدادية لا يمكن أن تمارس سوى الممارسات التي هي جزء من تكوينها وطبيعتها نفسها. فلا داعي للندم والحالة هذه، فمن دخل هذا النفق عليه تحمّل كل النتائج التي تترتب على ذلك. ولا تملك هذه الأنظمة ترف تغيير أسلوبها لأنها هي أسلوبها نفسه!!

الحروب تنضج الشعوب وتجعل الأجيال التي عرفتها محصنة ضد اللجوء إليها مجدداً. فما لم يستوعب بعد أن من النتائج النفسية المتعارف عليها للحروب، هي ان النــزعة العدوانية عند الأفراد تنتهي. وينتهي الدافع الحربــي والتعصب، وتصبح فكرة التراضي التي كانت تبدو شبه مستحيلة في البداية مقبولة ويمكن مواجهتها.

والحروب هي امتحان الشعوب، لذلك نجد أن الشعور بالارتياح بعد الحرب يشبه استرخاء الطلاب بعد الفترات العصيبة للسنة المدرسية. فلا عجب والحالة هذه ان نعاين هذا النــزوع اللاعنفي الواضح.

النكتة الأخرى التي لا تقل فكاهة عما سبق التعليق الذي نسمعه في نطاق اعتراض المسؤولين على مقولات ومطالب المعارضة وممثليها وجماهيرها، يسارع وأحدهم وينطق قائلاً: أرأيتم؟ انهم يريدون السلطة! أو أن هذا "تدخل في السياسة"!! أو انظروا يستغلون استشهاد الحريري ذريعة من أجل "استلام السلطة"؟

وكأن السلطة حكر على هؤلاء الأفراد أو الجهات أو الأحزاب أو... أو... دون غيرهم؟ وكأن أحداث 11 أيلول أو الأخطاء الأميركية في العراق أو ما شابه!! لم يتم استغلالها من المعارضة الديموقراطية في الولايات المتحدة وفي هذا ما يبرهن على فهم غريب وأثري للسياسة وللممارسة السياسية ناهيك عن الديموقراطية.

وأستغرب أيضاً في كل مرة أسمع فيها تعليقاً من مثل: هذا تدخّل في السياسة!!! خير انشاء الله؟ ولم لا يتدخل سائر البشر أو جميعهم بالأحرى في السياسة؟ والسياسة حكراً على من؟ على الجالسين على كراسيهم؟ وكيف جلسوا هم في الحكم أصلاً أليس بتفويض من الشعب؟ وما معنى مفهوم التداول؟ يحق لكل إنسان أن يتدخل في السياسة وأن يمارس السياسة بشكل طبيعي وبديهي وهذا أحد أسس الديموقراطية!

غريب هذا المنطق الذي يجعل السياسة "مهنة" للبعض ومن هنا ملاحظة "امتهان" السياسة بالمعنى السلبـــي فمن كثرة ما يمتهنون السياسة يمسخونها ويحولونها احتكاراً واستبداداً. ومن هنا الشعار المرفوع في الميدان السياسي: عدم معارضة الحكم؟؟؟

وهذا أمر غريب ومناف لحرية الرأي والفكر، فما معنى رفع شعار عدم معارضة الحكم؟ والنيل من كل من عليه شبهة مماثلة؟ معناه ان نسمح بالاستبداد ومعناه ان نفقد حق المساءلة والمحاسبة الذي تنص عليه شرعة حقوق الإنسان ونحرم من طلب ممارسة الشفافية التي ابتذلت من كثرة استخدامها! إن معارضة الحكم عندما يخطىء أو لا يعبّر عن طموح المواطنين هي حق بديهي في النظام الديموقراطي! إن التحريم الوحيد هنا هو استخدام العنف، أما المعارضة السلمية فهي حق وواجب بديهيين.

انها مرحلة تأسيسية يمكن أن تتبلور إنطلاقاً من الظروف التي هيئت لها ورافقها خطاب وطني لبناني عربـــي جديد وجامع لكل مكونات المجتمع اللبناني وأطيافه ومن هنا يأتي دور "حزب الله" ومهمته في اغتنام الفرصة من أجل المساهمة في بناء مرجعية وطنية لبنانية واحدة تعيد اللحمة إلى المجتمع اللبناني الذي تشرذم بما يكفي حتى الآن. ولكن هذا بحاجة إلى بناء واع قصدي وعمل وجهد مستمرين وتنازلات متبادلة من جميع الأطراف وكل فئات المجتمع اللبناني وطوائفه وأحزابه. وعلى ما يقول الزعيم جنبلاط، انه نموذج سوف يتعمم عند نجاحه. فلنأمل ذلك.

* * *

في حب الوطن[1]

الديموقراطية نظام فريد في الحكم، وهي في شكلها المعاصر نتاج للعصر الصناعي، أو عصر الحداثة المتميز بالعلمانية والتمدين والليبرالية، لكن نشوء وتطور الديموقراطية استغرق قرونا.

ما يثير الدهشة الآن أن ما من أحد اليوم الا ويسلم أنه ديموقراطي. فمختلف أنواع النظم السياسية في العالم تصف نفسها بالديموقراطية. غير أن ممارساتها كثيراً ما تكون متباينة بشكل جوهري بين نظام وآخر.

وفي منطقتنا العربية كثيراً ما نرفع شعار الديموقراطية ولوائها كمن يتحدى قانون الجاذبية. مع أن أول ما نلاحظه غياب مفهوم المواطن الفرد كي تحل محله فكرة الجماعة المتشابهة المطيعة للنظام السائد. ما يعني غياب استقلالية الفرد وقيمته كإنسان مما يؤدي إلى تدني الوعي بالمسؤولية: عن الممتلكات العامة مثل الحدائق أو الشوارع أو مناهل المياه ووسائل النقل الحكومية والغابات؛ باختصار كل ما هو عام هو متاح وقابل لأن يتعرض للنهب والتحطيم عند كل مناسبة. ومن الأمور الملفتة في مجتمعاتنا، شيوع الوسخ في الشوارع، مع أننا نعد أنفسنا من أنظف شعوب العالم ونتباهى أن صلاتنا نفسها تدعونا للنظافة! فالناس هنا لا تحافظ على كل ما هو ملكية عامة، وكأن الفرد ينتقم من السلطة القمعية بتدمير ممتلكات وطنه بالذات. ونحن نعاني من انفصال المواطن عن حكومته والتعامل معها وكأنها عدوة له وليست ما هو مفترض أن تكونه بحسب قوانين الديموقراطية المرفوعة: أي ممثلة له وناطقة باسمه وحامية لمصالحه.

فلماذا لا يشعر المواطن العربـــي بانتماء إلى بلده وإلى حكومته التي من المفترض انه انتخبها في معظم الحالات؟ أين هي الحلقة المفقودة؟

(1) اوان الكويتية.

حاول توكفيل في كتابه الديموقراطية في أميركا[1] محاولة فهم سيرورة الديموقراطية وكيفية العمل على إنجاحها ووضع يده على أصل المشكلة في دور المواطن وفي الكيفية التي تم فيها ربطه بالدولة أو تمثيله عبر أدواتها.

السؤال الأساسي الذي يجب أن نوجهه لأنفسنا: لماذا ينصاع المرء للمجتمع؟ ما الذي يلزمه بذلك؟ في الأمم التي تسودها عقيدة سيادة الشعب لا يقوم بذلك لأنه يحتل مرتبة ادنى من مرتبة من يقودونه أو لأنه أقل قدرة؛ انه يقوم بذلك لأن كل فرد في مثل هذه الأمة هو فلذة من فعل السيادة ويسهم بالمقدار نفسه في حكم الولاية. انه ينصاع للمجتمع لأن الاتحاد مع اشباهه ونظرائه يبدو له مفيداً ولأنه يدرك أن هذا الاتحاد ما كان ليوجد لولا وجود سلطة ناظمة. وهكذا يصبح الفرد واحدا من الرعية في كل ما يتعلق بواجبات المواطنين فيما بينهم. غير أنه يبقى سيد نفسه في كل ما يتصل بذات نفسه. من هنا المثل السائر أن الفرد هو خير من يقضي بمصلحته الخاصة وأن المجتمع لا يمتلك الحق في تسيير أفعاله إلا إذا استشعر ضررا منها أو إذا قضت الضرورة بأن يكون مصدر عون.

السلطات في أميركا تنبع من البلديات؛ إن أبرز ميزتين مهمتين تجمعهما البلدية هما الاستقلالية والسلطان، فرغم انها تنعم بحرية الحركة ضمن إطار لا يسعها تجاوزه غير أنها تنعم بحرية حركة ضمن هذا الاطار.

وبما ان البشر بحسب توكفيل يميلون إلى حيث تكمن القوة، لذا لا دوام لحب الوطن في أمة مقهورة لأنه يصبح وطناً ضعيفاً غير قادر على الحماية. ولا يتشبث المواطن ببلديته كونها مسقط رأسه بقدر ما يتشبث بها لأنه يرى في هذه البلدية جماعة مستقلة وقوية ينتمي إليها وهي جديرة بما يبذله سعياً وراء تدبير شؤونها... والحق أنك إذ تجرد البلدية من قوتها واستقلاليتها إنما تحلّ جمعا من الرعايا محل المواطنين فيه.

إن جوهر النجاح في نظام الحكم في أميركا يكمن في البراعة التي تقارب الفن والتي اتبعت في بعثرة السلطة بحيث تستقطب اهتمام العدد الأكبر من الناس بالشأن

(1) الكسي دوتوكفيل: عن الديمقراطية في أميركا، ترجمة بسام حجار، معهد الدراسات الاستراتيجية، العراق، 2007. وانظر الملخص للكتاب نفسه عن نفس الدار لمنى فياض.

العام. فبمعزل عن الناخبين المدعوين من حين لآخر للاضطلاع بمقاليد الحكم، ثمة أعداد من الوظائف المتنوعة ومن الموظفين المختلفين الذين يمثلون الجماعة القوية التي ينشطون باسمها.

كما أن النظام الأميركي وفي معرض توزيعه هذا للسلطة يضاعف الواجبات البلدية، ينتج عن ذلك اعتقاد مهم في أن حب الوطن هو عبادة يزداد تشبث الناس بها بمزاولة شعائرها. فالحياة البلدية تتجسد كل يوم في أداء واجب أو مزاولة حق، ما يضفي الحركة والنشاط في المجتمع. والأميركيون يتعلقون ببلدتهم للسبب عينه الذي يجعل سكان الجبال يحبون بلدهم. فالوطن في عيونهم له سمات واضحة ومميزة؛ وله هيئة ومظهر يكادان يكونان ملموسان.

وما يساهم في ذلك التربية السياسية للشعب وهذا يتعلق أيضاً بسيادة الشعب في إطار البلدية. فكل فرد أميركي يبدي تعلقا ببلديته لأنها قوية ومستقلة، ويعنى بشؤونها لأنه يسهم بإدارتها. وهي محط طموحه وقبلة مستقبله، كما يشعر بأنه معني بكل كبيرة وصغيرة في الحياة البلدية.

هناك من يدافع عن الحكم المركزي، كما هي الحال في بلادنا؛ في أن السلطة الحكومية تدير شؤون الوحدات أفضل مما تستطيع هذه أن تدير شؤونها بنفسها: قد يكون هذا الزعم صحيحاً إذا كانت السلطة المركزية مستنيرة والوحدات المحلية جاهلة. وإذا كانت السلطة المركزية ناشطة والوحدات المحلية متقاعسة. وإذا كان دأب السلطة المركزية العمل ودأب الوحدات المحلية الانصياع. توكفيل يعتقد انه ذا كان الشعب مستنيراً، متيقظاً مدركاً مصالحه ومعتاداً على التنبه إليها كما هي حاله في أميركا. يكون أقدر من سلطة الحكومة على توليد الرخاء الاجتماعي. وهو يقر بصعوبة تعيين الوسيلة اليقينية التي من شانها أن توقظ شعبا غافلا كي تقوم بإقناعه أن واجبه يحتم عليه الاهتمام بشؤونه.

لكن ذلك لا يمنعه من التأكيد على أنه إذا ما تنطحت الإدارة المركزية للحلول تماماً محل إسهام المعنيين المباشرين الطوعي، فإنها بذلك تخطئ خطأ كبيراً. إذ لا يسع سلطة مركزية، مهما بلغ شأو استنارتها وعلمها، أن تلمّ وحدها بجميع جوانب الحياة التفصيلية لأمة كبيرة... السلطة المركزية بارعة في المنع وليس في الفعل.

غالبا ما لا يلحظ مواطننا في شخص الموظف سوى جانب القوة. يقترب منه خائفا متذللاً. أما الأميركي فيلحظ جانب القانون ويعرف أنه هنا لخدمته. لذا يمكن القول ان الإنسان في أميركا لا يطيع الإنسان مطلقا بل يطيع العدالة أو القانون.

وهو واثق كل الثقة، من قواه الخاصة التي يرى أنها كافية في حد ذاتها للاتيان بأي عمل. فاذا قيض لأحد الأفراد أن يضع خططا لمشروع ما، لن تراوده يوما فكرة اللجوء إلى السلطات العامة لطلب معونتها حتى لو كان مشروعه له صلة مباشرة بالصالح العام. بل يعرض خطته ويتطوع لتنفيذها ويدعو قوى فردية أخرى لتقدم يد العون، ويكافح، قلباً وقالبا لتجاوز العقبات.

مما لا شك فيه أن حصيلة عمله لا تكون، في الاغلب، أفضل مما قد تنجزه السلطة العامة لو تولت هي المشروع. ولكن على المدى البعيد، لا بد من أن الحصيلة العامة للمشروعات الفردية كافة ستفوق، بأشواط، على ما قد يتاح للحكومة أن تنجزه. والسلطة الادارية هي على كل حال في المتناول لمن يريدها لذا لا تثير حسدا أو كراهية. وعندما تتدخل لا تترك لشأنها من قبل المواطنين بل على العكس يبادرون فرادى إلى ارشادها حيثما يقتضي وإلى مساندتها في مسعاها ودعمها. إن تضافر عمل القوى الفردية والاجتماعية، معاً، غالبا ما يثمر إنجازاً قد تعجز عنه أشد الإدارات مركزية ونشاطاً.

إن حرية الاتحاد أو التجمع وطريقة استخدامها وتعدد التنظيمات الطوعية. يساهمان في الحفاظ على الحرية، مما يقوي الشعور بالولاء للوطن الذي ينتمي إليه.

في بلادنا يعتبر الفرد نفسه أشبه بمستوطن غير مكترث بمصير المكان الذي يقطنه، وهو قد لا يبالي بمصير بلدته وبأمن شارعه. وقد تطرأ أعظم التغيرات على بلده من دون أن يسهم، أقل الاسهام، بها؛ وقد لا يدرك بوضوح حقيقة ما جرى ويجري.. فيحسب ان هذه الأمور لا تعنيه في وجه من الوجوه وانها لا تعني سوى كيان غريب يسمى الحكومة. فما يعنيه هو أن ينعم بهذه المنافع، شأن المنتفع الفاقد حس الملكية والغافل عن فكرة التحسن والتحسين. وقد يبلغ به عدم الاكتراث بشؤونه الخاصة هذا مبلغ الوقوف مكتوف الأيدي وإذا ما تعرض أمنه أو أمن

أولاده لأي تهديد، مترقبا قدوم الأمة بأسرها لنجدته بدل أن يبادر هو إلى اجتناب الخطر.

ويعتبر توكفيل ان الامم التي تبلغ هذا الوضع ينبغي أن تجري التعديل على شرائعها واعرافها والا هلكت: إذ يغدو من فيها رعايا لا مواطنين.

لا يتوقف على القوانين إحياء المعتقدات التي تخبو نارها: ولكن يتوقف على القوانين حثها الناس على الالتفات إلى مصير بلدهم. يتوقف على القوانين أن تنبه وأن ترعى فطرة حب الوطن الغامضة التي لا تفارق أفئدة البشر؛ وأن تحيله، عبر وصله بخواطر وأهواء وعادات كل يوم، إلى شعور عقلاني ودائم.

أما ما يثير الإعجاب في أميركا فلا يكمن في النتائج الادارية لنظام اللامركزية الادارية بل في نتائجه السياسية:فالوطن حاضر في المشاعر والاذهان أينما حللت. إنه موضوع اهتمام الناس بدءا بالبلدة وانتهاء بالاتحاد كله. يتشبث المواطن بمصالح بلده كما يتشبث بمصالحه الخاصة وينهل من مجد أمته مجداً ويفاخر بكل فوز لها لشعوره بأن فوزها صنيع يديه فيزداد زهواً. يغتبط للرخاء العميم الذي يحظى منه بنصيب، وشعوره تجاه وطنه مماثل لما يشعره تجاه أسرته وحتى تطلعه إلى الذود عن مصالح بلده واندفاعه في هذا السبيل إنما ينطوي على شكل من أشكال الأنانية، إلى شكل من أشكال التورط الشخصي. فلنتعلم من المواطن الأميركي ونجعل من الوطن عائلتنا وطائفتنا بدل مذاهبنا وعشائرنا.

وهكذا نرى أن حب الوطن يحتاج إلى مواطن لديه إمكانية ممارسة سلطة سياسية على مستوى البلديات وحكومة تعمل على زيادة ربطه بوطنه عبر قوانين تدعم هذا التوجه وتحبذه. فالديموقراطية سيرورة دائمة وبناء مستمر ولن نجدها معلبة وجاهزة للاستهلاك مثل وجبة سريعة نشتريها، بل علينا بذل الجهد المتواصل لإرسائها وتدعيمها.

حب الموت حب الحياة

كثر الحديث عن ثقافة الموت وثقافة الحياة. وأدرج النقاش في خضم السجال الداخلي الدائر والمعبّر عن صراع سياسي يتخذ أوجهاً عدة. وقامت قوى 14 آذار بحملتها الشهيرة التي سمّيت "أحب الحياة" في حركة رفض لجعل لبنان مقاوماً أبدياً

يحل محل الدول العربية مجتمعة لتحرير فلسطين وصولاً إلى تحرير الأمة بأجمعها بحيث بدا للبعض ان هذا يصبح عندها نوع من أيديولوجيا تدافع عن الموت من أجل الموت وتمجّد العنف الذي يصبح تمجيدا للعنف بما هو عليه.

ولقد ذهب النقاش بعيداً وتم التشديد على وجود ثقافتين متعارضتين واحدة تمجّد الموت وأخرى تمجد الحياة.. وكان هذا مجال إنقسام إضافي للمجتمع اللبناني المتعدد الإنقسامات أصلاً. وفي هذا السياق حصل نقاش بيني وبين صديق اعتدت من خلال نقاشي معه على رصد مزاج المعارضة أو قوى 8 آذار ومواقف أوساطها عامة؛ جاء منذ فترة حاملا ديوان الحماسة عند العرب وفيه قصائد لأبـي تمام والمتنبـي وعنترة وآخرين من شعراء الجاهلية وما بعدها. مدافعاً عن فكرة حب الموت ومعتقداً أننا فطرنا على هذا وأن من المضحك الدفاع عن حب الحياة، مستشهداً بأبيات عديدة تمجّد الموت بتعابير التاريخ القديم، لكنه في الحقيقة ليس سوى تمجيد للقتل وللعنف وتشجيع على العدوان وتلذذ بتعذيب الآخر وإدمائه بتعابيرنا المعاصرة، من مثل:

لـو كنت من مازن لم تستبح إبلي — بـنوا اللقيطة من ذهل بين شيبانا

لا يـسألون أخـاهم حين يندبهم — للمكـرمات علـى ما جاء برهانا

قـوم إذا الـشر أبدى ناجذيه لهم — طـاروا إلـيه زرافـات ووحدانا

أو

يـرى المـوت في الهـيجا — جـنى الـنحل في الفـم

أو

يقرّب حب الموت آجالنا لنا — وتكرهه آجالهم فتطول

ناهيك عن بعض الشعر الذي يفسّر لنا الخلفية للكثير من الأعمال التي يقوم بها بعض العرب والمسلمين من الإرهابيين:

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة — ويـستحلّ دم الحجـاج في الحرم

نلاحظ هنا كيف كان إنسان الجاهلية متمسكاً بهذه القيم، ولكن تمجيد الموت هذا المرادف لتمجيد العنف والحرب والقتال هو موقف تشترك فيه جميع

الشعوب القديمة وليس العرب وحدهم وما الياذة هوميروس سوى المثال الأمثل على باراديغم تمجيد الحروب هذا وجعلها أفضل نشاط بشري.

قال صديقي ونبرته المفترضة "تسامحية" تجعله راضياً عن نفسه، وكمن يقوم بتضحية كبيرة: كنت أريد ان اكتب عن مهزلة "حب الحياة" والحملة التي طلعت بها قوى 14 آذار، لكني لم أرد ان اثقل عليهم وأظهر مدى هزالهم!! وكأن حب الحياة تعني له النذالة والضعف بعينهما.

لماذا سألته؟ أكتب ما تريد ما المانع؟ أليست حرية الرأي محفوظة للجميع؟ والسجالات التي نسمعها يومياً تتخطى الموقف والتعبير عن الرأي إلى السباب والشتيمة، فما أحلى النقاش الفكري الجدي والرزين.

وحقيقة كنت أفضّل لو انه كتب يمجد الموت والعنف ويسخر من شعارات حب الحياة ربما ساعدني ذلك أكثر لفهم سبب اعتقاد هذا الصديق وصحبه ان الموت العنيف هدف للعيش ولفسّر لي سبب عيشهم على أفكار ومشاعر وآراء وحساسية فكرية لشعراء وأقوام عاشوا منذ أكثر من ألف أو ألف و500 عام، بحيث يعيشونها وكأنها راهنة اليوم وقادرة على "إفحام" أصحاب وجهات نظر مختلفة ومخالفة لما يرونه.

لماذا يجد وأحدهم أن حملة حب الحياة هذه والتي أتت في سياق رفض العنف والاغتيالات وخوفا من الاقتتال الداخلي ومن أجل وقف إمكانية الحرب الأهلية في لبنان سخيفة ومضحكة ولا تستحق العناء؟ لماذا يعيش العربـــي ملتصقاً بتاريخه وكأنه لا يزال هناك على ظهر ناقةً؟ مع فارق أنه لا يبارح تلفزيونه والفضائيات.

نسأل أنفسنا دائماً: ما الذي يجعلنا متخلفين عن ركب التقدم والتطور؟ لماذا نحن في أسفل الجداول والاحصاءات على صعيد الانجازات سواء اكانت اقتصادية أو فكرية أو حتى زراعية؟ لماذا لا تنطبق علينا شروط مؤشرات النمو المتعارف عليها؟ لماذا استطاعت اليابان التي كانت في نفس مستوى النمو الذي وصلت إليه مصر، وكان الرهان لبعض المفكرين حول من سوف يخطو الخطوات الحاسمة في طريق النمو قبل الآخر: اليابان أو مصر؟ والنتيجة هي كما نرى ونعاين، لم يعد هناك مجال لأي مقارنة بين البلدين بعد أقل من مائة عام!!

لماذا لم نستوعب بعد أن الغرب لم يتطور وينمو إلا عندما انفصل عن تاريخه، وهذا لا يعني أنه انسلخ عنه أو رفضه، لكن فقط اتخذ منه مسافة معينة وتعامل معه كتاريخ قابل للنقد والمغايرة وللمعاينة وللدرس!!

لماذا هذا العجز عن رصد التغيرات الكبرى التي حصلت على مستوى العالم إنطلاقاً من الحرب العالمية الثانية ومنذ أن وعى الغربي الهزيمة الأخلاقية التي لحقت به بسبب هذه الحرب وبسبب القنبلة الذرية التي أحدثت "من موت الأعداء" ما كان رقص له قلب شاعرنا العربي التقليدي فرحاً! ولماذا حصلت إدانة شاملة لحرب فييتنام؟ وتحصل الآن نفس الإدانة لحرب العراق من قبل هذه الشعوب الغربية المتفوقة نفسها؟ لماذا تُطالب أكبر قوة في العالم بالانسحاب وإيقاف هذه الحرب المدمرة؟

هذه الحروب، التي يتجرأ الإنسان الغربي على رفضها عبر إرساء مؤسسات للسلم ولمناهضة العنف، كانت في أساس استعادة التساؤل حول القيم التقليدية، الذكورية والبطريركية خاصة والتي تمجد القوة والعدوان والعنف، وتتسبب بجعل الموت منظماً وعقلانياً وممارساً ضد المدنيين بشكل إبادي.

لقد شكلت الحرب العالمية الثانية خيانة لنموذج الديموقراطية الغربية ولمبادئها، ووعي الإنسان الغربي لمدى الكارثة الإنسانية التي تهدد البشرية إذا ما استمر في هذه الممارسات، لذلك حصل نوع من إلغاء لكل الأفكار المتعلقة بالعنف والعرقية والتمييز وبما فيها مكانة المرأة. ولقد وعت بعض الشرائح المثقفة في العالم الثالث هذا الأمر، لكن يبدو ان مزاج العالم العربي العام لا يزال خارج هذا السياق. لا يزال تحت وطأة الهزائم المتلاحقة ويريد الثأر بأي ثمن ولو على حساب تطوره نفسه. لذا لم يصل عالمنا بعد للقدرة على وضع قيم العنف موضع تساؤل، ولم يقم بقفزة تأخذه نحو عداء الحرب والتنافس من أجل الحفاظ على الحياة.

لا يزال الكثير من المثقفين العرب يصرون على تمجيد العنف والموت ويعيشون الوصف الذي وضعه بوتول لنظرة الشعوب التقليدية للحرب:" *إنها أروع الظاهرات الاجتماعية بلا خلاف*". وهي كانت موضع تمجيد عند الأديان والشعوب المختلفة. لكن ذلك لا يعني أن علينا ان نستمر في تمجيدها إلى الأبد. لم يعد العنف والتعذيب الذي يرافقه مقبولين إنطلاقاً من 1830-1848، سنوات بدء

اختفاء التعذيب بحسب فوكو. ويعتبر الباحثون عامة أن نهايات القرن الثامن عشر عرفت مشاريع الإصلاح المتعلقة بالسجن بشكل متتابع ومتزامن في العديد من الأقطار الأوروبية وأميركا؛ وذلك مع بروز التيار الإنساني، والذي يعتبر كلافال أنه يولد في اللحظة التي يُعتبر فيها العهد القديم كمكان بعيد ومختلف حيث من الممكن إعتراف نماذجه ولكن من دون عيشها وكأنها راهنة. ذلك يعني ضمناً النظر إلى التجربة المعاشة الآن كمغايرة عن تجارب الحقب السابقة وليست مجرد امتداد لها.

الجديد الذي حملته هذه المشاريع إذن، كان الاشمئزاز من التعذيب، ذلك أن مشهد التنكيل بالمحكوم لم يعد مقبولاً، بعد أن كان يشكل مصدر لذة عظيمة ولقرون طويلة، منذ روما التي كانت تجعل المحكومين أو المجرمين يتصارعون حتى الموت.

إذن منذ منتصف القرن التاسع عشر لم يعد التعذيب أو العقاب الجسدي علامة على وجود العدالة، صار علامة على عنف العدالة نفسها: إنها تقتل وتضرب وتعذب أيضاً. ذلك يعني أن مشهد التعذيب اتسع وصار عنفاً لم يعد مقتصراً على المحكوم فقط، صار يلف الجلاد والضحية، وصار تنفيذ حكم الإعدام مثلاً يشكّل عاراً إضافياً تخشى العدالة نفسها من إظهاره على الملأ.

كم يتناقض هذا كله تماماً مع مشاعر التشفي لشاعرنا التقليدي عنترة:

ومدجج كره الكماة نزاله	**لا ممعن هربا ولا مستسلم**
جادت له كفي بعاجل طعنة	**بمثقف صدق الكعوب مقوم**
فشكت بالرمح الاصم ثيابه	**ليس الكريم على القنا بمحرم**
وتركته جزر السباع ينشنه	**يقضمن حسن بنانه والمعصم**

إنتهت مشاهد العنف التي شكلت الذاكرة الإنسانية، والتي طالما التجأت إلى السيطرة على الغرائز الشعبوية من خلال القسوة والغلظة، إنتهت إلى جعل الإنسان يحتفظ في ذاكرته بخمس أو ست "لا أريد"، أعطى الإنسان بفضلها وعده بالإستفادة من محاسن المجتمع، وانتهى الأمر بأن أسترد "العقل"، بفضل هذه الذاكرة وسيطر جدياً على شغفه وغرائزه وغلظته.

وذلك ما يعبّر عن حساسية جديدة تبرز ضد امتهان الجسد الإنساني والتنكيل به. من هنا ليس علينا الشعور بالحرج من الجهر بتغير نظرتنا إلى العنف وإلى الحياة وإلى الحب، وليس نقصا أن ينادي عرب ولبنانيون بحب الحياة بدل حب الموت؛ ان شعار الستينات المفاجيء والذي أدهش العالم:

Make love don't make war

لم يكن مثار أي سخرية و لم يعد مدعاة خجل، انه تعبير عن رفض البربرية والإحساس بالفرح والتشفي عند رؤية العنف الممارس على البشر وعن رفض التلذذ لعذابهم وألمهم. ولكن لا يفهم من هذا الكلام ان هذا يعني عدم الدفاع عن النفس وعدم إدانة عنف ماكينة الحرب الإسرائيلية الغاشمة، لكن أن نقول أننا كلبنانيين نحب الحياة ولا نريد الحرب الأهلية فهو أمر لا يجعلنا نشعر بنقيصة بل بالفخر.

* * *

قراءة سوسيولوجية
لانتفاضة 14 آذار 2005[1]

أثار إغتيال الحريري غضباً شعبياً كبيراً وحقيقياً انبثقت عنه حركة توحيدية تريد الوصول إلى الحقيقة وعاش الجميع لحظات وحدة وطنية قوية وحقيقية. فلماذا التف اللبنانيون حول مطلب معرفة الحقيقة بالرغم من كل التباينات التي كانت تطبع موقفهم من الحريري؟ ما الذي حرك اللبنانيين بهذه الكثافة؟

سألت طلابـــي في علم النفس سنة رابعة عن مشاعرهم تجاه ما حدث، ومن بين 35 طالبة وطالب (أربعة لم يجيبوا) إذا من بين 31 اجابة كان هناك 10 تقول أنها أصيبت بالصدمة، و10 عبّرت عن شعور بالخوف وأن الوضع مخيف، وعدم تصديق وردت 3 مرات، وهناك شعور بالرعب وردت مرتين، والقلق مرتين، وهناك قرف واكتئاب، وشعور بأن الحرب قريبة وخوف من مشاكل وخسارة وحصول شيء عظيم، وشعور بالتهديد وعدم توقع تحسنٍ في الوضع، وشعور بالعودة إلى الوراء، إلى الحرب وعنفها بعد أن اطمأنت إلى وجود أمن في لبنان.

في النقاشات العامة، هناك من اعتبر الاغتيال مثل الصاعق trigger.

كان الوضع في البلد قد وصل إلى درجة من الانحلال والفساد والتجبر وتحكّم الاستخبارات غير مسبوقة وغير مقبولة في بلد يتمتع بحرية صحافية نسبية وله ماض ديموقراطي لا بأس به. ذلك كله هيأ للانتفاضة، التي أتاحت هذه المرة بروز شعور إيجابـــي عُبّر عنه في كيفية استجابة الناس العفوية للمشاركة وفي إرادتهم الواضحة للتخلص من الشعور الطائفي، فكان التكاتف بين مسلمين ومسيحيين أحد معالم التحرك الجديد أي عكس ما كانت بدأت به تباشير الحرب الأهلية. ان ما حصل هو من العمق والاتساع بحيث ان حدثا مماثلاً قد لا يتكرر في حياة الشعوب إلا مرة كل مئة عام أو أكثر.

---

(1) قضايا النهار، 2006/04/09.

لقد اعتاد اللبنانيون على الاغتيالات طوال سنوات الحرب وتعاملوا معها مثل قدر لا رادّ له، وربما راهن منفذو الاغتيال على هذا العامل، أي القبول والإذعان. لكن الاستجابة هذه المرة فاقت أي توقع، فما هو الأمر الذي اختلف في هذا الاغتيال تحديداً؟

المحرك العميق

وعندما نسأل أنفسنا عن القوى المحركة للانتفاضة التي حدثت، يتهيأ لي أن فكرة الأضحية أو بالأحرى الأنتي- أضحية (sacrifice) تقدم هنا ربما بعض التفسير، فعملية الاغتيال هذه لعبت الدور الذي يؤديه "العنف المؤسس" بحسب تعابير رينيه جيرار الذي يشير في كتابه (العنف والمقدس) إلى الدور الأساسي الذي يلعبه هذا "العنف المؤسس" (Violence Fondatrice) و"الضحية المحرقة" (Victime émissaire) اللذان أجد أنهما مفهومان جوهريان لفهم رد الفعل المدوي.

لقد حدث هنا أن ضحية واحدة أمكنها أن تحتل مكان كل الضحايا الأخرى، ليس المحتملة بل التي حصلت فعلاً. وكأن القتلة قاموا باختيار وبتقديم الأضحية المحرقة للبنانيين لمساعدتهم على الخروج من مأزقهم. لكنهم اختاروا الشخص الذي كان يشكل خشبة الخلاص لهؤلاء اللبنانيين وهو كان ربما آخر شخص يتمنون التضحية به. وربما تم اختياره لأنه من نوع الضحايا الذين لا يتسببون بتصاعد مشاعر الثأر بسبب مدينيته وكونه رجل دولة ورجل سياسة ولا ينتمي إلى منطق العشائر والقبائل والطوائف. لكن ربما هذا بالذات ما تسبب بانتفاض اللبنانيين. انتفضوا يريدون معرفة من قام بهذه الجريمة وقدّم عنهم بالاكراه - هذه الأضحية/المقدسة؟

من هنا صار اسم مكان الدفن وبشكل عفوي "الضريح" بما يحمل ذلك من دلالة مقدسة.

وإذا كان من الإجرام قتل الضحية لأنها مقدسة، لكن الضحية لا تصبح مقدسة إلا عندما تقتل. لولا وجود قرابة بين الضحية والقتل لما كان هناك إمكان لهذا التبادل بينهما.

من هنا نجد أن من خطّط جريمة الاغتيال ونفذّها تسبّب بعكس ما كان يبتغيه تماماً. وهكذا تعامل اللبنانيون مع اغتيال الحريري كأنه تقديم أضحية لفداء لبنان.

ووجد اللبنانيون أنفسهم أمام واجب الحفاظ على هذا البلد الذي افتدي بهذا الثمن الفادح.

وهكذا تحول "السلف ماد مان" لكي يصبح التجسيد الحي والفاعل لأسطورتنا المؤسسة البسيطة التي كنا نتداولها ببعض الهزء، كما يحصل مع الأساطير عادة قبل أن تتجسد. لقد أعاد إحياء إحدى أساطيرنا الفاعلة، سواء أقبلنا بذلك أم لا، أهزئنا أم لا، أسطورة طائر الفينيق الذي ينهض من رماده في كل مرة.

فأوروبا لم تعرف ابداً مثل هذه الخيانة لنماذجها ومثالاتها والتي قامت ببنائها خلال قرنين. لذا وعى من بقي على قيد الحياة بعد تلك الحرب مدى اتساع الكارثة الإنسانية والغى معظم هؤلاء من وعيهم الأفكار المتعلقة بالعرقية وبالتمييز والعنف.

صناعة التاريخ وانبعاث الوطنية اللبنانية الديموقراطية

هناك شعور بأن الحشود التي اجتاحت الساحات ومن اعتصموا في ساحة الشهداء يساهمون في صناعة التاريخ حقيقة فلا يمكن أن لا نجمع بين الارتقاء السريع لهذا الحاضر التاريخي والمكون من مشاعر المشاركة الجماهيرية في المصير الوطني مع الواقع التاريخي والسياسي. التاريخ يصنع نفسه حالياً بأصوات الفاعلين على شاشات التلفزة. الحدث هو أكبر محرك للتاريخ الآن، وفي حين كان الكلام هو المحرك في أيار 68 عبر مهرجان الكلام الفاعل، كان الفعل والشعارات والعلم اللبناني المحركة والفاعلة في انتفاضة عام 2005. وصرنا عندما نشاهد تلفزيون "المستقبل" (التابع لمؤسسات الحريري) تبرز امام أعيننا كثرة الرموز والاشارات التي ساد الظن طويلاً انها مارونية أو مسيحية حصراً.

فمن أغاني فيروز الفولكلورية إلى العلم والأرزة إلى عناق الصليب والقرآن... كلها جرعات ذات وطنية فولكلورية عالية. لقد فجّر اغتيال الحريري الوطنية اللبنانية التي بدا في لحظة انها تبددت؛ فكان ان حصل تعميم لأيديولوجية كانت جزئية وحظيت تقليدياً بقدر من الهيمنة في الاعلام والتعليم والثقافة. هناك تلاق ووحدة وطنية مستجدة على هذا الصعيد. ومن اللافت والمؤسف أن تحرير الجنوب عام 2000 لم يحظَ بلحظات احتفالية مؤسسة كما حصل بعد اغتيال الحريري.

عن الجمهور والشعارات

يظل السؤال حول تشابه الجمهورين، جمهور ساحة الشهداء وجمهور ساحة رياض الصلح، أو إختلافهما قائماً (ما يعرف بـــ 14 و8 آذار). أتساءل في البداية هل تمت ملاحظة الاختلاف الشديد في كيفية تشكل "الشارع" الجديد الذي برز إثر اغتيال الشهيد الحريري من قوى شديدة التنوع وذات تمثيلية عالية لمجمل الفئات اللبنانية التي لم تكن ممن يحسبون على "الشوارع" من قبل، بينما تتحرك قوى 8 آذار بحسب أوامر حزبية والتزام عقائدي جامد؟

بحسب استطلاع "ستاتيكو" حول جمهور المعتصمين في ساحة الشهداء:

يبدو أن معظم المشاركين هم من المستقلين وغير المنتمين إلى الأحزاب، يتوزعون طائفياً بشكل متقارب يقوّمون تجربتهم على انها سمحت باعادة تقويم ذاتي ويرون انها يمكن أن تشكل مانعا امام الاقتسام واعادة التقاتل ويرون ان الاعتصام يؤثر على قرارات الزعماء.

ونلاحظ أن من يرون أن التلاقي واقعي يشكلون ما نسبته 74.6% وهناك 13.7% يبدون حذرهم و6.3% يرون انه مبالغ فيه، ولاجواب 5.4 %. تجدر الإشارة إلى أن 65.9 % من المستجوبين يتواجدون بشكل دائم و24.4 % بصورة متقطعة و9.8% زوار. (راجع الجدولين المرفقين).

تبدو الوحدة الوطنية المطلب الأساسي والجوهري لهذا الجمهور، كما ان معارضة النظام الأمني السياسي الذي كان سائدا تبلغ نسبة 70% من المستجوبين. بالاضافة إلى أن المواضيع المتداولة تشير إلى بحث مواضيع تأسيسية تتناول إعادة صياغة العلاقة مع سوريا وبحث مسألة الإنتماء السياسي والطائفي ووضعهما موضع تساؤل. واهم مخاوفهم استمرار الأعمال المخلة بالأمن وعدم اكتمال الانسحاب السوري وعدم الكشف عن الحقيقة.

يبدو إذن أن تطلعات ومطالب هذا الجمهور المختلط على درجة من النضج والوعي والإحساس بالمسؤولية تجاه الوطن ومستقبله مع إرادة قوية في استعادة الوحدة الوطنية.

وهنا لا بد من ملاحظة أن الجمهور الآخر، جمهور 8 آذار، تنطق باسمه فاعليات حزبية تقليدية وعبر الشعارات السابقة نفسها وبقبول تام منه، وأن هناك

نوعاً من الجمود على الصعيد الأيديولوجي يطبع حركته بشكل عام. بينما يسائل جمهور 14 آذار قياداته دائماً ويأخذ مسافة منها وينتقدها.

السؤال الآخر هو هل يمكن مقارنة الجمهور المدني المختلط والمتنوع والسلمي الذي نـــزل وتشكل بطريقة غير مسبوقة في تاريخنا الراهن وبشكل عفوي وديموقراطي ونابذ للعنف بكل وعي، هل يمكن مقارنته إذن مع الجمهور الذي تحرك في تظاهرة رياض الصلح وفقاً لأوامر قياداته الحزبية وبنفس أحادي وفيه قدر من المنافسة للجمهور الآخر؟

إن جموع الجماهير المتظاهرة في مأتم الحريري وتلك التي تلت تشكلت بطريقة فردية، فكل فرد شارك في مثل هذه التحركات قام بذلك إنطلاقاً من حركة فردية وجرأة واقتناع ذاتي ورفض، خاصة رفض القبول بالواقع المهين من أجل إكتساب وعي الحاضر والتأثير في الواقع. وبما انها سيرورة تحصل لمجموعات كاملة من اللبنانيين هذا يجعلها مختلطة مع مفهوم القطيع ويجعل الظاهرة عصية على الفهم.

ان ما يعوّق فهم ما يحصل في سياق الانتفاضة انه يحصل على مستوى الفرد لكن في سياق جماعي عام، وفي هذا كل جدة التغيير الجذري الحاصل والذي يربك بعض المثقفين اللبنانيين والعرب. إن في المشاركة الواعية في سيرورة الرفض الجماعية هذه تعبيراً عن الابتعاد عن غريزة الخوف التي تحرص الأنظمة المستبدة على زرعها في النفوس وهي قد نجحت لفترة في ذلك. لكن عملية التخلص الحاصلة هذه من الخوف تولد الوعي. الوعي الذي يقلق البعض. ففي الإشتراك الواعي والقرار الفردي في التظاهر ابتعاد عن الطمأنينة التي يوفرها الإنتماء الطائفي والجمعي الصافي المطمئن. إن الفرد في هذا الجمهور يحتمل حريته التي تعبّر عن مسؤولية مواطنية، وتحميل ما نتج عنها من وعي شقي.

ما الذي يجمع بين الجمهورين؟

لا يعني ذلك عدم وجود تلاقٍ بين الجمهورين: بعدما صار العلم اللبناني هو الرمز المعلن لأي تظاهرة، نلاحظ أن طرفي التحرك يطالبان بالحرية والسيادة والاستقلال، ولهما نظرة متقاربة إلى النظام القائم تتعدى مواقفهما من الوجود السوري في لبنان. حتى هذا الوجود نجد أنه غير مقبول عند فئات متعددة من

جمهور رياض الصلح (8 آذار). كذلك هو مشترك الطموح إلى وطن حقيقي وحكم ديموقراطي متعدد يكون فيه اللبنانيون مواطنين على قدم المساواة في الحقوق والواجبات وفي إطار من العدالة الاجتماعية. ربما يمكن الاستنتاج أن طموحات الطرفين الحقيقية متقاربة وإن اختلف التعبير عنها.

ربما صار ما تقدمه الديموقرطيات الليبرالية التي تتميز بتحديد السلطة وضمان حقوق الأفراد من المسلمات. فهل هناك من يعترض على الاعتراف بأن التقدم الحاصل وغير القابل للنقض والمتمثل بحماية الأفراد من قبل دولة القانون هي فكرة قيّمة وتجعل من هذا التطور مطلباً ضرورياً على مستوى الإنسانية ككل. يعي جمهور الشبيبة اللبناني ان الخضوع لسلطة القانون وخاصة ضمان حقوق الإنسان لم تعد قابلة للمساومة؛ وهي ليست متعلقة فقط بالأشخاص ذوي الامتيازات بل تنطبق على الجميع، وتسري على جميع الرجال والنساء.

ومن هنا لم يعد هناك أي سبب يبرر الاغتيال أو الاستعباد أو القمع الأيديولجي، وتعتدي هذه الافعال في أي مكان مورست فيه على الأمن والحرية والوعي أو الضمير. وهذا ما تطالب به معظم فئات الشباب اللبناني، من هنا الانتفاضة ضد هذا الاغتيال.

كذلك لم تعد فكرة العالمثالثية التي حافظت على عبادة الخصوصيات الإتنية ما منع محاسبة الأنظمة السياسية للبلدان النامية بحسب المعايير الديموقراطية، لم تعد مقبولة. إن الديموقراطية نظام حكم ملائم ومطلوب من غالبية اللبنانيين وليس هناك من خصوصيات تمنع تطبيقها.

ماذا عن المستقبل؟

كثيرا ما تتردد فكرة أننا بلد قائم على الوفاق ولا أحد يمكنه أن يلغي احداً، يعبر ذلك عن التفكير في إطار قبلي وتصارعي حربي، ففي البلدان الديموقراطية لا ضرورة للتأكيد على أن ليس بإمكان أحد إلغاء الآخر، إن أي إلغاء للآخر لا يتم الا باستخدام العنف.

لكن آن لنا أن نقبل بتمثيل جميع مكونات الشعب بشكل ديموقراطي ومن طريق صناديق الاقتراع ولتنوجد تيارات مختلفة، أقلية وأكثرية تحكم مداورة من

دون الاضطرار إلى التهديد بالالغاء أو التخويف منه. وما يدعم هذه الوجهة العمل على بناء مجتمع ديموقراطي يتمتع فيه المواطنون بحقوق متساوية عبر تطبيق قوانين عادلة. لكن في لبنان هناك بعض العوائق أمام تحقيق مواطنية كاملة والعائق الأساسي هو مسألة الطائفية. ففي وقت ينص الدستور اللبناني على أن اللبنانيين متساوون أمام القانون ويتمتعون بالحقوق السياسية والمدنية من دون أي تمييز، ومتساوون في الواجبات أيضاً، ما يفترض التساوي في المواطنة بحسب النص، نجد أن اللبنانيين يعاملون في المقابل بصفتهم أعضاء في طوائف تتمتع بحقوق سياسية مختلفة ومتفاوتة. ذلك أن الوصول إلى الوظائف العامة والادارية والسياسية يخضع لتوزيع طائفي... كذلك فإن قانون الانتخاب الموضوع لتنظيم توزيع مقاعد مجلس النواب بين مختلف الطوائف يجعل الأخيرة وسائط الزامية بين المواطن الفرد والمجتمع والدولة والنظام السياسي. ويؤدي هذا الأمر إلى إعادة انتاج العلاقات التقليدية على حساب الفرد والمواطنة. فاذا كانت كلمة مواطن أصبحت في صلب الدستور اللبناني، وفي صلب التداول القانوني والسياسي في لبنان باعتبارها تحيل إلى المفهوم الذي أشرنا إليه سابقاً، أي ذاك الذي انبنى تاريخياً في إطار دولة القانون في القرن العشرين، وتطور في جدلية دائمة مع المجتمع المدني، فإن هذا المفهوم لا يزال بحاجة إلى إعادة بلورة وتطوير.

والمشكلة ليست في تعدد الإنتماءات أو الولاءات، فهذا أمر مقبول في الديموقراطيات الحديثة لكن المشكلة تكمن في الصراع الذي قد ينشأ بينها في ظل ديموقراطية غير مكتملة، وفي ظل نظام حكم كان يحاول إستغلال هذه التناقضات واظهارها على الها غير قابلة للحل أو للتعايش. وقد قام الشباب الذين تواجدوا في "ساحة الحرية" إنطلاقاً من 14 آذار بتمارين على حل النــزاعات مظهرين أن تعدد الهويات أمر طبيعي المهم أن نعيها ونقبل بها ونجعلها جميعها تحت سقف الولاء الأولي والتام للدولة، وهذا ما تعنيه المواطنية.

ربما حان الوقت لإنجاز التطور المطلوب من القدرة على المواءمة بين الإنتماء للأشكال التقليدية العشائرية والعائلية والدينية أو العرقية إلى الشكل الجديد للإنتماء للوطن باعتباره المكان الملائم لتحقيق آمال مواطنيه بشكل عادل ومتساو.

دور مؤسسات المجتمع المدني

إن ما يسمح بتعميق فكرة المواطنة وقيمها تعزيز مؤسسات المجتمع المدني والمساهمة في بلورتها وتفعيلها، ومن المعلوم أن البدايات الأولى لمفهوم المجتمع المدني ارتبطت عملياً بالديموقراطية وحقوق الإنسان في مواجهة أشكال التقييد التي تفرضها السلطة المستبدة.

والمجتمع المدني يتكون من مجموع التنظيمات والتشكيلات والهيئات الاجتماعية غير الرسمية. وأهم ما تستند إليه مقومات مؤسسات المجتمع المدني: انخراط المشاركين في هذه التشكيلات والتنظيمات في نشاطات وأعمال ومشاريع تتسم بطابعها إلى الوطن الواحد. ومن هذا المنطلق تعبر عن الإنسان ككائن له دور فاعل في إدارة الشأن العام.

ومن هنا على المواطن، إكتساب الفضيلة والعمل وفق المبادئ الأساسية الأخرى: "لا أحد فوق القانون، ليس باستطاعة أحد أن يحصّل العدالة بنفسه، ليس باستطاعة أحد أن يكون قاضياً وطرفاً في الوقت نفسه". وهذا ما يسمح بتعزيز التنمية وترسيخ مقومات الوطن والمواطنية.

كما يعني مساهمة التشكيلات والتنظيمات المدنية بادارة الشأن العام ومراقبة السلطة والضغط عليها الأمر الذي يجعلها وسيطا أو أحد القنوات بين المجتمع والسلطة القائمة. ذلك أن ممارسة مثل هذه الحقوق هي الطريق إلى الديموقراطية وليس العكس، فالديموقراطية ليست هبة بل هي نتيجة لممارسة الحقوق[1]؛ فالحق هو مفهوم مدني حضاري، وهو مفهوم قانوني سياسي ونضالي. فلا وجود لحقوق خارج شرعية القوانين والأنظمة. وليس هناك من حقوق بعيداً عن المواطنية الفاعلة والضامنة للمشاركة في مسارات اتخاذ القرار السياسي والقانوني.

فالمواطنية تعني الممارسة الكاملة للحقوق والواجبات المدنية والسياسية، ومن ضمنها المشاركة في وضع القوانين والقواعد والنظم التي ترعى هذه الحقوق، وبدون أي تمييز عرقي أو طائفي بين جميع البالغين الحاملين جنسية بلدهم.

---

(1) النهار، 2006/04/09.

الجدول (1)

الاعتصام يؤثر على قرارات الزعماء	تشكل التجربة مانعاً أمام التقاتل	أدى التلاقي إلى إعادة تقويم ذاتي	المهنة	التوزيع الطائفي	الإنتماء السياسي
65.4% نعم	61% نعم	67% نعم	46.8% طالب	48.8% مسيحي	61% مستقلون
18% قليلاً	22.9% ربما	15% قليلاً	42.4% يعمل	42.9% مسلم	39% حزبيون
16.6% كلا	16.1% كلا	18% كلا	1.1% عاطل	8.3% مختلف	

الجدول (2)

العناوين السياسية التي تشكل عامل اختلاف	أهم المخاوف	أهم المواضيع المتداولة بينهم
59% القرار 1559	70% استمرار النظام الأمني السياسي	72.7% الوحدة الوطنية
39% نزع سلاح "حزب الله"	64% أعمال مخلة بالأمن	44.9% مفهوم النظام السياسي
32.2% استقالة رئيس الجمهورية	29.3% إنقسام المعارضة	31.7% العلاقة مع سوريا
22% الإنماء السياسي	28.8% عدم الكشف عن الحقيقة	21.5% الإنتماء السياسي
15.5% اتفاق الطائف	26.3% عدم اكتمال الانسحاب السوري	19% الإنتماء الطائفي

* * *

مختلفون لكن لبنانيون
في أن تكون مواطناً[1]

تسير في الشارع، تنتقل بين الناس، وفي مختلف الأمكنة، فلا تسمع سوى الشكوى. ليست تلك المعتادة والتي نطلق عليها صفة "النق"، بل تلك المعبّرة عن قلق حقيقي مجسّد بنظرات تائهة وحيرة معلنة ولعنات للبلد والزمن وكل ما يحيطهما. المواطنون بلغوا درجة من اليأس والمعاناة غير مسبوقة رغم فداحة تاريخنا مع المعاناة. وصار الهرب من لبنان أفضل ما يمكن الحصول عليه.

ما الذي أوصلنا، ويوصلنا، إلى هنا؟ أي لعنة وأي تاريخ مثقل يسجن كل واحد منا في داخله ويجعله متقوقعا في حضن طائفته ومذهبه وعقائده الجامدة خائفا متوجساً من أن يسرق منه انتماؤه أو حريته أو كرامته؟

ما زلت أذكر حادثة تعرضت لها عندما كنت في السابعة من عمري، عندما سألتني معلمة الصف في مدرسة ذات طابع مذهبي غالبي معين، عن طائفتي، وهي كانت توجه السؤال نفسه إلى جميع بنات الصف بالطبع، فتقف الواحدة وتجيب بثقة، لكني لم أكن على مثل تلك الثقة إذ كنت أعي أنني أنتمي إلى مذهب مختلف عنهن وأنني أمثّل أقلية بينهن وأن إجابتي سوف تكون إشهاراً لاختلافي وربما سبباً غير مباشر لتغيّر نظرتهن إليّ أو لنبذي! وأنا لم أكن أريد أن أكون مختلفة عنهن ربما لشعور خفي ومضمر بأن نظرتهن إلى مذهبي المختلف فيها بعض التمييز الحامل لنوع من الاستعلاء. لذا جعلني توجسي من اختلافي أجيبها أنني لا أعرف ما هي طائفتي وأصررت على هذه الإجابة رغم استغرابها، فطائفتنا في هذا البلد تسبق اسمنا.

لكن هذا المشهد انطبع في مخيلتي وجعلني أعرف تماماً معنى الاختلاف المذهبي في لبنان ومعنى النظرة التي تدين الاختلاف أو تعامله كدونيّ وكأقلوي، وجعلني ذلك أعي أن توجيه السؤال بهذه الطريقة، وجمع المعلومات هذا، فيه الكثير من

(1) النهار، 2006/10/17.

التمييز الذي يقترب من العنصرية وهو أمر مؤذٍ للبنت الصغيرة التي كنتها ولو لم يكن مقصوداً.

متى استعدت هذه الحادثة؟ استعدتها في العام 2002 عندما عملت على تقرير المراهقة العربية[1] وقابلت شاباً مسيحياً من كلية التربية اخترته من بين الحالات التي ستدرس لكونه ينتمي إلى تيار القوات اللبنانية[2]. بدوره هذا الشاب لم يخف فقط من الاعتراف أمامي بانتمائه الحزبـــي لا بل شعرت خلال المقابلة بمدى القمع الذي يتعرض له والشعور المقلق نفسه بالاضطهاد والتمييز وبعدم القدرة على إظهار الاختلاف واشهاره للنتائج السلبية المشار إليها أعلاه التي قد تنتج عنه.

في لبنان نتبادل أدوار التمييز ودورات الغلبة والتفوق، وكل طائفة تمر بمرحلة تعتقد فيها انها أكثر تفوقاً من الأخرى وأكثر احقية بالاستئثار بالقرار لأنها متميزة ولأنها تنتمي إلى عالم آخر أفضل أو أطهر ويعطيها ذلك الشعور بالتميز عن بقية مواطنيها. وسوف أورد مثلين لاظهار معنى ما اقول: في العام 1990 اضطرتنا الظروف للسفر إلى مالطا بسبب ما عرف بـــ "حرب عون" وكانت ابنتي في صف البروفيه وكان عليها الانتقال من الدراسة بحسب النظام الفرنسي إلى النظام الانكليزي وبسبب من ذلك حصل نقاش بيننا وبين الام المسؤولة عن المدرسة التابعة للكنيسة الكاثوليكية عن المواد التي عليها اختيارها بحيث تسهل عليها النجاح في النظام الجديد تماما؛ وفكرنا ان الدين مادة سهلة الاستيعاب ويمكنها أن تدرسها وأشرنا بذلك، فنظرت إلينا الأم المسؤولة شزراً وقالت ما هي ديانتكم؟ هل أنتم موارنة؟ قلنا إننا مسلمون! قالت الأم: موارنة أو مسلمون الأمر سيان – ما دمنا غير كاثوليك! – الدين هنا مادة جدية فاختاروا مادة أخرى!!

ماذا سيكون شعور اللبناني الماروني لو أنه سمع هذا الكلام؟ أليس عزلاً له عن العالم والثقافة اللذين يشعره انتماؤه إليهما بالتفوق؟ ثم ألم نسمع جميعنا النوادر التي اطلقت بعدما هاجر المسيحيون اللبنانيون (اقصد العاديين منهم وليس طبقة المثقفين أو السياسيين) إلى فرنسا ظانين أنهم سوف يستقبلون كمواطنين فرنسيين

(1) صدر عن مركز دراسات كوثر في تونس، 2003.

(2) تم اختيار حينها حالات ممثلة لكل مكونات المجتمع اللبناني بما فيها الإنتماءات السياسية الأساسية المختلفة.

وكمنتمين إلى هذه الثقافة وتسببت لهم عاداتهم الثقافية اللبنانية بعدد من أنواع سوء التفاهم مع محيطهم وجيرتهم بحيث قيل ان فرنسية اضطرت مرة للجوء إلى الشرطة لكي تتخلص من "ضيافة جارتها اللبنانية لها بالقوة على القهوة"؟!!

وشعر المسيحيون حينها أن تمايزهم هو هنا في لبنان، اما هناك في فرنسا فهم عرب ولبنانيون، أي ينتمون إلى عالم آخر- وهذا صحيح بالمناسبة وطبيعي فهم كذلك فعلاً- أليس الأمر نفسه ينطبق على الشيعة الذين يذهبون إلى إيران ويكتشفون أيضاً انهم يعاملون كعرب وبنوع من التعالي!

وأكثر من عرف هذا الشعور هم شيعة العراق الذين هاجروا إلى إيران اثناء الحرب العراقية - الإيرانية وتعرضوا للعزل في مخيمات، وسنّت قوانين تمنع تسهيل زواجهم بإيرانيات وهذا كان موضع جدال في العام 2001 على ما اذكر. فلماذا لا يهاجر اللبنانيون الشيعة إلى إيران؟! لماذا الغرب وجهة الجميع؟!

وهذا الكلام ليس لتحريك مشاعر عنصرية أو شوفينية ولكن لكي أقول للبناني أن تمايزه وخصوصيته كلبناني ووجوده نفسه لا يُعترف به سوى هنا في لبنان، وأن انتماءه إلى لبنانه هذا هو مصدر حمايته ومنعته وقوته وعزته، وليس أي انتماء آخر، ولا أي استقواء من أي نوع بالخارج مهما كان هذا الخارج من الدين نفسه أو الطائفة نفسها.

في لبنان لدينا صعوبات جمة ولا بد أن كل واحد منا تعرّض لحادثة من النوع المذكور أعلاه في لحظة ما من وجوده، وكل طائفة عرفت لحظات قوة أو ضعف. يعني على الأرجح لا بد أننا تبادلنا مشاعر عدم الراحة هذه والتمييز في لحظات مختلفة من وجودنا.

لماذا أشير إلى "تمييز عنصري" عندما لا أستطيع أو لا أجرؤ على إظهار اختلافي؟ وما الفرق بينه وبين التمييز العرقي؟ - ولو انه لا يصح في حالة لبنان- ذلك أن النظرة إلى العرقية تغيّرت الآن وهي لم تعد مؤسسة على النقاء العرقي والبيولوجي (بعدما تبينت أن أصولنا واحدة) بل استبدلت بـــ "الهوية الثقافية الحقيقية" كما تم التخلي عن مفهوم اللامساواة لمصلحة المفهوم المطلق للاختلاف، وانتقل الخوف إلى ميدان اللاتمايز المستوعب ضمن سياق من الانحطاط. يعني أن تضطر لإخفاء اختلافك خوفا من عدم قبوله.

إن عدم القدرة على إظهار الاختلاف هذا هو الذي يثير الشعور بالإنسحاق. أن لا تتجرأ على إعلان اختلافك وأن تقبل به وعبره وكمساوٍ للآخرين. فالاعتقاد الذي ساد أن الإنسان يخاف من الاختلاف، وأن هذا يشكّل جوهر العنصرية أظهرت الممارسة انه غير صحيح. إن قمع الاختلاف هو المضرّ، إن ما يخاف منه الإنسان هو اللاتمايز الذي ينتج التفتيت الاجتماعي، لماذا؟ لأن وحدة الكل تفترض تمايزه، أي وضعه بشكل تراتبـــي - شرط عدم الخلط بين التراتبية واللامساواة.

أما المساواة النافية لمبدأ الاختلاف فهي سبب الخوف المتبادل. الإنسان يخاف من "الهو - نفسه". وهذا هو منبع مشاكل التمييز العنصري. لكن هناك خطر أن يشكل "الحق بالاختلاف" كإرادة للنبذ - كما يفعل لوبن في فرنسا- وكغطاء لنوع جديد من التمييز العنصري، تحت شعار "احترام الهوية والثقافة الخاصة بالجماعة"، الذي يكشف عن الخوف من الاختلاط. وهذا ما برزت بعض عوارضه في لبنان عند الحديث عن "ثقافة شيعية مختلفة".

ما الذي يحمينا من مخاطر الإنغلاق ومخاطر التعصب ومخاطر التفتت التي تهددنا وبرزت بوادرها في الشارع المحتقن والتي يساهم معظم السياسيين في شحنها منذ أن توقفت الحرب الإسرائيلية؟

وحدها ممارسة المواطنية بما هي علاقة بين الفرد والدولة تكفل العضوية السياسية الكاملة للفرد في هذه الدولة وتتطلب ولاءه التام لها. لكن الفرد يمكن أن يكون تابعاً لسلطة الدولة دون أن يحظى بالحقوق والواجبات والمسؤوليات والامتيازات نفسها التي للمواطن. لذا لا يمكننا الحديث عن المواطنية من دون الإشارة إلى الديموقراطية التي هـــي أسلوب حكم، وطريقة حياة، وهدف، ومثال وآلية، وهي قبل هذا وذاك فلسفة سياسية. والصفة الرئيسة في النظام الديموقراطي هي مسؤولية الحكام عن أفعالهم أمام مواطنيهم الذين يمارسون بدورهم الرقابة ويساهمون في التشريع بطريقة غير مباشرة، من خلال تنافس ممثليهم المنتخبين وتعاونهم مع السلطة التنفيذية لمصلحة مجموع الشعب.

في الديموقراطيات الحديثة لا يمكن الفصل بين حقوق المواطنية وواجباتها فهي مترابطة. ففي نظرية الديموقراطية تعطي الدولة النفع لمواطنيها وتحصل على ولائهم التام. وينتفع المواطنون من دولتهم بواسطة الفرصة التي تقدمها لهم - وذلك من

خلال مشاركتهم وتأثيرهم الحقيقيين على النظام السياسي – هذا التأثير الذي يحقق لهم غالبية اهدافهم الخاصة والمرغوبة.

هذا ويزيد المواطن عبر مشاركته في الدائرة السياسية من حظوظه في تحقيق أمنياته وأخذها في الاعتبار في السياسة الممارسة في بلده. إن الحق الأساسي للمواطنية في الدائرة الديموقراطية هو هذا الحق في المشاركة السياسية التامة، بما يتطلبه ذلك من توسيع لمعنى السياسة وعدم حصرها بالسلطة.

ولا بد من التذكير هنا في ما يتعلق ببلادنا أن تعبير "السياسة" له سمعة سيئة وأن فكرة ممارسة السياسة بحد ذاتها تعد خطرة أو غير مرغوبة تماماً مثل فكرة الحزب والحزبية وهذا ما تورثنا إياه حكومات الاستبداد المتصاحبة مع القمع والفساد، فترتبط السياسة بهما في أذهان الناس.

وكما نلاحظ أن هذا أمر متعارض مع مفهوم المواطنية. ذلك أن الحرية بالمشاركة السياسية، مع المواطنين الآخرين، هي التي تجعل الحكومة والقائمين عليها مسؤولين عن هذه السياسة وعن مجمل الافعال التي يقومون بها امام المواطن.

ذلك يعني في النظام الديموقراطي ان على المواطن مسؤوليات أيضاً، فبالاضافة إلى طاعة القانون ودفع الضرائب، وهما أمران ينطبقان على المجتمعات جميعها سواء اكانت ديموقراطية أم تسلطية، تتطلب الديموقراطية مسؤولية قبول نتائج الأفعال الحكومية وتلزم المواطن بها، ما دام انه شارك في اتخاذها. إذ من المفروض أن تكون المواطنية في الديموقراطية نشطة والا فإنها تفقد معناها، عندها يتجنب المواطن المشاركة ولا يقبل تحمل المسؤولية تجاه ما تقوم به الحكومة بل يفكر بتعابير "هم" الحاكمون و"نحن" المحكومين. وهذا يتطلب أن يقبل السياسيون المدنيون المسؤولية المهنية لقيادة الحكومة، عبر الاستجابة للتأثير الذي يمارسه الجمهور وفي المقابل يقبل الجمهور اللوم عندما تأتي نتائج هذه الممارسة التي واكبها غير مرضية.

أما في المجتمع غير الديموقراطي، فالمواطنية تعني شيئاً آخر وتصبح أقرب إلى مفهوم التبعية، فيميل المعنى نحو الواجبات أكثر منه نحو الحقوق. وقد يكون الولاء للدولة مطلوبا في هذا النظام من الجماهير بالمقدار نفسه (إذا لم يكن أكثر) الذي هو عليه في الديموقراطية ولكن هذا الولاء لا يقوم على المشاركة السياسية النشطة بل على عوامل أخرى.

تترجم هذه العلاقة في بلادنا بمفهوم الرعية الذي يجعل من المواطن أقرب إلى القاصر منه إلى الراشد، يحتاج إلى قائد يتبعه دون أي تساؤل ما دام يثق بحكمته.

ان الولاء الجوهري والأهم للمواطن تجاه بلده هو أساساً، الولاء السياسي. وفي مجتمع متعدد يمكن لهذا الولاء السياسي أن يتعايش مع أنواع أخرى من الولاءات، بما فيها العائلة، المسجد أو الكنيسة أو المجموعات الخاصة والتنظيمات أو المثالات السياسية والاجتماعية وحتى الإنتماء لمؤسسات سياسية أو تنظيمات عالمية أو بديلة أخرى. وقد تقود كل واحدة من هذه الولاءات إلى النـــزاع مع أحد الولاءت الوطنية ولكن ليس بالضرورة بالطبع عندما تولى الأولوية للوطن.

أما في المجتمع المحكوم بنظام حكم توتاليتاري أو شمولي، حيث تتطلب الدولة الولاء التام والحصري لمواطنيها فلا يمكن تفادي نـــزاع كهذا لكل من لديه ولاء بديلاً.

ان المفهوم الحديث للمواطنية بدأ مع الثورة الفرنسية والثورة الأميركية حين لم يعد الفرد "رعية" فأصبح مواطناً وتبلورت أمور عدة عدت جوهرية: حكم الشعب، الحريات الفردية والمساواة السياسية.

كيف يمكن تدعيم القيم المواطنية إذن في النظام الطائفي؟

في لبنان هناك بعض العوائق أمام تحقيق مواطنية كاملة والأساسي بينها هو مسألة الطائفية، ففي وقت ينص الدستور اللبناني على أن اللبنانيين متساوون أمام القانون ويتمتعون بالحقوق السياسية والمدنية من دون أي تمييز، ومتساوون في الواجبات أيضاً، ما يفترض التساوي في المواطنة بحسب النص نجد أن اللبنانيين يعاملون في المقابل بصفتهم أعضاء في طوائف تتمتع بحقوق سياسية مختلفة ومتفاوتة. ذلك ان الوصول إلى الوظائف العامة والادارية والسياسية يخضع لتوزيع طائفي... كذلك فإن قانون الانتخاب الموضوع لتنظيم توزيع مقاعد مجلس النواب بين مختلف الطوائف يجعل الأخيرة وسائط الزامية بين المواطن - الفرد وبين والمجتمع والدولة والنظام السياسي. ويؤدي هذا الأمر إلى إعادة انتاج العلاقات التقليدية على حساب الفرد والمواطنة.

فاذا كانت كلمة مواطن أصبحت في صلب الدستور اللبناني، وفي صلب التداول القانوني والسياسي في لبنان باعتبارها تحيل إلى المفهوم الذي أشرنا إليه سابقاً، أي ذلك الذي انبنى تاريخياً في إطار دولة القانون في القرن العشرين، وتطور في جدلية دائمة مع المجتمع المدني، فإن هذا المفهوم لا يزال بحاجة إلى إعادة بلورة وتطوير.

وهنا نشير إلى أن المشكلة ليست في تعدد الإنتماءات أو الولاءات، فهذا أمر مقبول في الديموقراطيات الحديثة لكن المشكلة تكمن في الصراع الذي قد ينشأ بينها في ظل ديموقراطية غير مكتملة وفي ظل نظام حكم ووصاية كان يحاول إستغلال هذه التناقضات واظهارها على انها غير قابلة للحل أو للتعايش.

ربما حان الوقت لإنجاز التطور المطلوب من القدرة على المواءمة بين الإنتماء للاشكال التقليدية العشائرية أو العائلية أو الدينية والمذهبية أو العرقية إلى الشكل الجديد للإنتماء للوطن باعتباره المكان الملائم لتحقيق آمال مواطنيه بشكل عادل ومتساو.

وهذا ما حاوله ميشال شيحا باكرا حين دعا إلى الإقرار بوجود جماعات ثانوية وسيطة بين الدولة والمواطنين، والتي لولاها لما أمكننا الكلام عن التعدد. أهمية هذا القول انه يشير بوضوح إلى اعتبار الطوائف مؤسسات اجتماعية بالمعنى الذي صاغه ماكس فيبر، أي أنها شكل من اشكال التنظيم الاجتماعي الحديث.

يمكن إذن اعتبار الإنتماء إلى طائفة أو إمتلاك هويات خاصة أمراً ممكناً إذا ظل تحت حدود المواطنية، أي عدم طغيان هذا الإنتماء أو تناقضه معها. ما يعني النقيض الكلي لفكرة الرعية والقطيع.

إن سلوك القطيع هو نوع من مشاركة بدائية أو مشاركة صوفية لا تجد لها تفسيراً عقلانياً وهو ما يحصل في الجماعات المتجانسة أي على مستوى طائفة بما هي كذلك عبر شعور بالإنتماء الغير المعقلن. بينما الإنسان العصري هو دائماً وحيد ومنعزل ومتحمّل لهذه الوحدة وكل خطوة يتخذها نحو وعي أعلى وأعمق تبعده عن تلك الممارسة التي ترميه في كنف القطيع، وتنتزعه من الانغماس في اللاوعي الجماعي. إن كل خطوة إلى الأمام تمثل صراعاً من أجل التوصل إلى انتزاع النفس من الحضن الأمومي الكوني للاوعي الجماعي البدائي حيث تمكث غالبية الجماهير الشعبية وغالبية أبناء الطوائف اللبنانية كافة.

دور التربية

إن التربية المدنية بملء معناها لا تعني "إعطاء درس في التربية المدنية" فقط. بل هي مساهمة في التربية على الديموقراطية عبر إيجاد علاقات مؤسسية ديموقراطية بين المواطنين وبين التلاميذ والمعلمين، وداخل الأسرة نفسها، باتباع قواعد معينة: إن أول ما يتعلمه الشخص هو الطاعة، لكن السؤال الجوهري هو أن المواطن ليس فقط من يطيع القانون، بل هو أيضاً من يشارك مع الآخرين في وضعه. من هنا لا يعود الأمر متعلقاً بجعل البيئة مكاناً "ديموقراطياً" بل في خلق "بيئة لتعلّم الديموقراطية".

لقد كان من السائد اعتبار أن شرطَيْ الديموقراطية، منذ مونتسكيو، هما تنظيم الدولة من ناحية، أي الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، ومن ناحية أخرى، أي من ناحية المواطن، إكتساب الفضيلة. والمبادئ الأساسية الأخرى حول القانون واضحة: "لا أحد فوق القانون، ليس باستطاعة أحد أن يحصّل العدالة بنفسه، ليس باستطاعة أحد أن يكون قاضياً وطرفاً في الوقت نفسه".

من هنا الاهتمام بالتربية على المواطنية ويرى البعض ان التربية المواطنية يجب أن تمتد على طول السنوات الدراسية وأن تتأسس على معرفة التاريخ وانظمة الحكم المختلفة والدستور والمؤسسات السياسية الوطنية؛ أما جوهر مثل هذا البرنامج فهو الدراسات الاجتماعية لكن أيضاً التجارب المدنية وتكوّن الممارسة جزءاً أساسياً من عملية التربية هذه كما تتضمن مشاركة التلاميذ في مجالس ونوادٍ وتنظيمات المجتمع المدني.

لكن ذلك يتطلب نظاما تعليمياً متجانساً ومطّبقاً من قبل الجميع وجهازاً تعليمياً متدرباً وواعياً بأن لكل حق مدني واجب اجتماعي يقابله. كذلك يجب ربط تعليم التربية المدنية بالتجارب اليومية في المدرسة نفسها وفي البيئة المحيطة من أجل تفعيل وظيفتها.

كما تكتسب عملية فهم متطلبات العالم الحديث الذي يحتاج إلى مواطنين يفهمون الشعوب والثقافات في كل اجزاء الكرة الأرضية أهمية مماثلة لأن هذا الأمر يجعل الجيل الشاب أكثر تفهماً للدور الذي يلعبه وطنهم على صعيد المشهد العالمي

ككل. ولاكتساب مثل هذه النظرة الكونية يجب أن يدرس الطالب عن الحكومات الأخرى والأنظمة والاقتصاديات المنوعة والمجتمعات المختلفة في الماضي والحاضر والعلاقات بين البشر ومحيطهم وبيئتهم، وهذا يتطلب إنخراطاً أكبر للتربية المدنية التي تركز على أهمية تحسين العلاقات داخل الجماعات مع حفظ حقوق الأقليات. وليكن هدفنا وشعارنا: مختلفون لكن لبنانيون.

والآن هي اللحظة المناسبة من أجل الإستفادة من دعم العالم لنا لتدعيم سلمنا الأهلي. ان الاهتمام الدولي بالسلم اللبناني هو للحفاظ على السلم العالمي ولمنع قيام حرب إقليمية وحده الله يعلم إلى أين سوف تقود العالم، فما الذي يضيرنا من إستغلال هذه الفرصة؟ أم اننا خلقنا محاربين ومقاومين إلى أن نقضي على آخر لبناني ولبنانية؟

* * *

أمان الولاء للطائفة،
صعوبة الولاء للوطن![1]

في لبنان عندما تلتقي أحداً لأول مرة ويعجز عن موضعتك من مجرد معرفة اسمك، يبدأ بسؤالك: من أين انت؟ وعندما تجيب بشكل عام، من بيروت مثلاً، يتابع أسئلته هل فلان أو علاّن يقرب لك؟ ويكون يحمل اسم العائلة نفسه لكنه يعرف من هو ويموضعه بحسب منطقته.

ماذا تضمر هذه الأسئلة؟ إنها نريد أن تعرف: من أي منطقة أنت؟ من أي عائلة أو عشيرة؟ من أي دين؟ وباختصار من أي طائفة أو مذهب تحديداً؟

هذه هي الأسئلة التي تحوم في رأس محدثك ولا يجروء على سؤالك إياها مباشرة. وهو لا يفعل هذا بالضرورة بنوع من التحيّز أو العنصرية أو النبذ، ربما هو ببساطة "لا يريد أن يغلط معك"! وما هو هذا الغلط الذي قد يحدث؟ أن يتناول طائفتك أو مذهبك بسوء من دون قصد، أو بنوع من التمييز السلبـــي المتبادل وغير المعلن بين مكونات الشعب اللبناني. لذا محدثك لن يشعر بالاطمئنان لمحادثتك إلا إذا عرف نفسه "مع من يتكلم" ليأخذ حذره أو حريته. لأن ما هو عميق ومكثف في الحضور، هو تماماً ما هو مسكوت عنه، أي انتماؤنا الديني والطائفي.

ماذا يعني الإنتماء الطائفي والولاء الوطني؟

لا بد في البداية من طرح إطار لموضوعنا عبر الإشارة إلى ضرورة التمييز بين فكرتي الإنتماء والولاء وتحديدهما.

يكتب الدكتور انطوان مسرة[2]: "يطرح موضوع الولاء الطائفي بشمولية وغموض واطلاقية وكأنه حقيقة ثابتة ومستمرة وغير متغيرة زماناً ومكاناً، ويجري

(1) النهار، 2006/12/17.

(2) انطوان مسرة: النظرية العامة في النظام الدستوري اللبناني، المكتبة الشرقية، بيروت، 2005، ص 161.

تحليل الواقع إنطلاقاً من هذه المسلمة وتستخلص النتائج في المعالجة إنطلاقاً منها". وهو يجد أن كل واحد منا ينتمي إلى طائفة قسرا حسب قوانين الأحوال الشخصية. ويندرج الإنتماء إلى طائفة في إطار تعدد انتماءات الفرد إلى عائلة ومولد ومسكن ومجال دراسي ورفاق عمر وجمعيات طوعية ونقابة وتيارات فكرية واجتماعية ووطن ومحور اقليمي وبالنهاية إلى الطبيعة الإنسانية على المستوى الكوني.

ولفهم خصوصية مستويات الإنتماء المتعددة المذكورة يجب أن نفرّق معه بين الإنتماء appartenance والولاء allégeance الذي "ينقلنا إلى ما يتخطى الإنتماءات الاجتماعية كافة ويدخلها في سياق ارتباط وطني وتابعية وحماية". ولقد كانت هذه الكلمة تستخدم تاريخياً (بحسب قاموس روبير) من أجل التزام الخضوع التام للاقطاعي أو الراعي، الا ان الاستخدام تغير في زمن الدولة الوطنية الحديثة دولة المواطنية والحقوق من الخضوع للفرد، ومهما كان مقامه، إلى الخضوع والإخلاص للوطن نفسه فقط، وللجنسية التي يحملها المواطن. والخضوع هنا يتم بشكل ارادي وواعٍ كما نخضع للقانون، الأمر الذي يختلف تمام الاختلاف عن الخضوع لشخص ما سواء أكان إقطاعياً أو زعيماً أو قائداً.

ولمزيد من فهم الفرق بين الأمرين، سنعتمد مفهوم "الإنتماء" بحسب المعنى الذي يستخدمه تونيس، الذي يفرق بين معنيين: معنى الإنتماء العضواني ومعنى الإنتماء الميكانيكي. فالإنتماء إلى الطائفة أو العائلة هو نوع من المشاركة الوجدانية على مستوى الحياة الواقعية والعضوانية وهذا ما يشكل جوهر الحياة في الجماعة - الطائفة[1] أي جوهر الإنتماء العضواني. اما الإنتماء إلى المجتمع فيمكن أن نعده كتمثل افتراضي وارادي بمعنى ما، أي انه يفترض منا الجهد والحركة ولذا يسميه تونيس الإنتماء الميكانيكي.

إذن بحسب تونيس كل ما هو حميم وواثق ومتعايش بديهياً يعبّر عن الحياة في جماعة - طائفة وهو عضواني لأنه المنبع المشترك للحياة النباتية التي تبدأ مع الولادة.

---

(1) سوف نستخدمها كبديل من communauté التي تجمع بالنسبة لنا بين confession وgroupe.

أما المجتمع فكل ما هو عام public، انه العالم الذي نجد أنفسنا فيه، يعني على عكس الجماعة التي تحيط بنا منذ ولادتنا ونرتبط بها في الخير وفي الشر. ففي المجتمع ندخل كما إلى أرض غريبة فنحذر المراهق من المجتمع السيء لكن لن نحذره من الجماعة – الطائفة السيئة (أي جماعته) ففي ذلك تناقض جذري في المعنى وخُلف، لأنه ينتمي إليها من دون تساؤل أو إمكان خيار بديل. ذلك أن المجتمع الإنساني هو عبارة عن تجاور أشخاص مستقلين وأحدهم عن الآخر. لذا فهو انتماء ميكانيكي يتطلب من الفرد دوراً فاعلاً واختياراً واعياً وتحدده العقود والقوانين. المجتمع عابر وظاهري ومتغير. اما الجماعة – الطائفة فهي الحياة المشتركة الحقيقية والدائمة. الجماعة – الطائفة قديمة بينما المجتمع جديد.

ولتوضيح فكرتنا سوف نفرق بين فكرتي الإنتماء البديهي والعاطفي والعضواني لجماعة – طائفة عن الإنتماء الميكانيكي إلى المجتمع؛ فنحتفظ بكلمة "انتماء" لتعني الإنتماء العضواني للطائفة أو الجماعة. وبدلاً من استخدام "إنتماء ميكانيكي" التي يشكل الإنتماء إلى الوطن في جزء منها سوف نحتفظ بكلمة الولاء بمعناها ووظيفتها – أي الخضوع الإرادي والاختياري الملزم- لكي تعني وتستخدم وتمارس حصرياً تجاه الوطن. انه الولاء أو الخضوع القائم على مفهوم عقلاني لتنظيم العلاقات بين البشر والتي يحددها عقد اجتماعي ينظم علاقات الأفراد ويضبطها عبر القوانين.

ميزة تعدد الإنتماءات: المزيد من الاعتدال

إن الولاء الجوهري والأهم للمواطن تجاه بلده هو أساساً، الولاء السياسي. وفي مجتمع متعدد يمكن لهذا الولاء السياسي أن يتعايش مع أنواع أخرى من الولاءات، ولنفرقها عن الولاء للوطن سوف نطلق عليها كلمة انتماء كما سبق وأشرنا. إذن يمكن أن ينتمي المواطن إلى العائلة، المسجد أو الكنيسة أو المجموعات الخاصة والتنظيمات أو المثالات السياسية والاجتماعية وحتى الإنتماء لمؤسسات سياسية أو تنظيمات عالمية أو بديلة أخرى. وقد تقود كل واحدة من هذه الإنتماءات إلى النـــزاع مع الولاء الوطني، ولكن ذلك لن يحصل بالضرورة عندما تعطى الأولوية للولاء للوطن حصرياً. وكلنا نعلم أن الخيانة العظمى ليست سوى

خيانة الوطن. ويفترض الحصول على جنسية ما القيام بالقسم لعدم خيانة هذا الوطن وعلى المستوى السياسي تحديداً.

لكن تعدد الإنتماءات في لبنان يشكل ميزة اساسية وايجابية. لماذ؟ نكمل مع مسرّة: "يساعد تعدد الإنتماءات في المجتمع اللبناني على الاعتدال والتسوية والتواصل. فالماروني (وأضيف أو المسلم) الذي يقطن في بعبدا وهو متزوج من ارمنية وفي نقابة وجمعية ينحو بفعل هذه الإنتماءات المتداخلة إلى التوفيق بينها، وتالياً إلى الاعتدال إذا تعارضت هذه الإنتماءات". وعلى العكس من ذلك "حالة شخص ينتمي إلى طائفة دينية ويقطن في حي جماعته ويدرس في مدرسة جماعته ويتزوج من ابنة جماعته ويعمل في مؤسسة تابعة لجماعته وهو عضو في حزب أكثرية ساحقة من أبناء طائفة واحدة... قد يكون هذا الشخص أقل انفتاحاً واعتدالاً في الموقف أو في أقصى الحالات منغلقا كما في بعض القبائل"[1].

وهذا الوصف ينطبق على فئات من جميع الطوائف اللبنانية ومن فئاتها المنغلقة تحديداً. ونوافق مع مسرة "أن ما يميز المجتمع اللبناني بشكل عام درجة عالية من العضويات المتداخلة المتزاحمة... ". لكن ذلك كان ينطبق على لبنان ما قبل الحرب الأهلية حيث كان المجتمع أكثر اختلاطاً وانفتاحاً. لكن من الملاحظ بشكل خاص في لبنان – والعالم العربـــي عامة – ان هناك عودة إلى البنى العائلية التقليدية وإلى الأصوليات الدينية وهي العلاقات العضوانية بحسب تعبير تونيس والتعصب مرافقها عادة.

وجاء ذلك كبديل من علاقات المجتمع "الزائلة والظاهرية" والمسببة للاحباط، لم يعد الفرد يرضى بالوجود المتجاور المنفصل على رغم كل ارتباط، بل أحتاج بسبب الحرب إلى العلاقة الحميمة التي تؤمنها له "جماعته المطمئنة". احتاج إلى الارتباط العضوي بها، واحتاج إلى الثقة والأمن اللذين يتوفران في حضنها، كما في حضن الأم والأسرة.

---

(1) مسرة: المرجع نفسه.

الإنتماء حاجة اساسية

وإذا كان الإنتماء إلى حضن حام وجالب للأمن من الحاجات الأساسية لدى الإنسان كالحاجة إلى الطعام أو التناسل، وهو لذلك حاجة يتقاسمها كل البشر فإن الفرد لا يستطيع أن يعيش منعزلا بحسب تعابير فروم[1]، والذي لا يمكنه الافلات من هذا الشعور بالانفصال إلا عبر الاتحاد بطريقة أو بأخرى بالناس لكي يفلت من تجربته المخيفة للوحدة بمعنى العزلة. فبحسبه، فقدت الكائنات البشرية توحدها الأصلي مع الطبيعة لذا نجد أنها تبحث عن إتحاد جديد مع أقران لها هرباً من الشعور المخيف بالعزلة التامة الدافع إلى الجنون.

لذا يعد التوحد مع الجماعة الطريقة الفضلى للتغلب على هذا الشعور بالانفصال. إن طبيعة الإنسان الاجتماعية وحاجته الطبيعية تدفعه لإقامة علاقات اجتماعية متعددة ومن هنا انتماؤه الشعوري واللاشعوري إلى الاسرة والجماعة والعشيرة والقوم. يصبح كالطفل الخائف الذي وجد أخيراً الطمأنينة في حضن الام. لقد دفعت الحرب الأهلية والمعاناة الطويلة من الإحتلال الإسرائيلي إلى بحث الفرد عن الوجود المتجاور وعن العلاقة الحميمة المطمئنة التي تؤمنها له الجماعة. إحتاج إلى الإرتباط العضوي بها في وقت اضطراب العلاقات الاجتماعية والمؤسسية وانهيار الدولة. فاحتاج إلى حضن الجماعة كما يحتاج إلى حضن الام، وكأنه تحول إلى قاصر أو عاجز عن حماية نفسه بنفسه فاحتاج إلى من يحميه مثل الطفل.

دور الفساد وتدهور دور الدولة في تدعيم الولاء الطائفي

في لبنان الستينات كانت هناك بدايات اتجاه يسمح ببلورة حياة خاصة للأفراد، بما هم أفراد، تسمح لهم بهامش من الاستقلالية، في معزل عن الأطر التقليدية للأسرة والطائفة والجماعة. ساعدت الشهابية على ذلك عبر بدايات ترسخ دولة قوية، في محاولة لأن تكون عصرية تعطي الفرد بعض حماية (مؤسسات مثل الضمان الاجتماعي - مجلس الخدمة المدنية الخ...). لكن الحرب الأهلية اعادت الأمور إلى وضعية سابقة شبه أثرية وساعد اختلال السّلم الاجتماعي وتدهور النظام العام

(1) اريك فروم: الإنسان بين الجوهر والمظهر، عالم المعرفة، عدد 140، الكويت.

وإنتفاء العدالة إلى تدهور سلطة الدولة وكما يكتب آرييس: "عندما تكون الدولة ضعيفة ورمزية تتعلق حماية الفرد بالتضامن الاجتماعي وبالقيادة بمعنى الزعامة Cheferies التي تلعب دور الحماية، فلا يعود للفرد أي وجود شخصي، أي ملكية حتى ولا لجسده نفسه. يشعر الشخص نفسه مهدداً وتصبح حياته معلقة برابطة التعبئة. إذن عاد الفرد في لبنان إلى أطره التقليدية مرغماً لحماية نفسه وفي ظل فلتان طاول أوجه الحياة ونواحيها، عاد إلى الزعيم والطائفة والعائلة، واستعادت البنى التقليدية حيويتها (وهي التي لم تكن قد فقدتها فعلاً لكنها استمدت زخماً جديداً).

لكن يجب الاعتراف، بأن الدولة في لبنان غالبا ما كانت غير عادلة فعلاً و لم تتوجه إلى "مواطن" بشكل حقيقي، الدولة حتى في أوج قوتها كدولة لم تكف عن استتباع الولاءات من طريق توزيع الخدمات والثروات والمراتب. إن قانون الغنيمة هو السائد في تقسيم ما تحصّله الدولة واعادة توزيعه على جماعاتها كل حسب قربه منها أو حاجتها إليه أو من أجل شراء سكوته. الأمر الذي يشجع عليه قانون الانتخاب نفسه والمبالغ الملحوظة للنائب لصرفها على محازبيه لتجديد ولائهم له.

لكن أثناء الحرب وبسببها برزت هذه الصفات بشكل فاحش، تحوّل أهل الدولة إلى أمراء حروب وإلى تجار وجباة ضرائب، إنها دولة جباية؛ فيدفع المواطن غالياً ثمنا لخدمة سيئة وغير كافية الأمر الذي يشعره بالظلم. وصار المواطن يشعر أن هذه الدولة تسرقه ولا تقدم له الأمن والحماية المطلوبين، فكيف يتصرف هو بالمقابل؟

كما ان أي خدمة يطلبها من أي مؤسسة حكومية يجب أن يتسلح طالبها بمعرفة شخصية وخاصةً بالموظف. على الموظف أن يعرف المواطن شخصياً أو أن يذكر له مرجعاً يعرفه، يعني أن يكون "من جماعته". إذن إما الواسطة وإما الرشوة. يساعد على ذلك نظام الولاء - بمعنى الاستتباع- الذي يغذيه الإنتماء الشخصي ويحرص كل زعيم وكل متنفذ على تدعيمه. يغضب الزعيم أحياناً عندما يقوم أحد ازلامه باسداء خدمة مباشرة إلى مواطن دون معرفته أو دون حضوره المعنوي أو الشخصي. يمركز كل الأشياء بيده، وذلك يساهم في تدعيم الاستتباع وتدعيم جعل أمور الدولة وشؤون المواطن كلها جزءاً من قطاع خاص من نوع خاص، يجعل العام متعلقا بمفاتيح ومداخل وزعامات ومناطق وطوائف. وفي هذه الظروف هناك خلط بين العام والخاص، وهو أحد أهم مسببات الفساد.

ونظام الواسطة هذا هو إحدى الأولويات المستخدمة للحفاظ على الولاء - بمعنى الخضوع - بدل الإنتماء المتحدث عنه والمقبول به. وموضوع هذا الولاء العائلة، العشيرة أو المذهب أو الطائفة. "ففكرة الوطن أو المجتمع فكرة مستجدة في بلادنا لا معنى لها الا بارتباطها بالنماذج الأولية للقرابة والدين[1] التي اعادت الحرب من تشديد روابطها.

ويشكل هذا ربما أحد أهم أسباب اختلاط مفهومي الإنتماء بالولاء ويتشكل بينهما نوع من الرابط العضوي ويتراجع بهذا المعنى الشعور بالمواطنية وأولوية الولاء للوطن أي الخضوع له وتفضيل مصلحته - العامة - على المصلحة الذاتية والمجبولة بالإنتماء الطائفي الذي يتحول إلى ولاء مطلق للطائفة - الجماعة. وهكذا يخف الشعور المواطني ويستبدل الولاء للوطن بالولاء للإنتماءات العضوية والأهلية.

كيف يتحول الإنتماء إلى ولاء ومن ثم إلى تعصب ولماذا؟

شكّل الإحتلال الإسرائيلي، ويشكل، جرحاً نرجسياً يطاول كل عربـــي في عمق وجوده الواقعي والرمزي ويعوّق تطلعه إلى حياة كريمة تؤمن له كرامتيه: الوطنية والإنسانية. لقد اضعفت الأحداث والحروب المستمرة منذ ما يقرب الستين عاماً من دينامية الفرد العربـــي ونشاطه ومطالبه في الحياة الكريمة، ومن قدرته على التطور بما يتلاءم مع متطلبات العصر، فوقع عاجزاً بين مطرقة إسرائيل وسندان الأنظمة العربية العاجزة والمستبدة في الوقت نفسه والتي تتمتع بنسبة عالية من الفساد. ولقد تسبب تضافر الإحتلال والفساد والعجز والاستبداد بغرق المنطقة في هوّة من التأخر على جميع الصعد: فتأخرت التنمية وتراجع التطور وعمت البطالة والامية الشعوب العربية التي تكابد العجز على صعيد التحرر الوطني، وعلى صعيد التنمية البشرية والتطور الاقتصادي، بالرغم من كل الثروات الطبيعية التي تمتلكها والتي تتحول إلى مجرد ثروات فردية وتبذر على الاستهلاك من دون القدرة على الإنخراط الجاد في سياق التنافس العالمي وعلى مختلف الصعد: أي المساهمة في عملية التطوير الاجتماعي أو الإنتاج الاقتصادي أو الفكري أو أي مستوى آخر.

---

(1) هشام شرابـــي: النظام الابوي وإشكالية تخلف المجتمع العربـــي - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت 1992.

إن هذا العجز المستحكم صعّد أولويات القلق والعجز والإحباط عند الفرد العربـــي الذي لم يحظ بأي نصيب من الأمن أو الاستقرار أو النمو. من هنا لجوء الفرد إلى البحث عن حماية أو عن سند يرتكز إليه في وجه اعداء حقيقيين ووهميين. ومن هنا تشكل الجماعة - الطائفة ملاذا مطمئنا وتقوم بوظيفة دفاعية بامتياز. كما الها تساهم في تدعيم هويته عبر اعتراف الآخرين بها. والإنسان يحتاج إلى مركز تدور حوله جهوده ويدعم قيمه الجوهرية ويحفز طاقاته الكامنة لاشباع حاجاته ويعطي لحياته معنى. والجماعة تمثّل هذا الإطار الجامع الذي يدعم الفرد في سبيل تحقيق غاياته.

والفرد يبحث أيضاً عن القوة، لأنه يشعر نفسه مهدداً، ويغذي هذا الشعور بالقوة من خلال الانضمام إلى جماعة تبدو له قوية ويحصل تالياً على "الشعور بالقدرة الكلية". إن الفرد يطمئن نفسه عبر الالتحام بهذه الجماعة مستمداً قوته منها. فلدى العرب تصور ذهني بأن القوة تكمن في الجماعة والتجمع - وليس في القوانين والمؤسسات - وباعتماده على هذه الجماعة، يصبح قادراً أن يقوم بأفعال "يقر بعجزه عن القيام بها منفرداً". إن تجربة الحياة الجماعية تولد فكرة القوة.

وهذا ربما أحد أسباب لجوء هذا الفرد إلى البطل أو القائد الذي يمثل هذه الجماعة ويجسد قوتها. إنه يبحث عن هذا البطل من أجل الإنتماء إليه وتوكيله أمره بنوع من التسليم التام والشعور المترافق بالايمان بقدرته الكلية على حل مشاكله. ويلعب الإنتماء إلى الجماعة - الطائفة دوره في تضميد جراحه وتهدئة قلقه، ولكي يحمي نرجسيته عبر انتمائه الكامل لهذه الجماعة المصطفاة والقادرة (عملية 11 أيلول التي تحمست لها الجماهير العربية والإسلامية وعُدّت انتقاما لكرامة المسلمين المهدورة وصار بطلها بن لادن بطلاً قومياً ومثالاً يحتذى للشبيبة الصغار، وصدام أيضاً بطل قومي لا تزال تبكيه الجماهير بسبب صاروخين سقطا على تل أبيب).

وبما أن الفرد يجد الأمن ويطمئن في حضن هذه المنظومة يتعصب لها وتدعم هي توظيف تعصبه هذا في إعادة انتاج ركائزها الاعتقادية الثابتة وبثها الحياة والحيوية. إن فكرة الاتحاد مع شخص كامل القوة، تجتمع حوله الجماعة، يعطيهم الأمن المفتقد والثقة الغائبة.

ويجد المواطن العادي أن هذا الاصطفاف خلف جماعة مصطفاة ادعى للأمان من اللجوء إلى المنظومة الفكرية العلمية أو النقدية والرافضة للامتثال والانقياد لأنها تتمتع بالشك والتعددية فهذا خيار أكثر صعوبة وأقل إثارة للانفعال وأقل تأثيرا ويتطلب وقتا اطول مقابل الاجابات السريعة التي يعطيها يقين الجماعة والإنتماء إليها. ان الاصطفاف خلف الجماعة يشبه لجوء الطفل الخائف إلى رجل قوي يتماهى معه ليحمي نفسه من الاعداء المفترضين. ومن يمتلك هذه الرموز السلطوية يعمد إلى تعطيل التفكير الواقعي الأمر الذي يدفع بالرعايا إلى الاعتقاد حتى بالأوهام والأساطير.

هذا الإنتماء العضواني يدافع من جهة عن الذات ومن جهة أخرى يقود إلى الهيمنة على الآخرين، ويصبح الفرد متماهياً مع الجماعة ومتعصبا لها حتى إذا أدى الأمر إلى الدمار، وهذا هو المثال المتكامل المتعصب للغاية. ورغم هذا التعصب يشعرالفرد براحة الضمير بسبب انتفاء مسؤوليته الشخصية برميها على الآخر الكامل القوة فهو لا يقرر عن نفسه بل جماعته من يفعل ذلك عنه، متأملا ان ذلك سوف يؤدي إلى تحوّل سريع لظروف حياته. إن المسؤولية الفردية تتلخص في الإحساس الداخلي بالذنب الذي يحصّن الفرد عند قيامه بعمل ما والذي يجعل منه شخصاً واعياً ومسؤولاً. أما الانقياد الأعمى خلف جماعة ما، فيؤدي إلى التخلص من حس المسؤولية برميها بين يدي قائد الجماعة فيسقط في الاتكالية والتبعية المفرطة. فهل بإمكان أمثال هؤلاء بناء وطن طالما أن قيادات الجماعات المتنافسة على السلطة هي التي تحركهم؟

كما أن الإنتماء إلى الجماعة يساعد في الحصول على هوية داخل الجماعة وهذا يعني أنه لم يكن مجرد تخلٍ عن الحرية من أجل الحماية إنما من أجل اثبات الذات ولكن في شكله الجماعي أي اثبات هوية الجماعة – الطائفة. وفي هذه الحالة يذوب كيان الفرد وتختفي معالم شخصيته لمصلحة اندماجه في الجماعة، ويصبح المدافع الأول عن مصالحها والرافض لأي رأي قد ينتقدها. وفي ظل هذا التنافس الذي تخوضه الجماعات، لا يعود من الممكن – على أي حال – إيجاد مكان فعال للفرد الحر المستقل، كما تدهور العصبيات مفهوم الوطن تدريجا ما دام الوجود يظل للجماعة – الطائفة أو التيار العقائدي.

إن الشيء المعروف والمتفق عليه من قبل كل علماء النفس أن الفرد ما أن ينخرط في جمهور محدد حتى يتخذ سمات خاصة ما كانت موجودة فيه سابقاً، ولو كانت موجودة ما كان يجرؤ على التعبير عنها بهذه الصراحة والقوة. فالحشد كائن آني يتكون من عناصر متباينة تلتحم في لحظات معينة كما يفعل الجسم الحي المكون من خلايا تشكل عند تجمعها جسماً حياً جديداً مختلفاً عن كل مكوناته السابقة. وتكون الحشود الجماهيرية نــزوية، متحركة وسريعة التأثر ولا تتحمل أي تأجيل لرغباتها المحمولة إلى أقصى الاحتمالات. وهكذا تخضع الجماهير لسلطة القائد الكلي القدرة والمتحكم بها. ومن هنا مخاطر نــزول مثل هذه الجماعات إلى الشارع.

ان الموضوع المشترك الذي يزيد لحمة أفراد الجماهير المتعصبة يقود إلى إخصاء العقل وتصلّب الفكر وسيادة الانفعال بالضرورة. فمن خصائص الفرد المنخرط في الجمهور تلاشي الشخصية الواعية وهيمنة الشخصية اللاواعية واتباع الجماعة بشكل أعمى بواسطة التحريض وتغذية الأوهام، وغالبا ما تنعدم الروح النقدية والرأي الشخصي لدى الفرد وينـــزلق إلى المبالغة في المشاعر. والانخراط في الحشود الجماهيرية وفي الجماعات المتعصبة يكتسب أهمية اضافية لدى الشخص الجاهل ذلك أن الاندماج في مجموعة يحرره من الإحساس بالدونية وعدم الكفاءة والعجز ويصبح مشحوناً بقوة هائلة.

دور القائد

وهنا يبرز تأثير أشخاص معينين تعتبرهم الجماهير مثالاً وقدوة وتعترف أنهم قادة لها، وتنطلق خلف آرائهم بشكل أعمى ودون سؤال. فالقائد يسعى للقضاء على كل من يعترضه متسلحاً بخطاباته الايحائية، وقدرته الساحرة على الاقناع، وأسلوبه الجذاب باستخدام نبرات الصوت والتعابير التي تعبّر عن رغبات الجمهور الدفينة، والجمل ذات الكثافة التعبيرية والعبارات البسيطة وتكرارها خاصة؛ الأمر الذي يقنع الفرد العاجز بقدرته على تحقيق المعجزات.

وبالنسبة للجمهور، أي أولئك الأفراد الذين يعيشون بعض الحرمان أو العجز عن تنفيذ أحلامهم الصغيرة أو الذين يعانون من القلق من المستقبل يعيشون من

الآن فصاعداً بانتظار حل سحري ينبثق فجأة على يدي الزعيم – القائد الذي يعد الناس بإيجاد مخرج لكل المآزق مقابل عدم معارضته والانقياد الأعمى له.

وعلى رأي ايزايا برلين عندما أرغب في أن اكون سيد مملكتي انسحب إلى الداخل وأنطوي على نفسي. وهذا ما يحققه الأفراد الملتحقون بالجماعة بحركتهم التعصبية؛ ذلك أن أكثر ما يخيفهم ويعذبهم أفق التغيير الممكن ولا سيما التحوّل السريع في حياتهم سواء أكان على الصعيد الديني أو القومي أو الاجتماعي. فكيف الأمر لو اجتمعت هذه جميعها؟ وهذا ما حصل على مستوى الطوائف اللبنانية وإن بدرجات وحقب مختلفة. ففترة الإحتلال الطويلة للجنوب وما رافقها، والاضطهاد الذي مارسته الهيمنة السورية على فئات أخرى شكلت كلها ضغوطاً وتسببت بالتحدي نفسه أيضاً موجدة وضعية يصعب تحملها. في مثل هذه الحالات تنكفئ الجماعات إلى حصونها الداخلية متخلصة من الصعوبات والمعوقات. ومما يزيد من تماسك الجماعة اعتراف الآخرين بمثل هذا الإنتماء وهذا يشكل هدية أخلاقية واجتماعية تزيد من تماسك هذا النسيج الاجتماعي، وإذا كان في الإنتماء إلى جماعة نوع من تخلٍ عن قدر من الحرية فإن ذلك يعوض عنه بإثبات الذات في شكلها الجماعي أي اثبات الهوية الجماعية لهذا الإنتماء والتعصب له...

ويتميز التعصب في الاعتقاد وفي التعلق الغامض بأفكار لا يمكن اثباتها أو نفيها. فالمتعصبون سلموا امرهم لقائد يمتلك القوة بدلاً منهم في عملية يختلط فيها الروحي بالديني. ومثل هذه الاقتناعات موظفة نرجسياً بحيث ان أي تعرض لها يعتبر مساً ينال من الشخص نفسه بالكامل. فهو لا يبحث عن توظيف ذاتي بل يكرس نفسه لمثال مفروض من الخارج ومقبول منه كأمر مفروغ منه وككتلة واحدة، فهو يقبل هذا المثال كجزء من تاريخه ومثله الشخصية يرتبط بها بألف خيط وخيط بروابط عاطفية كما هي رمزية ومعرفية وفكرية. ويصبح التعصب اقوى كلما ارتبط بالوعد بتحقيق رغبات دفينة مكبوتة.

ومن هنا وهم إكتساب القدرة الكلية التي يلجأ الإنسان إليها بدل مواجهة متطلبات الواقع؛ إن نـــزوات الإنسان العدائية ليست هي من كلفت التاريخ الحديث أغلى الأثمان وإنما التفاني والتبعية المفرطة المندمجة في قابلية الإيحاء لبعث الأوهام القديمة. ومنها مشاعر الاضطهاد أو الإحباط التي تنفجر على شكل عدائية

مسقطة على عدو خارجي، وهذه العدائية تصهر الوحدة في مواجهة عدو معين وهذا يحتاج إلى الاعتقاد بمبادئ مطلقة، فالاطلاقية وحدها تجعلهم ابرياء وأطهار وشرفاء ومن الآخرين خونة وعملاء.

وهذا ما يساعد المتعصبين على الانقياد الأعمى، فقسمة العالم إلى قسمين، الجيد والرديء، الخيّر والشرير هي في صميم الفكر المتعصب. فالمتعصب نفسه هو "الجيد"، بينما يجري اضفاء صفة الشر على الآخر، العدو الذي يرغم على خوض معركة دفاعية ثابتة لكي يصون نفسه.

وبحسب الدراسات الإتنوسيكولوجية ستكون المعركة حادة بقدر ما سيضع فيها المتعصب الأجزاء الرديئة وغير المرغوب فيها من شخصيته بالذات. ومن هنا ان من يندد بخطايا الجسد يناضل في النهاية ضد أهوائه الخاصة وشهواته التي يشعر انه من غير الممكن قبولها. وهذا يؤدي إلى حلقة مفرغة ففي الواقع يزيد عدم الاشباع من حدة التوترات وهذه التوترات تجعل مما هو مسقط على الخارج أكثر ضغطاً فتزداد العدوانية. لا يحدث تنفيس التوترات الا باكتشاف الواقع من جديد، الواقع الذي لديه جوانب سيئة وأخرى جيدة. بينما المتعصبون يعيشون في عالم لا واقعي منقسم إلى قسمين حصريين وخاضع لهوامات مرعبة، وبالتالي تصبح العدوانية المثارة ضد الآخر الشرير أكبر وأعمق، إلى جانب تضخيم للذات مرضي، ويسبغ على هذه الذات المزيد من القدرة الكلية والعلم الكلي، فيعاد اكتشاف الشيطان وتحضر نهاية العالم.

حول المسؤولية والحرية الفردية

يعتبر ايزايا برلين[1] إن ما يجعل الناس أحراراً ليس السلوك بموجب طرق معينة لإصلاح الذات، طرق يلزم الشخص نفسه باتباعها، إنما يتم الإصلاح من طريق إدراك السبب الذي يحتم عليه أن يسلك مثل هذا السبيل أو غيره ومعرفته أنه لا يمكن لأحد القيام به نيابة عنه. يعني أن عليه أن يختار بوعي وحرية. إذن الفرد هو

(1) ايزايا برلين: **حدود الحرية**، دار الساقي، 1992، بيروت **Isaiah Berlin: Two concepts of liberty, Oxford University Press, Oxford.**

هنا كينونة فاعله وله دور إيجابـــي وهو لا يقبل فكرة انه وُلد لينقاد، وأنه بمجرد اتباعه الآخر سيصل إلى التغيير. على الفرد أن يستخدم عقله وفكره وأن لا يسمح لأحد بالسيطرة على أغلى ما يملك ألا وهو حرية الفكر. لذا يدعو فروم إلى اعتبار النضج الكامل للفرد والجماعة الهدف الأسمى لأن تطوير المجتمع بحاجة إلى تطوير الفرد وليس من يحكمه. ومن هنا أهمية أن يكون الفرد حراً والجماعة غير متعصبة لأن الأفراد العاجزين يولدون الجماهير العاجزة.

وحدها ممارسة المواطنية بما هي علاقة بين الفرد والدولة، تكفل كامل العضوية السياسية للفرد في هذه الدولة وتتطلب ولاءه التام لها. لكن الفرد يمكن أن يكون تابعاً لسلطة الدولة دون أن يحظى بالحقوق والواجبات والمسؤوليات والامتيازات نفسها التي للمواطن. لذا لا يمكننا الحديث عن المواطنية من دون التأكيد على الديموقراطية.

أما ما يحصل الآن فهو تعصب وانتماءات عضوية غالبة وولاء للطائفة وليس للوطن. وينتج عن هذا كله تعبئة وشحن مذهبيان يؤسسان لتنشئة جيل بكامله يتعايش مع هذا الجو الموبوء الذي سوف ينعكس على مستقبلنا لسنوات عديدة.

* * *

لماذا يتحول الخلاف السياسي إلى خلاف مذهبي؟ أو في فضح عنصريتنا الكامنة[1]

عندما ابتدأ الاعتصام والتخييم في ساحات الداون تاون وأرصفتها في الأول من كانون الأول من العام المنصرم، شعرت كما غيري، بخطورة هذا الخيار وبتسارع تعميق الشرخ المتنامي في بنيان الاجتماع اللبناني والإنقسام الإضافي الذي سيتسبب به. وصدف ان طُلب مني التعليق على الحدث في اذاعة صوت العرب من مدينة الاسكندرية، وقبلت على مضض إذ أني لا أحب هذا النوع من التعليقات الحدثية المتسرعة، وأذكر أني قلت على الهواء أن ما يحدث خطير جداً وأننا بدأنا نوع من الحرب الأهلية النفسية. كانت المذيعة تتحدث على الهواء مع نائب يمثل حزب الله ولكنه ليس من الاسماء المتداولة كثيراً في الاعلام دون معرفتي، واستمع إلى ما قلت دون أن أتمكن (لأسباب تقنية على الأرجح) من سماع نقاشه وعندما طلبت بإلحاح أن أستمع على الأقل إلى ما يرد عليّ به، سمعت جملة قصيرة يقول فيها مستنكرا "أن ما تدعيه الدكتورة غير صحيح... ".

وتتابعت الأحداث وتبين أن الشرخ الذي تبع كل تلك الممارسات المتهورة المتتابعة في لبنان منذ اغتيال الشهيد الحريري، وخاصة بعد حرب تموز الشهيرة أدت إلى أخطر إنقسام مذهبي عرفه لبنان حتى تاريخه، خاصة في ظل الوضع المذهبي المتدهور في العراق والطموحات الإيرانية المعروفة. وهذا الإنقسام لم يعد يهدد لبنان والعراق وحدهما، بل بدأ يعم العالم العربي من عمان إلى القاهرة وعواصم أخرى. والذي يزور بعض العواصم العربية يلمس لمس اليد التحول الحاصل هناك تجاه حزب الله والاتجاه المذهبي الخطير الذي يكتسيه طابع "الاختلاف في الرأي السياسي".

أسمع تساؤل الكثير من الخطباء، ومن بينهم خطباء حزب الله بالطبع، مستغربين ما يحصل ويؤكدون أن الخلاف أو الاختلاف هو سياسي وينفون عنه

---

(1) النهار في 2007/04/29.

الطابع المذهبي، متسائلين ببراءة: لماذا يراه العامة كذلك؟ ولماذا استُغِلّ وحوّل إلى صراع مذهبي؟

ويبدو وأحدهم أنه هبط للتو في بلادنا التي تنعم بأحسن علاقات المواطنية وتخضع للقانون وللمؤسسات في دولة الحق وتجهل معنى سيكولوجيا الحشد ولا تعرف معنى التحيّز والتعصب ونبذ الآخر المختلف أو تحقيره وصولاً إلى العنصرية التي هي الممارسة العملية لكل ما سبق.. كما انها لم يسبق ان لجأت إلى العنف في حل صراعاتها السياسية أو/و المذهبية!!

يبدو أحدهم وكأنه نسي أن الخلاف أو الصراع الأساسي بين المذاهب الإسلامية المختلفة وخاصة بين أهل الشيعة وأهل السنة لم يكن سوى خلاف سياسي في الأصل. فعلى ماذا يختلف المذهبان بالله عليكم؟ هل لكل مذهب نسخته الخاصة للقرآن؟ هل يختلفون على معتقدات جوهرية؟ أم ان الخلاف هو على مبدأ الخلافة نفسه ولمن أحقيتها؟ أي على مبدأ الحق بالسلطة بين تيارين كبيرين اتخذا دائما طابع الخلاف العائلي عامة!

أليس هو نفسه الصراع بين العصبيات القديمة التي تواجه - بشكل تعميمي- بين الامويين (آل سفيان) من جهة والطالبيين أو الهاشميين من جهة أخرى؟ أليس هو تقريبا نفس التنافس الاصلي بين عائلتين من داخل قريش على الأحقية بالسلطة؟ الم يكن الإنقسام على من له الأحقية في خلافة المسلمين بعد موت الرسول؟ ومن هنا بدأ الاستقواء بالحق الإلهي أو بالدين لخدمة السياسة؟

السؤال هنا لماذا ينقلب الصراع في بلادنا من المستوى السياسي إلى المستوى الديني أو المذهبـــي والعكس؟ لماذا هذا التبادل في الأدوار؟

ربما يساعدنا دوركهايم[1] على فهم هذه التبادلات، يكتب في كتابه عن الاديان ما يلي:" تعطي الحياة الجماعية، بعد أن تصل إلى درجة معينة من الكثافة، (ما الذي يكثف الحياة الجماعية أكثر من الصراع السياسي والازمات الناتجة؟) اليقظة للفكر الديني، ذلك لأنها تحدد حالة من الغليان التي تغير شروط النشاط النفسي. تحصل إثارة فائضة للطاقات الحيوية، ويصبح الشغف أكثر اشتعالاً

Durkheim, E: Les formes élémentaires de la vie religieuse, Paris, Puf, 1992. (1)

والأحاسيس أقوى؛ منها أحاسيس لا تنتج إلا في هذه اللحظة. لا يعود الإنسان يتعرف على نفسه ويصبح وكأنه تحوّل، وبالتالي يحوّل البيئة التي تحيطه".

فعندما يكون المنطق السياسي للصراع أضعف من أن يقلب الموازين لصالح أحد المتصارعين وتتكثف الحياة الجماعية وتغلي المشاعر في النفوس، يستيقظ الحس الديني وينقلب الصراع إلى صراع ديني ومذهبي.. كما أن اللجوء إلى الدين أو الحق الإلهي الذي يعطي الشرعية والأحقية لفئة معيّنة ويطبع الأمور بطابع منــزّه ومقدس يبعدها عن المفاهيم السلبية الملتصقة بكل ما هو سياسي والمرادف عامة للفساد وللانتهازية و.. و... كل ذلك يؤجج الصراع المذهبــي - الديني.

ولمن يستغرب انقلاب الصراع السياسي في لبنان إلى صراع مذهبي، نذكّر بالوقائع القريبة التالية:

حزب الله حزب ديني ويدين بالعقيدة الشيعية وخاصة التي تعتمد فهماً خاصاً للتشيع عبر مفهوم ولاية الفقيه. وهو حزب جاهر بذلك في كتاباته السابقة ويجاهر بها الآن. كما انهم لم يكونوا يخفون هدفهم في الوصول إلى مجتمع الدولة الإسلامية في بدايات عملهم في لبنان. كما يقوم الحزب بكل الشعائر التي يستتبعها هذا الإنتماء، ويجمع اتباعه ويؤلف بينهم على أساس هذا الإنتماء المجبول بالولاء أولاً وأخيراً. ويتجلى هذا الأمر في جميع احتفالاته وشعائره واجتماعاته وهو يفاخر بذلك ويشجع المنتمين إليه على هذا الإنتماء/الولاء وعلى هذا التوجه: من الشعارات إلى الألوان والطقوس والعادات الاجتماعية المستوردة وحتى اللغة. ويتم التوجه إلى الموالين للحزب كفئة متجانسة، ملتحمة، متميزة، ومتعالية لتمتّعها بالفضائل التي تميّزها عن غيرها. حتى الخطب في معظمها لا تقام إلا في المناسبات الدينية وهي تستعيد مفردات الصراع الازلي السياسي- المذهبــي منذ مئات السنين فتنبشه وتعيد تكرار المشاهد والرموز وتستعيد الكلمات وتستدر العواطف وتؤججها. ويتم التساءل بعدها ببراءة: لماذا نشهد هذا الاحتقان المذهبــي في لبنان؟

السؤال البديهي والموضوعي: كيف يمكن للمواطن الآخر، من مذهب أو دين مختلف ألا يربط بين السياسة والدين عندها؟ وأن يستعيد هو أيضاً ذلك التاريخ المحمل بألوان الصراع والفتن ويعود بذلك الاحتقان والشقاق هو نفسه؟ هل حزب الله حزب سياسي فقط؟ أم انه حزب سياسي ديني؟ لماذا الاستغراب عندما يختلط

السياسي بالديني عند قراءة الآخرين، خاصة المذهب المنافس تقليدياً، لتحركاته ومطالبه؟

لماذا يستغرب الحزب وممثلوه أن يتحفز الشارع السني وأن يشعر نفسه مستهدفا عندما يحتل هذا الحزب (مع شركاء له) الساحات المواجهة للسراي مطالبا برحيل ممثّل السنة في الحكومة والذي يحظى بدعم - لنقل نصف اللبنانيين فقط! ومعظم السنة - بينما يحتكر الحزب تمثيل طائفته ويمنع التكلم باسمها من قبل غيره هو وحلفائه؟ ثم ألم تكن الانتخابات الأخيرة هي المؤسس بشكل ممتاز لكل هذا الإنقسام الحاصل اليوم؟ ألم تؤسس للخوف ولانحسار الطمأنينة ولشيوع الارتياب من الآخر، بحيث اعتبرت كل طائفة نفسها مهدّدة من قبل الآخرين؟ لقد تم حشد الناس بالتحريض الطائفي ووصل الأمر بالأطراف المتنازعة على المقاعد الإنتخابية إلى اعتبار كل طرف نفسه الضمانة الوحيدة لـــ "طائفته المهددة".

وهنا لا يمكن إغفال دور السياسيين على مختلف فئاتهم في دفع الظاهرة المتفشية والمتمثلة في مشكلة طغيان التعميم. نتوجه إلى الكل وكأنه صخرة صماء لا مكونات فردية فيه، فحزب الله هو الذي يقرر عن الطائفة الشيعية ككل ويعدّ الحكومة غير ميثاقية لأنها تخل بتمثيل نفس هذه الطائفة الشيعية المصادرة - جزئياً على الأقل، خوفا وقمعا وتخجيلا ومنعاً سافرا - ويريد المشاركة الحقيقية في الحكومة عن طريق الثلث المعطل. والسؤال هنا ماذا عن مشاركة سائر الأطراف في الطائفة الشيعية نفسها في القرار وفي الحكم؟ ماذا عن الذين لا يشاركون الحزب وحركة أمل في الرأي ولا يقبلون بهم كمتحدثين حصريين باسم هذه الطائفة؟ كيف يمكن تعطيل البلد من أجل المشاركة على صعيد الوطن فيما تتم مصادرة أي مشاركة على صعيد تمثيل هذا الطرف الطائفي أو ذاك؟ هذا الطرف الذي يجاهر في نفس الوقت بديموقراطيته وفي انه لا يعبّر عن رأي طائفة بل عن رأي فئات منوعة؟

ليس الحزب وحده المسؤول عن هذه الظاهرة، فالآخرين يساهمون فيها عن قصد أو غير قصد وعلى درجات عندما يتوجهون إلى الشيعة خاصة (أو أي جماعة أخرى) كجماعة واحدة كبلوك متجانس لا تمايز فيه وفي هذا من التعسف ما فيه. لكن آثاره تتجاوز التعسف لأنها تعطي الذريعة للمزيد من تماسك الجماعات. ان

اعتراف الآخرين بمثل هذا الإنتماء يشكل أفضل هدية أخلاقية واجتماعية تزيد من تماسك هذا النسيج الاجتماعي، وإذا كان في الإنتماء إلى جماعة نوع من تخلي عن قدر من الحرية فإن ذلك يعوض عنه بإثبات الذات في شكلها الجماعي أي اثبات الهوية الجماعية لهذا الإنتماء والتعصب. ومن هنا فإن النسيج اللبناني بمجمله يتحمل وزر ما هو حاصل الآن من تحيّز وتمييز.

لا يفسر الاصطفافات المذهبية والطائفية الحاصلة في لبنان سوى فهم لوبون لسيكولوجيا الحشود: يجتمع الحشد على مستوى الطائفة أو المذهب متناسين اختلافاتهم وهمومهم المهنية وجنسهم. يتجمعون في ظروف محددة فتنطمس الشخصية الواعية لدى الفرد منهم وتتشكل روح جماعية تهيمن عبرها الشخصية اللاواعية والتوجه الاجتماعي ضمن نفس الخط بواسطة التحريض. ويصبح سلوك الفرد آلياً في الغالب الأعم فتنعدم لديه الروح النقدية والرأي الشخصي وينـــزلق إلى المبالغة في المشاعر. وأشار لوبون في معرض تفسيره لهذه الظاهرة إلى أن أهمية الاندماج في مجموعة يكمن بجعل الجهلة يتحررون من الإحساس بدونيتهم وعدم كفاءتهم وعجزهم ويصبحون مجيشين بقوة هائلة، يصبحون أكثر ثقة بأنفسهم وأقوى واصحاب غلبة.

يستمدون هذه القوة من اتّباعهم لقائد ملهم، يتبعون الآراء التي يعتمدها؛ فالجماعة تمتلك القدرة الهائلة على احتواء الفرد لكنها أيضاً تستطيع خنق الهوية الفردية بشكل لا يتصوره احد. وهي تستطيع الوصول إلى السلطة المطلقة بمجرد أن تغذي الأفراد بالأوهام. ان الجماهير بشكل عام عبارة عن أفراد متعطشين إلى رموز يعلّقون عليها آمالهم، ويضاف إلى دور القائد البطل كون ظهوره بمثابة استجابة لهذه الحاجة الملحة. ويتجلى سلوك الأفراد حينئذٍ بالاتكالية والتعلق، والحاجة إلى الخضوع لتجنب الألم وتجنب قلق المسؤولية وحملها. ويبدو هذا القائد جاهزاً لتحمّل كل مسؤولية عنهم بسبب ما يتمتع به من قوى خارقة. كما أن أهم ما يحصل على مستوى الأفراد في الجماعات وحشودها هو التفريغ بحيث يصبح جميع الأفراد جزءاً من الحشد ويتخلصون عبره من اختلافهم فيشعرون أنفسهم متساوين وتختفي المسافات بينهم. ومن هنا وهم محاكاة الأسلوب الديموقراطي: المساواة. لكنها مساواة منقوصة لأنها ضمن فئة واحدة فقط وتعتمد التشابه ولو بالقوة وليس قبول الاختلاف واحترام الرأي الآخر المغاير.

يسهل في ظل هذا الوضع أن يسود التحيّز والتنميط والتمييز العنصري، مكونات اللاتسامح الثلاث المرتبطة لكن المتمايزة. والتحيّز هو حرفياً "الحكم المسبق" أو ما نصدّقه حول شيء أو شخص مرتكزين على. افتراض واعتقاد أكثر من الارتكاز على تجربة حالية. ان التحيّز قد يكون ضد شيء ما أو معه. لكن في الاستخدام الشائع يرجح النفور من مجموعة خاصة بكاملها أو لجزء منها، كجماعة عرقية أو إتنية أو مذهبية دينية أو فيما يتعلق بالجندر أو فئة عمر. لقد عرّف التحيّز من قبل السوسيولوجيين كنفور مرتكز على تعميم خاطئ وجامد. التحيّز هو موقف وليس مجرد سلوك. وللتأكد من ذلك ليس عليكم سوى الاستماع إلى أحاديث أطفالكم (أطفال الغير) وانصتوا إلى اللغة التي يتحدثون بها والتي كانت غريبة عليكم في طفولتكم! اللغة التي تعود إلى الجذور التاريخية للصراع وإلى الصور الأثرية التي يكونها كل فريق عن الآخر والتي استعيدت وانتعشت كافضل ما يكون. انهم مرآتكم التي تعجزون عن رؤية أنفسكم من دونها.

إنه التنميط الذي يمكن تعريفه ببساطة "كتعميم جامد". التنميط الذي يسود حياتنا وهو تنسيب بعض المميزات للأشخاص ببساطة على قاعدة انتمائهم لمجموعة ما. التنميط هو تبسيط مبالغ وجامد لصور ذهنية، قد تحتوي على بذرة من الحقيقة تحمّل بتعميمات خاطئة بنيت حولها. وإحدى الأشياء المثيرة للاهتمام حول التنميط ان الناس يظلون يصدقونها حتى بعد أن تقدم لهم ادلة غير قابلة للرفض حولها (هل من داع لتذكيركم بالنكتة عن سيدنا عمر؟). وغالبا ما يقلل الناس من ملاحظاتهم الشخصية، يشككون بها كما تفترض "توقعاتهم التعميمية المنمّطة من القاعدة". انهم يتبعون الجماعة، لذا يمكن للتنميطات أن تكون ثابتة بتطرف. التمييز العنصري، بعكس التحيّز، يحيل إلى سلوك: إنكار الحقوق الأساسية و/أو الفرص لاعضاء بعض المجموعات على قاعدة متغيرات واسعة مثل: العرق والعمر والجندر والدين/ المذهب أو الاعاقة.

ألا نجد في هذه التوصيفات ملخص لتاريخنا المذهبـــي والسياسي؟ تاريخنا العنصري تجاه مختلف الأقليات والاتنيات وتعبيراتها الثقافية في منطقتنا؟

ومن أمثلتنا المحدثة ما أورده السيد هنية في خطابه يوم السبت 2006/10/06، عندما أراد أن يدافع عن القوة التنفيذية التي شكلتها حركة حماس لتحل محل القوى

الأمنية الفلسطينية المشكلة بقرار منبثق عن اتفاق أوسلو، فحاول أن ينفي عن هذه القوة صفة (العصابات أو المليشيات)، فقال إنها ليست عصابات (كالبيشمركة) الكردية. ولقد كتب مهند صلاحات في إيلاف كرد عليه تحت عنوان "من يعتذر من الشعب الكردي" ما يلي:"وعلى الرغم من أن البيشمركة الكردية لا تمثل كافة الشعب الكردي، إلا أن الوحيد المخول بتوصيف هذه الحركة هم الأكراد أنفسهم (لاحظوا التحيّز أيضاً). ولا يجوز التمادي من قبل من يعتبر نفسه ممثلاً لشعب فلسطيني يعاني كما يعاني الشعب الكردي من التشتيت والمذابح، فالأكراد ليسوا عصابات، وهم شعب أصيل متجذر كان له دولة تاريخية أصيلة، تمتد لأكثر من مئات السنين في هذه الأرض.. ". وهذا صحيح لكن ما رأيكم بهذه العنصريات المتبادلة؟ نقوم بها كل يوم، دون أن ننتبه أو أن يرف لنا جفن.

كما ان الموقف المتنامي ضد الإيرانيين والسياسة الإيرانية أيضاً مثل آخر عن اللجوء إلى الموقف العنصري من العجم والفرس والمجوس وما شابه من النعوت التي هي أيضاً تستقى من التاريخ الدامي والعنصري السحيق لكي تستعيد صراعات اثرية ونأمل الا تكون أزلية.. وكما نعلم فإيران ليست مكونة من فرس فقط بل من عدة اتنيات مختلطة بما فيها العرب!!! هذا ناهيك عن رأي الفرس والإيرانيين بالعاربة وكل ما يتبع من تحيّز متبادل بين جميع هذه الاتنيات عاينت بعضها شخصياً.

هذا نموذج عن ممارسات سياسيينا الذين يستغربون فيما بعد نشوء الصراع والصدام بين مكونات شعوبنا المتعددة. رحم الله صدام على كل حال، أليس هو القائل "عرب، أكراد، كلنا عرب"!! هل فكرنا فيما يعنيه ذلك؟ رفض الآخر باختلافه؟ وعدم الاعتراف به كمختلف؟ بل الحاقه بالقوة بالعنصر المهيمن؟ ونشكو من أن الأميركيين وإسرائيل يزرعون الفتنة فيما بيننا؟ ونجعلهم على كل شيء قادرون!!

تعترض الحركات النسوية على تحيّز اللغة؛ ففي اللغة العربية تستعمل صيغة المذكر عند وجود ذكر واحد مقابل مئات النساء. يتم التوجه عندها وكأن الحشد كله ذكور. وجه الاعتراض ان ذلك يلغي وجود النساء ويغلب الوجود الذكوري، فكيف يمكن أن نهمل الكل من أجل واحد فقط ونبرز وجود هذا

العنصر الوحيد؟ ونتصرف وكأن النساء غير موجودات؟ ولكن في المقابل ولأن اللغة متحيزة ضد المرأة يكون هذا الفعل يحافظ على خصوصية الذكر ويمنع انمحاء هويته عند وجود النساء!! الحل إما استخدام صيغة محايدة أو استخدام ما يظهر وجود تمايز جندري.

في المقابل نشمل الطوائف والجماعات في وعاء واحد مضبوط متجانس لا يفلت منه أي فرد ولا نهتم لوجوده أصلاً، فنقول يرى الشيعة كذا ويريد الشيعة هذا الأمر، أوالمسيحيين الإنعزاليين أو الأكراد أو سنة العراق وهكذا دواليك.. ونلغي بذلك أي تمايز وأي خصوصية لأي فرد تجاه جماعته. فهل يعقل أن يكون لطائفة رأي معين من موضوع ما؟ لأتباع دين؟ لعرق معين أو إتنية؟؟ أليس هذا مكمن التحيز؟ولماذا تحافظ اللغة العربية على تمايز ذكر فرد وتلغي خصوصية أفراد عديدين يصعب احصاؤهم؟ لماذا يعبّر عنهم موقف فئة معينة ومهما كان عديد هذه الفئة أو عددها؟؟ هذا هو التحيّز والتمييز الذي يمتد من اللغة وينعكس ممارسة يومية تتسم بما نسميه بوضوح التمييز العنصري.

إنهما وجهان لتحيّز واحد ولتمييز عنصري بالمعنى العصري للتمييز والتحيّز؛ فإن نلغي المجموع من أجل فرد والعكس أي نلغي الأفراد من أجل المجموعات هما وجها التحيّز والتعصب والعنصرية.

وإذا أراد حزب الله حل المشكلة ربما عليه الاختيار بين السياسة والدين؟ بين ولاية الفقيه وبين المواطنية اللبنانية وكل ما ينتج عنها؟

لكن هذه الممارسات ليست قدراً لا راد له، سبق ان عانت أوروبا من صراعات أكثر دموية وتخطت مشاكلها عندما اعتمدت القانون مرجعا وحيدا للعلاقات بين الناس كمواطنين متساوين وعندما فصلت بين الدين والدولة وعندما نمّت الإنسان وحسّنت ظروفه على جميع الصعد، الرمزي منها والاجتماعي والاقتصادي، وأعطته تربية متوازنة ومنسجمة مع أهداف المواطنية. لم يعد يكفي ان نقول ان زرع دولة إسرائيل سببا في الكثير من المآسي ومنها العنصرية (ولو انه صحيح)، أو أن نقول أن أميركا تزرع الفتنة بيننا، الشيطان سواء جعلناه أميركا أو إسرائيل يغوينا ويراودنا عن أنفسنا قبل أن ينقض علينا فلماذ نجعل أنفسنا ضعافا امام إغواءاته؟

علينا تخطي واقعنا وتحسينه ولنستمع إلى النصائح اليابانية، إنها مجانية لكنها يمكن أن تحمل لنا أفضل الحلول التي لن تقدر بمال[1]. كما أن حزب الله لا يستطيع الجمع بين الأمرين الديني والسياسي والتنقل بينهما بحسب إرادته ومنع الآخرين من اجابته بالمثل؛ ويصرّ على الخروج بريئاً من دم هذا الصديق.

* * *

(1) أنظر كتابي: أقنعة الثقافة العربية، دار الثقافة، القاهرة، 2006.

في دور القائد في اللحظات المصيرية[1]

يقف لبنان اليوم عند مفترق طرق مصيري ربما يؤدي إلى تحديد مستقبله ونظامه في الزمن القريب والمتوسط. منذ اغتيال الشهيد الحريري تقريبا يقوم اللبنانيون بمجرد تصريف أمورهم الحياتية كبديل للعيش الفعلي والتخطيط لمستقبلهم واولادهم. الخوف يطال اللبناني بسبب التفجيرات التي قد تفاجئه عند أي زاوية لشارع. ويكاد مطلب العيش الكريم والعادي البسيط أن يتحول إلى ذنب إذ أن ذلك قد يعني للبعض الكف عن المقاومة، التي يجب أن لا تنضب، الأمر الذي يكاد أن يعادل الخيانة العظمى ولو على حساب وجود وبقاء الوطن نفسه. في وقت يتحول فيه مجرد التجول إلى مهمة شبه مستحيلة بسبب المربعات الأمنية كما يطلق عليها، ما يجعل عيش الحياة الطبيعية يذوي ويتضاءل بسبب الخطوط الحمر التي تمنع الاقتراب من مناطق عدة. لكن أكثرها تضييقا وسط بيروت المغلق في وجه خلق الله منذ العام تقريبا وتحوّله إلى قضية شبه مقدسة يعني التراجع عنها إراقة لماء الوجه وهزيمة للقوى التي ابتدعت هذا النوع من "النضال السلمي" الذي أدّى إلى إحتلال فعلي موصوف للممتلكات الخاصة في معظمها. ذلك كله يؤدي إلى الإكراه لأنه يتضمن التدخل المتعمد من قبل عدد من الناس ضمن المجال الذي يتمتع فيه الفرد المواطن عامة بحرية العمل والحركة.

المشكلة الثانية والتي تشكل مسألة أخلاقية بامتياز تتعلق بنواب الأكثرية المهددين بحياتهم والمقيمين في وضعية تشبه الحصار في وقت يتحرك فيها نواب المعارضة بكل حرية نظرا لشعورهم بالأمان!!

ناهيك عن مفارقات الخطاب السياسي - خاصة خطاب المعارضة المهدِّد - والذي يعبّر عن مأزق عند القيادات السياسية المعنية.

هذا ونجد ان الجماهير تتبع قادتها وتتعصب لمواقفها ولو أدّى ذلك إلى الخراب المطلق.

---

(1) أوان: 2008/04/02.

للقائد تاريخياً أهمية كبيرة في تسيير أمور الناس ويرى بعض المفكرين ان الحضارة شيء ما مفروض على أكثرية تسيّرها اقلية ادركت كيف تتملك وسائل القوة والاكراه. ولولا تأثير أشخاص ممكن اعتبارهم مثلا وقدوة وتعترف بهم الجماهير قادة لها لما انقادت هذه الجماهير وتقبلت الاشغال الكادحة التي تقوم عليها الحضارة. وهذا الإنقسام الطبيعي بين اقلية تكون قائدة وأكثرية رعية هو ما يسمح بوضع المسؤولية في أيدي الرجال الاقوياء.

وينبغي ان لا ننسى أن الجهل بشكل أساسي هو الذي يؤدي إلى التبعية والخضوع ويجعل الفرد بحاجة إلى التوجيه الاجباري. فبعض الناس لا يتمتعون بطبيعة تكفي لتخولهم اعطاء الاوامر لأنفسهم أو ليفهموا لماذا يرغمون على القيام بما يقومون به؛ يؤدي ذلك إلى جعل الجماهير غير قادرة على الحرية لأنها قضت مئات السنين تحت نظام قامع تخضع له بالطاعة السلبية للسلطة. يصبح وضع الجماهير المطمئنة كالتالي: نحن نملك قائدا ومن ثم نملك الأمن والأمان طالما أن لا شيء يهدد وحدتنا.

ويصل العيش في النمط التبعي إلى درجة يتوقف فيها الكثيرون عن التفكير الفردي الحر ويعيشون على التوجيه والارشاد من قبل الجماعة التي ينتمون إليها وقائدها؛ فلو كانت الحرية هي جواب كل مواطن للتحكم بوجوده الشخصي لكانت الحرية كونية. لكن غالبية البشر يعجزون عن التعبير لأنهم فقدوا استقلاليتهم وفقدوا الثقة في قدرة عيونهم على الرؤية وقدرة اذهانهم على تقدير الأمور. والأشد حرماناً منهم يعيشون في انتظار حل سحري يتخذ شكل قائد باهر يقدم لهم مخرجاً. فليس غير موقف العجز الطفلي للإنسان الذي قد يدفع نحو أي ظاهرة أو حركة أو اعتقاد تعده بالحماية حين تجعله يشارك في القدرة الكلية للآلهة أو للقائد. ان اتحادهم مع شخص كامل القوة هو تعبير البحث عن الأمان والرد على شعورهم بالعجز وانعدام القدرة على التفكير الفردي؛ فيصابون بالسلبية، ويتطلعون للقائد الذي يعرف ما لا يعرفون..

ما يحدو بالبعض الاستنتاج ان نـــزوات الإنسان العدائية ليست هي من كلف التاريخ الثمن الأغلى إنما الإخلاص والتفاني والتبعية المفرطة وطاعة الجماهير العمياء لقادتها هو أصل المشكلة. يجعلهم ذلك متشابهين ويتم الرجوع عبر هذا التشابه

الموجود بين الرجال الذين فقدوا فرديتهم لتأكيد أنها المساواة ولكنه مجرد تشابه والتشابه لا يعدل المساواة. بل العكس التشابه يلغي المساواة المتضمنة للقدرة على الاختلاف.

ونحن في لبنان نعاني من أزمة مصيرية وكيانية تتمثل في إنقسام الشعب اللبناني إنقساماً حاداً حيث يتبع كل قسم منه قادته تبعية عمياء ويمتازون بتعصب متطرف لمعتقداتهم ولو فقدوا القدرة على اثباتها أو التأكد من صحتها. فالمتعصب، وهو يمكن أن يكون قائدا أو منقادا لا فرق، يؤمن بأفكاره التي قد تكون غامضة ومن غير الممكن اثباتها أو نفيها. ولقد أدت الأحداث إلى معاناة اللبنانيين وأوجدت نسبة عالية من العدوانية الأمر الذي يستلزم إسقاطها على عدو خارجي. والتعصب الذي يمنح الأمان المعرفي وتوطيد النرجسية لا نستطيع تفسيره الا إذا احطنا باللحظة الثقافية في وضعية معينة التي يزدهر فيها هذا التعصب. فاللبناني المتعصب يفترض في ذات نفسه انه لا يبحث عن اخلاص لذاته إنما هو مكرّس لمثال مفروض من الخارج المقبول ككل وذلك لأن تاريخه ومثله الشخصية يربطانه بالمثال بألف خيط، روابط عاطفية، رمزية أكثر مما هي معرفية وفكرية.

وللأسف المبدأ الوحيد الذي يتقيد به المتعصب لقدسيته بنظره، أن يكون أمينا فقط مع اهدافه الخاصة حتى إذا أدى الأمر إلى الدمار. وهذا ما يحصل يومياً في بلاد الأرز...

الخلاف على تفسير الدستور انتقاص للديموقراطية بذريعة ممارستها وعدم الاعتراف بالانتخابات النيابية مع استخدامها كغطاء شرعي لمن يرفضها في نفس الوقت. إحتلال لوسط بيروت من دون أفق وتهديد مستمر ومبطن باللجوء إلى العنف "كحق ديموقراطي".

ولكن إذا عدنا إلى دور القيادات والمسؤولية الملقاة على عاتقها ينبغي لها أن تتحمل مسؤولية هذه القيادة التي انتدبت نفسها لها وأن يكون لديها القدرة على اتخاذ قرارات شجاعة تتراجع فيها عن وضعية معينة تكون قد أوجدتها هي بنفسها. وهذا ما يسمى بعملية النقد والنقد الذاتي والتي يبدو اننا نجهل مجرد وجودهما.

ولتوضيح معنى الدور القيادي سوف أعود إلى ما كتبه توكفيل عن الديموقراطية الأميركية وعن دور القيادات في اللحظات التاريخية.

يرجع توكفيل تفوق الدستور الفيدرالي الأميركي على سواه إلى طبائع المشترعين الذين اسهموا في وضعه. وفي الفترة التي شهدت وضعه كان الوضع كارثياً والانهيار وشيكا وفي مثل هذه الظروف الاستثنائية لم يختر الشعب من بين الناس من يكنّ لهم القدر الأكبر من الحب، بل من يكنّ لهم القدر الأكبر من الاحترام. وتميز واضعو الدستور الجديد بعملهم الراجح ووطنيتهم الصادقة، وهم نشأوا في خضم أزمة اجتماعية كان الولع بالحرية خلالها يخوض صراعا مستمرا ضد سلطة قوية مهيمنة. وهم القوا نظرة هادئة متبصرة في أحوال مواطنيهم الذين ظلوا على احتدام انفعالاتهم تجاه اخطار تحيطهم.

وهذا استشهاد لأحد ابرز واضعي الدستور الأميركي الكسندر هاملتون يفسر وجهة نظره والموقف المتوجب اتخاذه من المسؤول تجاه الحشود من أجل قيادتها دون الانقياد إليها:" أعلم انه لا يشفع للسلطة التنفيذية لدى بعض الناس الا انصياعها صاغرة لرغبات الشعب أو لمشيئة الهيئة التشريعية. ولكن يبدو لي ان لهؤلاء فهما مبتذلا للهدف التي تصبو إليه كل حكومة، وللوسائل التي تؤدي إلى ازدهار عام. فأن توجّه آراء الشعب، العقلانية الناضجة، عمل من يعهد إليهم بشؤونه، لهو أمر ناجم عن اتباع شرط جمهوري: غير أن المبادئ الجمهورية لا تقضي البتة بأن تنساق الحكومة وراء الأهواء الشعبية كيفما اتفقت، ولا أن تسارع إلى مجاراة كل اندفاع عاطفي عابر قد تُدفع إليه الحشود دفعا من قبل حاذقين يمتدحون احكامها المسبقة ويخونون، في الخفاء، مصالحها.

لا يسعى الشعب عادة الا وراء الصالح العام. هذا صحيح. لكنه في سعيه هذا غالبا ما يخطئ السبيل إليه. لكن لو جاء من يطري عليه قائلا إنه يحسن دائما تقدير الوسائل التي تؤدي إلى ازدهار الأمة، لحثته فطرته السليمة على ازدراء مثل هذا الاطراء. فقد علّمته التجربة انه يخطئ أحياناً.

عندما تتعارض المصالح الحقيقية للشعب مع رغباته، يتوجب على جميع من انتدبهم لصون مصالحه أن يتصدوا للخطأ الذي وقع فيه آنياً، لكي يتاح له متسع من الوقت لاسترداد وعيه وجبه الأمور بهدوء. وقد شهدنا مراراً شعوباً تنجو، على هذا النحو، من تبعات اخطائها المهلكة، وتقيم صروح عرفان لرجال كانت لهم الشجاعة بأن يعرّضوا أنفسهم لاستياء الناس بغية خدمتهم".

ان ما يجعل الناس احرارا ليس السلوك بموجب طرق معينة لإصلاح الذات التي تجبر الفرد على مثل هذا السلوك إنما يتم الإصلاح عن طريق إدراك السبب الذي يحتم عليه أن يسلك هذا السبيل الأمر الذي لا يمكن أن يقوم به أحد نيابة عنه. لكن ربما ان هناك في لبنان من لم يعد يسعى إلى الحرية حقاً.

مع ذلك نحن كبشر قدرنا ان نختار فهنيئا لاولئك الذين يستطيعون العيش في ظل نظام يتقبلونه دون طرح تساؤلات والذين ينصاعون طوعا إلى أوامر القادة وعلى عيونهم غشاوة قد تساعد على التوصل إلى القناعة لكن لن تساعد على إدراك مغزى أن يكونوا بشراً.

لذا القائد الحقيقي هو من يسعى إلى المصلحة العامة ولو أنها لا تتماشى مع أهواء الجماهير الآنية وحماستها.

* * *

برسم المعارضة[1]

هناك شيء خاطئ يحصل، أمر غير أخلاقي بالمطلق يدين قوى المعارضة، صحافة واعلام وأحزاب وشخصيات ومواطنين. لا يمكن التظاهر برفض سياسة الاغتيالات وادانتها لفظياً والتباكي على ضحاياها والإستفادة في نفس الوقت من نتائجها بدم بارد وكأن الأمر بديهي ومنتظر كون الضحايا لا يمتثلون لما يطلب منهم! أو أن الموت يطال هؤلاء وهم نيام في أسرهم أو من جراء مرض عضال..

ألم يكن استشهاد الحسين جريمة سياسية بامتياز؟ ألم يكن أحد ابعاد استشهاده كشف فساد وانحطاط الامويين؟ ألم تكن شهادته نضالا ضد الظلم؟ ألم يكن سلوكه درس أخلاقي بالدرجة الأولى؟

كيف يقبل الظلم من يدّعي انه يضع الحسين نموذجا لسلوكه؟ ومن يكاد يحتكر الأخلاق والشرف؟ كيف يقبل الجريمة السياسية التي يجب أن يكون أول من يدينها؟

إذا كان صحيحاً ان هناك إدانة فعلية للجريمة السياسية وأنها حقاً تهدد التوافق الوطني فما على هذه المعارضة سوى إبطال مفاعيل هذه الاغتيالات، وباستطاعتها هي وحدها ذلك، بعدم قبول الإستفادة من أي من مفاعيلها بأي شكل من الأشكال. على الأقل..

أتساءل ماذا كان سوف يحدث لو أن من يتم اغتيالهم ينتمون إلى صف قوى المعارضة؟ أما كان سبق لنا ودخلنا دورة النـزاع المسلح؟؟ وتم افلات العنف من عقاله؟

في كل مرة يتم "التنغيم" على أن الاتهام جاهز لجهة واحدة، في تلميح ضمني إلى أن القائم بهذه الأعمال ربما يكون إسرائيل أو حتى الولايات لمتحدة نفسها، وربما ربما تكون قوى 14 آذار هي من تتواطأ مع فرق موت حرفية لكي تصفي من يتيسر من نوابها بهدف الإستفادة من هذه الجريمة، طالما الهم في كل مرة يحصلون

---

(1) النهار/الملحق الاحد 2007/09/23.

على "فائدة ما" من مثل قرارات الامم المتحدة التي تتابع بوتيرة متسارعة تسارع الأحداث نفسها والاغتيالات.

يعني المطلوب بحسب المعارضة أن يحصل الاغتيال وأن تمتنع قوى 14 آذار عن أي رد من أي نوع كان، والا فإنهم متواطئون؟!

وفي هذا موقف مضاد ليس للأخلاق فحسب بل للمنطق أو العقل، إذا كانوا هم وراء موتهم عليهم على الأقل الإستفادة من هذا الموت!!

يمتنع هؤلاء عن قراءة التاريخ وأن مثل التغيرات التي حصلت في لبنان منذ استشهاد الرئيس الحريري حصلت على مستوى عميق و لم يعد ممكنا العودة عنها، وهي طالت فئات لبنانية واسعة أعلنت في مناسبات عدة انها تخطت عتبة الخوف وانها على استعداد لتحمل كافة نتائج الخيارات الوطنية والناضجة ومكابدتها مقابل التوصل إلى سيادة واستقلال وحرية لبنان تامة وغير منقوصة.

إن صمود هذه القوى يجب أن يكون الدليل الواضح على أن الظلم كالذي تعرّض له الحسين نفسه، وهذه الجرائم الإرهابية لم تعد تخيف أحداً ولن تنجح في ترهيب أحد بعد الآن.

السؤال هل للخطابات من معنى؟ عندما يتم التوجه إلى قوى 8 آذار من قبل قائدهم (بيا أشرف الناس). حسناً نسلم إنهم أشرف الناس ولكن هل لهذه الكلمة من معنى محدد؟ هل هي كلمة لها بعد أخلاقي ينتج عنه سلوك مشابه؟

كيف يرتضي أشرف الناس قتل البشر من أجل دفاعهم عن أفكارهم السياسية؟ أليس في هذا خيانة للشرف والأخلاق؟

كيف يمكن لهذه القوى الشريفة والمقاومة أن تستفيد، لأنها مستفيدة طبعاً، من جرائم الاغتيال السياسي التي تشكل جريمة مزدوجة، يتم التخطيط لها بدم بارد وبقصد القضاء على صوت نعارضه في السياسة والموقف. أليس في ذلك تعبير عن منتهى الضعف والخسة؟

ليس الذهاب فقط إلى المجلس النيابـي هو السلوك الوطني، ولا الإقامة فيه هو الذي يقطع الطريق على الجريمة، كما يخبرنا رئيسه، لكن الامتناع عن استخدام ذريعة النصاب وكيفية ادارته والقيام بانتخاب رئيس للجمهورية بأسرع ما يمكن

وإلا يكون الأمر عندها أن السكوت ليس فقط تقبّل للجريمة السياسية بل وانتظار تتابعها والإستفادة من نتائجها التي تهدد كيان الدولة ومصيرها.

ان في هذا تواطؤ مع المجرمين سواء أكانوا من الدول الشقيقة أو العدوة؟ والا تكون المعارضة ترضى وتستفيد إذن من مخطط تقوم إسرائيل بتنفيذه؟

كلمة أخيرة لمن يقف وراء هذه الجرائم المتسلسلة، أسأل أحياناً عن مدى استفادتي من اختصاصي في مجال الاعاقة العقلية، وأجدني أجيب ان استفادتي هي مجرد حكمة بسيطة تعلمتها من هذا الاختصاص هي ان المتخلف عقلياً قد يجيب عندما نسأله واحد + واحد باثنين، ويمكن أن يتوصل إلى حفظ 2+2 = 4. لكن عندما يتعرض لمسألة حسابية جديدة أو أكثر تعقيدا بقليل ونسأله طيب 2 +4؟ يرتبك المتخلف عقلياً ويضيع فنجده يلجأ إلى نفس الإجابة الذي تعلم بواسطة التشريط انها صحيحة، فيجيب نفس الجواب "الصح" أي 4!

على المجرمين والمستبدين أن يكونوا أكثر إبداعاً الآن، لم تعد هذه الاستجابة ملائمة، يجب إيجاد واحدة جديدة لأن القديمة فقدت صلاحيتها..

* * *

الحرب غير المنتهية وصراع الأصوليات[1]
على ضوء المعطيات الديموغرافية في لبنان

في هذه المرحلة التي نعيشها والتي تشكل نوعاً من هدنة كما يبدو، مقارنة بما كان يحصل في بدايات الحرب الأهلية، نجد أنفسنا نعيش الأحداث بما يشبه التذكر، أو كما يقال في علم النفس du déjà vue فالبرغم من التطمينات ومحاولات التلطيف من حجم ونتائج الحوادث الأمنية الأخيرة والذي جاء اتفاق الدوحة ليعلن وقفها؛ لا تزال تطفو الحوادث الأمنية المستمرة على السطح وتشغل وسائل الاعلام. ويبدو ان ما يحصل على الأرض يفوق كثيراً ما يتم ذكره وأن الاستنفار المذهبي والسياسي والأمني مستمر والحوادث المتفرقة مستمرة والخوف والحذر معممان. ولقد سبق أن توقع اللبنانيون في أحد الإحصاءات أخيراً حصول العنف بنسبة 25.48% ونسبة 63.16% توقعت حصول حرب. ذلك يعني أن ما يزيد عن ثلثي اللبنانيين كانوا يتوقعون العنف، وتوقع العنف هو نوع من انتظار له ويمكن أن يكون تقبلاً وتمهيداً أيضاً.

وما يساعد على تفسير ما يحصل أن أحد الاحصاءات التي تجريها مراكز الاحصاء تشير إلى أن نسبة 15% من الشباب يعتبرون ان اللجوء إلى العنف هو أحد الوسائل الديموقراطية!! وتدل هذه المؤشرات على وجود الخوف المتبادل بين مختلف مكونات المجتمع اللبناني، فالمسيحي يعاني من مشاعر الغبن أو "عقدة الذمية" كما يسميها البعض والشيعي يعاني من عقدة الحرمان المتحولة إلى أسطورة وجري استغلالها إلى أن بدأت تنقلب إلى عقدة تفوق وقوة. والسني يعاني الآن من القهر والغضب. ونجد هنا اختلاط العوامل الطائفية بالعوامل الطبقية ما يزيد من فرص بروز العصبيات والغرائز ويعمم الخوف. ولابد أيضاً من الإشارة إلى أن الخوف قد يعبّر عن نفسه بالهجوم وليس فقط بالانسحاب. فعند حصول نزاعات ووجود طرف مبادر أو مهاجم فذلك لا يعني أنه لا يعاني الخوف. إنه الخوف الذي يداريه بالهجوم والاعتداد بالتفوق العددي أو التفوق بالسلاح.

---

(1) أوان.

إن مصادر وأسباب تخوّف اللبنانيين مما هو آت كبيرة إذا عاينّا كيفية تطور الأحداث، فكيف يكون عليه الأمر إذا ما التفتنا إلى عامل كثيراً ما نغفله في تفسيرنا للأمور، وأعني العامل الديموغرافي.

لا بد أن للديموغرافيا ولتقسيم الأعمار إلى فئات، الكثير من التأثير بما يجري حالياً في لبنان. لكن نشير في البداية إلى تاريخنا القريب والبعيد، والمليء بمحطات الصراع والعنف والتحارب. دون أن نغفل اننا لم نتجرأ على مواجهة هذا التاريخ في أي مرة من مرات الصراع التي حصلت بشكل متكرر والتي يمكن أن نسميها بتروما نفسية متكررة ومتعددة الاوجه. ففي كل مرة تطوى الصفحة على "زغل" كما يقال ونسارع إلى القول "عفا الله عما مضى"، ونهرع إلى المصالحة السطحية والتي لا تزيد عن كونها "تبويس في اللحى" وإعادة تقاسم الجبنة. ونستعيد السيرة نفسها مرة بعد أخرى. ولهذا تأثير سلبـــي على الأجيال الفتية التي لا نسمح لها بالتعلم من أخطاء الماضي بل نتركها لكي تتعلم من تجربتها مرة جديدة أيضاً وأيضاً.

هرم الاعمار

لذا ورغم اننا نلاحظ وجود رفض للحرب عند الفئات التي عايشتها وعرفت معناها واختبرتها، لكن يبدو ان نبذ الحرب لا يطال الجميع وخاصة عندما نأخذ فئات الاعمار في لبنان بعين الاعتبار فهناك وجود القادة والمحاربين الجدد الذين لم يسبق لهم أن عاشوا تلك الحرب الأهلية كغيرهم. وعندما نعود إلى الاحصاءات مرة أخرى فهي تعلمنا الكثير الذي يمكن أن يفسر هذه الظاهرة، أي استسهال استعادة تجربة الحسم عن طريق العنف عبر التحارب والاقتتال.

يتوزع السكان في لبنان بحسب الدولية للمعلومات كالتالي: بلغ عدد السكان في العام 2006: 4.571.000 المقيمين فيه 3.800.000. ويتوزع السكان المسجلون كالتالي: 1.336.000 سنّة، 1.333.000 شيعة، 37.00 علويون، 27.000 أقليات أخرى (ما مجموعه 2733000). والباقون 1.838.000 هم من مختلف الطوائف المسيحية.

وإذا نظرنا عن قرب إلى كيفية توزيع أعمار السكان، نجد أن متوسط نسبة من هم دون الأربعين عاماً للبنانيين ككل تبلغ 60.8%. أما نسبة من هم دون الاربعين من المسلمين فتبلغ 72.4% ونسبتهم 27.6% للمسيحيين دون الاربعين أيضاً. وهذا يعلمنا الكثير على ضوء الصراع الحالي الذي يتخذ هذه المرة وجهاً مذهبياً بين المسلمين.

أما من هم دون العشرين من المسلمين السنّة فتبلغ نسبتهم 17.5% وعند الشيعة 17.67%. ما يعني أن نسبة 17.35% تقريبا من المنتمين إلى الطائفتين المذكورتين واللتين يطالهما التنازع الآن هم دون العشرين (ما يعني رؤوس حامية) وممن يجهلون أيضاً معنى الحرب الأهلية و لم يعانوا من ويلاتها و لم يعرفوا عنها إلا عبر ما نقل إليهم بالتواتر أو عبر التعبئة الاعلامية المنحازة. ومن هنا قابليتهم على الحماس والانخراط في العنف لعدم تزويدهم بما يحصنهم وبما يزيد من مناعتهم ضد العنف. فقلد "عفا الله عما مضى" حقاً ولكنه لم يساعدنا بعد على فهمه ونقاشه و لم يزودنا بعد بما يمكننا من مواجهته. وتوقع الخطر يزداد عندما نعطف هذه المعلومات الديموغرافية على خصوصيات المواقف والاتجاهات التي تعبر عنها هذه الفئة، حينها سوف نكتشف الكثير حول المستقبل المشرق الذي ينتظر لبنان وحول امكانيات النـــزاع فيه.

فلقد جاء في نتائج دراسة حديثة أجريت في الصف التاسع في لبنان باشراف وزارة التربية وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي طال موضوع التربية والمواطنة: ان المعارف المدنية لطلبة الصف التاسع (نهاية المرحلة المتوسطة) في لبنان متواضعة نسبياً مقارنة مع زملائهم في الدول 28 (من مختلف دول العالم) للاستقصاء نفسه. وأن إنجازهم في المحتوى المعرفي على هذا الصعيد كان أفضل من انجازهم في المهارات المعرفية. ما يعني ضعف الخبرات العملية والاعتماد على النظريات من ناحية واستسهال إطلاق الشعارات بمعنى الازدواجية وعدم ممارسة ما يعلن عنه.

كما ان معرفتهم بمفاهيم المواطنة الثلاث: الديموقراطية والمواطن الصالح ومسؤوليات الدولة، لم تؤد إلى معرفة الإجابة عن الشروط المسيئة إلى الديموقراطية ربما أيضاً بسبب ضعفهم في المهارات أو الممارسة. أما اهتمامهم بالدولة فلا يطال سوى دورها الأمني لكنه فيما يتعلق بإدراك الدور الاجتماعي لهذه الدولة فهو

ضعيف وغير كاف، ما يترجم فهما للسلطة من جانبها القمعي وليس الانمائي. كذلك بدت ثقتهم بمؤسسات الدولة محدودة سواء اكانت سياسية أو قضائية أو امنية، تقابلها ثقة مرتفعة بالمؤسسات الدينية. وهنا أيضاً يعبّر ذلك عن تجربتهم الحياتية فمعظم احتياجاقم الانمائية تتأمن عبر المؤسسات الطائفية والمذهبية ولو أن هذه الأخيرة تكون مستفيدة في الكثير من الأحيان من موازنات الدولة إلا اها تصرّفها بواسطة مؤسساقا ما يجعل المواطن يعتقد أنه حصل عليها من المؤسسة الطائفية التي ينتمي إليها.

هذا ومع أن النـــزعة الوطنية مرتفعة جدا وكذلك النـــزعة السيادية عند هذه العينة الشبابية إلا أن الإنقسام السياسي حاد أيضاً فالإنقسامات تطال: الزعيم السياسي المفضل (لكل طائفة زعيم) والدولة الصديقة والدولة العدوة. كذلك نلاحظ عدم الاتفاق على قائد تاريخي مفضّل فهو غير موجود في أذهان الطلبة لذلك اختاروا زعماء حاليون وشخصيات عربية أو اجنبية. ما يترجم عدم وجود اتفاق على مكونات وطبيعة وأهداف هذا الوطن الذين يؤكدون حبهم له. وعلى غياب المثالات التي يمكن للاجيال الصاعدة أن تتماهى بها وتجعلها قدوة.

هناك أيضاً توزعاً في الخيارات التي تدل على التماسك الاجتماعي ما يترجم ضعفا في مستوى التماسك: ثلث الطلاب يوافقون على أن الترشيح والاقتراع يجب أن يحظيان بتأييد رجال الدين كما ان ربعهم يوافق على أن الانتخاب يجب أن يتم على اساس عائلي. وهذا يدل على فشل برامج التربية على المواطنية بالقيام بدورها.

64% يوافقون على أن قمتم كل طائفة بتعليم أبنائها وتوفير منح دراسية لهم. وهذا يعني قوة النـــزعة الجمعية (من جماعة وطائفة) والبحث عن الحماية في حضن هذه الجماعة والاعتماد على الطائفة من ناحية كما عن عدم ثقة بالطوائف الأخرى اضافة إلى الدولة بالطبع من ناحية أخرى.

كما وافق ثلاثة ارباع الطلبة على أن توزع الوزارات والوظائف العامة على الزعماء بالتساوي؛ ما يعني القبول بهيمنة الطائفة وزعاماقا على الوطن بمعنى آخر. كما وافق أكثر من النصف على أن توزع الرئاسات الثلاث على زعماء الطوائف الرئيسية الثلاث. الدولة هنا هي مجموعة حصص يتم تقاسمها.

هناك نـــزعة نحو الاختلاط الاجتماعي لكنها تبقى نظرية لأنها تضعف عندما يتعلق الأمر بالزواج المختلط. ما يعني انها الآن كلامية فقط. أما موقفهم من تطبيق القانون فتبرز الإزدواجية مجدداً، لأن ذلك يعني أن على الآخرين تطبيق هذا القانون. اما فيما يتعلق بالذات فالأمر غير واضح. وهذا يعني وجود ضعف على مستوى الضمير الفردي وتغليب الرقابة الخارجية.

يضاف إلى كل ذلك الخلفية العامة التي تسم مجمل الدول العربية وهي انه على الرغم من ازدياد معدلات اتمام مرحلة الدراسة الابتدائية زيادة كبيرة وسريعة جدا بفضل ما يتم القيام به من استثمارات عامة في البلدان العربية، تبدو الامية مستمرة في وجودها وتظل أعداد كبيرة من خريجي الجامعات غير قادرة على الحصول على فرص العمل لشهور أو لسنوات بينما يتذمر أصحاب منشآت الأعمال التجارية من قلة ذوي المهارات المتخصصة وعالية الكفاءة. هذا دون أن ننسى وجود فئة من الشبيبة لا عمل لها سوى القيام بأعمال الحراسة والنـــزول إلى الشوارع عندما تستدعيهم الحاجة. كما ان البطالة لا تزال مرتفعة في هذه الدول وليس هناك أي أفق يمكنه أن يخلق فرص عمل توازي الازدياد السكاني المستمر.

عندما نقوم بتوليف كل ذلك ونضيف إليه كون ان الكثير من القيادات السياسية اللبنانية، وخاصة الميدانية منها، ممن لم يسبق لهم أن عاشوا الحرب الأهلية في منتصف السبعينات وما تلاها يجعلهم يعتقدون باختلاف تجربتهم وتبريرهم لأحقية شعاراتهم وافضليتها ما يشكل داعياً اضافياً لهم من دواعي الانغماس مجدداً في حرب سوف يعتقدون انها مختلفة وأنها رائدة ويغرقهم وهمهم بالقدرة على السيطرة بالسلاح الذي يستندون إليه وبالقوة التي يستعرضونها في مستنقع سبق أن جرّب وسبق أن برهن عن فشله. المشكلة الآن أن تاريخ المقاومة وحصانتها وشرعيتها والمرجعية والمثال التي شكلتها هي التي في الميزان.

المخيف في الأمر وما يزيد المشكلة تعقيداً هو أن لا تتوقف الأوضاع عند هذا الحد، فعندما يتحول الصراع إلى ما بدأ ينـــزلق إليه من صراع مذهبـــي سافر ومع استمرار ممارسات القمع والتخويف والتعذيب التي بدأت الصحافة تفصح عنها، والتهديد العالي النبرة المستعاد، سوف يؤدي كل ذلك إلى مزيد من الخوف والحقد والغضب. ما يعني الخلطة المتفجرة الملائمة لتهيئة الأرضية أمام الأصوليات السنية

مثل تنظيم القاعدة وأشباهه. وما يساعد على كل ذلك النسبة العالية التي أشرنا إليها من الشبيبة تحت سن العشرين عند الطائفتين المتنازعتين، خاصة وأن الموقف المسيحي المنقسم ما بين متفرج محايد على "تقاتل المسلمين" أو منخرط مع فريق 8 آذار في تغطية سياسات حزب الله لا يساعد على تعديل وجهة الأحداث الكارثية أو تهدئتها.

أما إذا ظل الوضع على حاله، فإن من يعتمد في استبعاده لتحول الصراع إلى صراع بين أصوليات، وإلى تحول القاعدة السنية الخائفة من الاعتدال إلى الأصولية إما على عدم قدرة أهل المدن على القتال وإما على جبنهم وتقاعسهم وعدم أهليتهم فنذكره أن بداية السبعينات حفلت بمثل هذا التحليل الذي اعتمد على أن المسيحيين "أنعم" و"أعجز" من أن يقاتلوا، ورأينا كيف برهنت الأحداث اللاحقة على تحوّلهم إلى التسلح والقتال الشرس واستخدام العنف الذي ضرب المثل بوحشيته ودمويته. ونشير أيضاً إلى أن أهل السنة ليسوا كلهم أهل مدن وهذا ما بينته أحداث مخيم نهر البارد الواقع في منطقة عكار الريفية المعدومة، كما تظهره تفاصيل الاحصاءات.

على كل حال لا مجال للاستغراب هنا، ان التطرف يجد شرعيته عندما يقابله تطرف مضاد. والسياسات المتبعة من بعض الأطراف تبدو وكأنها لا تهدف سوى القضاء على عناصر الاعتدال عن الأطراف المناوئة لها!!! ربما لتبرير عنفها والاحتفاظ بسلاحها.

* * *

القسم الثالث

شرعية الدولة الوطنية وحقوق مواطنيها

في صعوبة الانتقال
من الامبراطورية الدينية إلى الدولة الوطنية(1)

لا تستتب الحداثة بالسهولة التي نعتقدها ولا تصل إلى مستوى من التوازن من دون ألم وعنف. لقد استغرقت الحداثة في التجربة الغربية مئات السنين لكي تركز مؤسساتها العلمانية والديمقراطية، ولكي تجد في الدولة - القومية Etat-nation الشكل الملائم للحكم. وهذا الشكل من التنظيم الاجتماعي والسياسي جديد تماماً، فلم يتم إعلاء شأن الدولة الوطنية إلا ابتداء من القرن العشرين بحيث صارت تؤلف الإطار الأساسي الذي تتحد الأمم عبره بمعيار الإرادة السياسية للعيش المشترك أو بمعيار الثقافة المتجانسة والمجانسة في نفس الوقت.

لكن يبدو الانتقال من الولاء للأمبراطوريات الدينية الكبرى، إلى الدولة الوطنية - الحديثة وعرا ويحفل بالعنف. فالتنظيم الذي سبق الحقبة الصناعية، كان ينتظم في تجمعات من اقوام زراعية منتظمة في قبائل وعشائر وجماعات معزولة ودول - مدينة متجاورة دون كبير اتصال حتى لو جمعتها امبراطوريات مقدسة.

النـــزعة القومية الحديثة أو/و الوطنية تنطويان على معنى الولاء والإنتماء والتماهي مع مجموعة أكبر من الجماعة الدينية أو الطائفية أو القبلية. بينما يستند الولاء في المفهوم الأول إلى الجماعة (أو راعي القوم) نجده يستند في المفهوم الثاني إلى الأرض. الأرض بمعنى الدولة - الوطنية أو الجنسية بمعنى الوعاء المادي الحاضن للجماعة. في الدولة الوطنية الحديثة لم تعد الدولة تنتمي إلى السلالة

(1) ان تسمية دولة قومية، تشير أكثر إلى فكرة القومية العربية بمعناها الشامل، لذا من الأفضل استخدام كلمة وطنية من وطني كبديل لـــ Patrie ومعناها المصطلحي الوطن الذي ينتمي إليه الفرد ويعلن الولاء له، أي ما يعادل كلمة قِطْر في مصطلحاتنا الدارجة. لذا سأستخدم دولة- وطنية للدول المعروفة الآن مثل: لبنان، مصر، سوريا، الاردن وتحفظ الدولة القومية للتجمعات الأكبر إذا حصلت في حال الاتحاد بين دولتين أو مجموعة من الدول.

- الحياة: 2008/02/09.

الحاكمة (العثمانيون، الفاطميون..) بل باتت السلالة الحاكمة هي التي تنتمي إلى الدولة.

التمثل القومي أو الوطني هو الأداة الرئيسية في التجسيد الفكري والذهني للهوية في عالم اليوم. لكن هذا التمثل لا يزال يبحث في البلاد العربية عن محور، ترتكز عليه فكرة الإنتماء، الطوعي أو القسري. فالدولة هي التي تقوم أيضاً بخلق الوسيط الثقافي الموحد. وهي تصبح بذلك الأداة التاريخية لخلق ثقافة عليا موحدة ومصانة مركزياً. لكن هذه الدولة الوطنية (التي تسمى قطرية وتتخذ معنى سلبياً مقابل الدولة - الأمة المتخيلة والتي ينبغي أن تغطي الوطن العربي من الخليج إلى المحيط) لم تجد شرعيتها الناجزة بعد في بلادنا.

ان بذورالتناقضات التي صادفت عملية تشكيل الهوية الذاتية في الرقعة العربية تكاد أن تتجسد في التمثل الفكري لثلاثة أنماط من الإنتماء الثقافي للهوية القومية[1]:

يعتمد التمثل الأول الهوية الدينية (الإسلام) أساسا للحدود الثقافية وعلى الأمة الإسلامية إطارا للحدود السياسية. اما الثاني فيبني هوية الإنتماء على الأثنية أو القومية (اللغة، الثقافة العربية). بموازاة ذلك دفعت الإشكالية الوضعية/التاريخية التي تعاني منها هذه الدول التمثل ذاته إلى حده الاقصى، في عودة إلى التاريخ ما قبل الإسلامي، إلى عهد الفراعنة أو الفينيقيين أو امبرطورية سيروس في إيران.

ويتفق التياران، القومي والديني، على عنصرالخصوصية: الدينية هناك والاثنية هنا. الخصوصية بمعنى التفرد والجوهر الثابت والأزلي للجماعة كذات ثقافة جامعة وموحدة. ثمة خوف أو نوع من رهاب من الانمحاء ومن الهزيمة القومية والثقافية، تجذر بعد إحتلال فلسطين وقبل ذلك في الصراع الطويل مع الغرب. تعبر الأنا المجروحة عن نفسها في أزمة الهوية: من نحن؟ من الآخر؟ ما يؤدي إلى اشتداد ميول الانغلاق تحت شعار الخصوصية والاصالة. والتمسك بوهم الدولة القومية الامبرطورية الأزلية الجامعة "للكيانات القطرية الزائلة" من المحيط إلى الخليج.

---

(1) أنظر فالح عبد الجبار، في الأحوال والأهوال، الفرات، بيروت، 2008.

- مبادرة السادات: شرعية الدولة - الوطنية المصرية

أتت مبادرة الرئيس المصري السادات الشهيرة، في هذا السياق، لتشكل السابقة التي أدت إلى تكريس سلام مصريّ - إسرائيلي. أهمية هذه المبادرة تكمن في كونها سابقة على صعيد حق الدولة - الوطنية (المصرية هنا) في أن تكون سيدة نفسها وقرارها وأن يعود لها حصراً أن تعتبر ما هي مصلحة مصر العليا وتكون هذه المصلحة مصدر هذا القرار.

والجديد في هذه المبادرة هو على هذا الصعيد: التعامل مع العالم العربي - أو الوطن العربي، التسمية التي تضمر الوحدة والهوية/الرحم الجامعة لكل مكوناته - بوصفه دولاً مفردة قائمة بذاتها بمعزل عن الأيديولوجيات السائدة ذات النزعات الامبراطورية. تصرفت الدولة المصرية بوصفها الدولة الوطنية أو القومية ذات السيادة على أرضها بالمعنى الحديث للكلمة. دولة - وطنية تقرر مصيرها بمعزل عن "إجماع الأمة العربية" حول موقفها. ومن هنا كان الرفض لهذه المبادرة ونعتها بالخيانة للأمة بالمعنى العريض للكلمة: الدين واللغة والقومية والثقافة.

تتمتع الدولة العربية، بخصوصية وفرادة تشكلان أحد مكوناتها الأساسية، ما شكّل في الواقع مصدر عطبها البنيوي. فلقد ظلت باستمرار ومنذ تأسيسها الحديث عقب الحقبة الكولونيالية في موضع البحث عن شرعية لا يمكن توفيرها والحصول عليها من مصادر تقع خارجها. والمفارق هو ان الدولة العربية المعاصرة ظل ينظر إليها باسم الوعي القومي، وبسبب فقدها للشرعية بشكل كلي أو جزئي منذ الأصل، على انها مجرد مرحلة مؤقتة، وخطوة انتقالية أو تحضيرية أو شر لا بد منه بانتظار تأسيس الدولة القومية العربية الموحدة.

- صدمة انهيار الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية:

إن من يؤرخ لوضعيات العالم الإسلامي الفكرية والثقافية في العشرينات من القرن الأخير، يظهر له سبب هذا الموقف ويكتشف ان صدمة عنيفة أصابت الفكر الإسلامي بعد انهيار الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية. ذلك ما ظهر واضحا في السجالات الاحتجاجية، والتباينات الحادة على مستوى الأفكار والمواقف. ولقد كان تداعي الدولة العثمانية بداية لتحولات وتغيّرات في الاتجاهات: السياسية

والفكرية والاجتماعية مغايرة عما كانت عليه من قبل. فقد تصدعت جغرافية العالم الإسلامي وتفككت، وكان ذلك بداية لتبدل الظروف والاوضاع. واصبحت القوى الأوروبية هي الأكثر تأثيرا على مجريات الأمور. ما جعل العالم العربـــي والإسلامي يواجه أزمة فكرية وسياسية في غاية الخطورة.

كما تراجع مفهوم الجامعة الإسلامية وتقدم مفهوم الجامعة العربية الذي تعزز مع انبعاث الروح القومية عند العرب. وسجل ظهور فكرة القوميات بتنوعاتها العرقية واللغوية، فظهرت فكرة الطورانية عند الاتراك، والفارسية عند الإيرانيين، والعربية عند الشاميين. وقد أخذت هذه الاتجاهات فرصتها في التوسع، وفي التعبير عن ذاتها وخطاباتها ومشروعاتها. وبعد أن كانت الجامعة الإسلامية محاولة للتوحيد والتضامن والتكامل بين العرب والاتراك والإيرانيين والافغان والهنود والافارقة؛ حلّت مكانها الفكرة القومية التي كانت تعبيرا عن الإنقسام والافتراق والتجزئة على اساس القوم والعرق واللغة. واستبدال مفهوم العصبية الدينية بعصبية الجنسية أو الوطنية. لكن الحنين إلى الأمة الإسلامية الجامعة ظل قائما وظل مفهوم الوطن موضع جدال وظل حلم الامبراطورية كامناً.

ان مفهوم الوطن على سبيل المثال، يكاد يختفي تماماً عند ميشيل عفلق في كتابه "في سبيل البعث". ورغم انه يكتسب في الخطاب الناصري مضموناً شبه واضح من حيث التفرقة بين الوطن الأصغر (مصر) والوطن الأكبر (العالم العربـــي) وتطور هذا المعنى بين فلسفة الثورة والميثاق، إلا أن تحديد مضمون الوطن من حيث المعنى الحقوقي المعاصر له والوارد في الفكر السياسي الغربـــي الحديث من حقوق وواجبات الفرد ومسألة الولادة والجنسية والمساواة أمام القانون..، لا تأتي إلا في سياق عابر، وهذا ما جعل مارلين نصر تلاحظ أن مفهوم "الوطن" في الخطاب الناصري يشير إلى:" مكانٍ وموقع أو مجال جغرافي يمتد من المحيط إلى الخليج ومع أن عبد الناصر يشبّه مفهوم الوطن العربـــي في "حقل دلالته" بمفهوم "الأراضي العربية" فإنه مع ذلك ليس أرضاً وليست له أرض خاصة به، وهو استناداً على ذلك لا يعد هدفاً لـــ "السيادة" أو "التملك" إنطلاقاً من أرضية الفكر الحقوقي المعاصر. ويعود عدم اهتمام الفكر القومي العربـــي بتحديد دلالة مصطلح "الوطن" إلى النظر إليه نظرة ضيق ورفضه باعتبار أنه يحمل أحد ملامح التجزئة التي ورثها

الوطن العربـــي وتسبب بها الاستعمار، ما أدى إلى علاقة حرجة في الوعي العربـــي بين الإنتماء القومي والوطنية القطرية. وثمة ما يشبه الاجماع اليوم بين الباحثين والمفكرين القوميين العرب من ان الدولة العربية، أي الدولة - الوطنية، وهي دولة قطرية بحسب اطارها الجغراسياسي وطبيعتها، تشكل أحد العناصر النابذة أو المقاومة للوحدة العربية. ونتج عن ذلك المفارقة المشار اليها: في الوقت الذي قامت الدولة على شرعية ناقصة وأحيانا مفقودة نهائياً، فإن السلطة هي التي تكفلت على طريقتها تجاوز الإشكالية البنيوية للدولة - الوطنية العربية التي هي إشكالية الشرعية. ولما كانت غير قادرة على ردم الفجوة القائمة بين الشرعية المفقودة في الدولة، من جهة، والحيز الجغرافي المحدود التي تتوقف سيادتها عند تخومه، من جهة ثانية، لم يتبق لديها سوى وسيلة البحث عن شرعيتها في الشرعية الوحيدة المتوفرة لديها كسلطة، وهي شرعية احتكار العنف في الداخل. ومن هنا نجد أن الطابع الغالب على الدولة - الوطنية العربية هو كونها دولة - أمنية بامتياز.

لكن الجديد الملاحظ الآن أن الدولة - الوطنية التي طالما عرفت بالقطرية، بدأت تترسخ وبدأ استخدام تعبير "قطري" بالتراجع. وهناك بزوغ وتثبيت للمشاعر الوطنية على صعيد كل دولة عربية على حدة: مصري، مغربي، كويتي، سعودي، لبناني.. وهذا من بوادر بزوغ نظام عربـــي جديد يعترف بالدول الوطنية وشرعيتها ومصالحها الخاصة - نموذج قطر كمثال - والتعامل ببراغماتية سياسية مع المشاكل المطروحة مع الابتعاد عن الشعارات القومية التي لا تزال تحتفظ بها الدولة ذات الحزب الحاكم الواحد: سوريا نموذجاً.

* * *

الدولة الوطنية وإشكالية النظام العربي لبنان نموذجاً[1]

أكثر ما تتجسد لا شرعية الدولة - الأمة أو الدولة - الوطنية في دولة لبنان الذي ينظر إليه كأكثر الكيانات اصطناعاً؟! وإذا ما بحثنا عن السبب في استسهال إلصاق صفة "الاصطناع" هذه ربما لن نجد سوى صغر مساحته!! ذلك ان الدول المجاورة، بما فيها الجمهورية السورية، تشكلت في نفس الوقت ولم يكن لها أي شرعية اضافية على شرعيته أو أي أولوية تاريخية. وما يساعد أيضاً على ذلك اقتناع بعض أبنائه بهذه الصفة والالتحاق الدوري لطائفة من طوائفه وتبعيتها تقريباً بما يشبه الولاء والتبعية التامين لدولة خارجية تارة باسم القومية وتارة باسم الدين وأخرى باسم المذهب...

في كتابه عن الديموقراطية في أميركا كان توكفيل شديد التشاؤم حيال الدول الصغيرة فهو يرى:" إنه ما لم تتوفر للأمم الصغرى شروط خاصة بها فإنها لن تلبث، عاجلاً أو آجلاً، أن تُلحق قسراً بالأمم الكبرى أو أن تتحد معها طوعاً. وهو يعتقد أن ليس في أحوال الأمم ما هو أدعى إلى الرثاء من أمة لا تقوى على الذود عن نفسها ولا تنتج كفايتها.

لكن آرون يجد بحق أن توكفيل يظهر درجة معينة من التشاؤم حيال إمكانية وجود أمم صغيرة ليس لديها قوة الدفاع عن نفسها. ان قراءة هذا النص اليوم تثير بعض الغرابة، بحيث نتساءل ماذا كان سوف يقول كاتبه امام العدد الكبير من الامم الصغيرة التي تبرز وغير القادرة على الدفاع عن نفسها بنفسها؟ ربما يعيد النظر في قراءته هذه ويضيف ان الامم الصغيرة تكون قادرة على البقاء إذا ما توفرت لها الحماية اللازمة من النظام الدولي.

وهذا ما يقوم به النظام الدولي بالذات تجاه العديد من الدول، كما فعل تجاه الكويت مثلاً أو كوسوفو كآخر نموذج.. وهو عين ما يقوم به الآن تجاه لبنان. مساعدة لبنان والاعتراف به كدولة - وطنية ذات شرعية وسيادة واستقلالية دون

---

(1) الحياة، 2008/03/09.

أي لبس. وكما نلاحظ يتصاحب هذا الاعتراف في لبنان بالعنف وبالممانعة التي تنتقل دورياً من طائفة إلى أخرى. الممانعة في مرحلة الناصرية كانت من قبل السُنَّة ولكنها الآن من قبل ممثلي الطائفة الشيعية، أو ما درج على تسميته الشيعية السياسية. ان الدافع إلى هذا الموقف اعتبار أن الدولة اللبنانية لم تقم بدورها في حماية أرضها ولم تتعامل مع الشيعة خاصة كمواطنين لديهم نفس الحقوق والواجبات في وطنهم. من هنا رفع شعار الحرمان، ومقولات عدم فائدة الدولة التي لا تقوم بواجباتها وبالتالي تنتفي الحاجة إلى إظهار الولاء لها. ولقد عالجنا مسألة الحرمان هذه في فصل سابق. كما يجب عدم الخلط بين حدود الدولة الوطنية القائمة عملياً والناجزة وبين النظام السياسي الذي تعتمده هذه الدولة. فالنظام السياسي يمكن العمل على إصلاحه ويمكن تغييره، لكن من غير الممكن في هذه اللحظة لتاريخية عدم الاعتراف بكيان الدولة - الوطنية؛ لذا آن الأوان للاعتراف بالدولة - الوطنية كشكل شرعي ناجز تحتكر الولاء التام. وهنا لا بد من الإشارة السريعة إلى مسألتي الولاء والإنتماء وعدم الخلط بينهما، صحيح أن كل واحد منا ينتمي إلى طائفة ومذهب قسرا حسب قوانين الأحوال الشخصية. ولكن يندرج الإنتماء إلى طائفة ومذهب في إطار تعدد انتماءات الفرد إلى عائلة ومولد ومسكن. لكن ذلك لا يعني خلط الولاء المذهبـــي بالولاء السياسي.

ولفهم خصوصية مستويات الإنتماء المتعددة المذكورة يجب أن نفرق بين الإنتماء appartenance والولاء allegeance الذي ينقلنا إلى ما يتخطى الإنتماءات الاجتماعية كافة ويدخلها في سياق ارتباط وطني وتابعية وحماية. ولقد كانت هذه الكلمة تستخدم تاريخياً من أجل التزام الخضوع التام من قبل الرعية للراعي أو للاقطاعي؛ الا ان الاستخدام تغير في زمن الدولة الحديثة دولة المواطنية والحقوق من الخضوع للفرد، ومهما كان مقامه، إلى الخضوع والإخلاص للوطن نفسه فقط، وللجنسية التي يحملها المواطن.

الولاء الجوهري والأهم للمواطن في الدولة - الوطنية الحديثة يكون تجاه بلده أساساً، وهو الولاء السياسي بالدرجة الأولى. وعندما يفضل أي ولاء آخر فهذا يعني خيانة للوطن والخيانة العظمى الآن ليست سوى خيانة الوطن بالمعنى المعاصر المعطى له كدولة - أمة أو دولة - وطنية.

لكن لا يزال مفهوم الولاء في العالم العربـــي يختلط في الأذهان بأنواع الولاءات الاقطاعية والدينية القديمة و لم يكتسب الولاء للدولة - الوطنية كامل شرعيته أو لم يتم الاعتراف الإرادي الواعي به حتى الآن. هناك امبراطورية متوهمة وخيالية لا تزال تعيش في مخيلة القومي العربـــي والأصولي الإسلامي تجعله لا يعترف بحدود الدولة - الوطنية التي يعيش في كنفها ويحمل جواز سفرها فيستطيع أن يترك بلده (أردن، سعودية، مصر، جزائر..) فيذهب إلى أفغانستان أو ويأتي إلى العراق أو لبنان لمقاتلة أبناء تلك البلدان "الكفرة أو الخونة" للدولة البان - عربية أو بأن - إسلامية الخيالية. وليس أدل على ذلك من الإشارة الدائمة إلى قصور "النظام العربـــي" عن القيام بدوره عند كل أزمة تعصف بدولة عربية ما، فيتحسر المحللون عند اجتياح العراق لعدم تماسك هذا النظام العربـــي الرسمي ولعجز الجامعة العربية التي تشكل الذراع الاستراتيجية لهذا النظام. كذلك الأمر عند اجتياح إسرائيل للبنان في صيف 2006، وقف هذا النظام مرتبكا حائراً وفشل في مساعدة أحد الدول الأعضاء.

أن تعجز الجامعة العربية عن معالجة موقف أوعقد قمة طارئة لمناقشة مسألة الحرب، يعني أنّ النظام المخصّص لحماية أعضائه من التهديدات الخارجية لم يعد فاعلاً. من الواضح أن قدرات النظام العربـــي قد تدنت كثيراً عن توقّعاته. لا بل يمكن القول إن التوقعات المنتظرة منه تعيق تأدية النظام لعمله بشكل فعال طالما أن المطلوب موقف موحد جامع لكل الدول المنتمية إليه دون التخلي عن فكرة "الإجماع" العتيدة. ومن هنا القصور الكلي لعدم إمكانية حصول إجماع بين دول - وطنية متعددة وذات مصالح متناقضة أحياناً؟! وهنا يجب الاعتراف أنّ التمنيات وحدها لا تكفي ولا تستطيع، بناء نظام إقليمي فاعل. ولا يمكن أن تحلّ الرّغبات في الإتحاد والتمنى محل الواقعية التي تشكّل الجزء الأساسي لعمل أي نظام إقليمي. والمفارقة تتعلق بالمعضلة التاريخية المرتبطة بإدراك العالم العربـــي لذاته، وبالتصرف ضمناً وسراً على اساس مصالح الدول الوطنية الضيقة، لكن في العلن تتم المطالبة باحترام الموقف القومي والاجماع وخاصة عندما يتعلق الأمر بدول ضعيفة أو أقل حجماً أو تعاني من إنقسامات داخلية يتم استغلالها.

لقد تبدل الكثير من مفاهيم النظام العربـــي واهدافه منذ أن أنشئت الجامعة العربية في العام 1945، و لم تعد الأحلام الامبراطورية ممكنة في ظل الدول الوطنية

القائمة وذات المصالح غير المتجانسة على الأقل. والمثال على ذلك اتخاذ بعض الدول العربية الكبيرة خلال الحرب على لبنان، مواقف أحدثت صدمة للوهلة الأولى. ولكن تلك المواقف بالذات، مهما بدت غريبة، قد تشكّل نموذجاً لنظام عربـــي جديد بحيث يحلّ العمل الفعلي والبراغماتي أخيرًا مكان الزعامة الهائلة والقيادة الشمولية التي ميّزت النظام العربـــي خلال الستين سنة الماضية والتي شكلت إعاقته في نفس الوقت خاصة عند غياب قائد أو زعيم يتمتع بكاريزما تجعله اقرب إلى الديكتاتور منه إلى رئيس دولة. من المفيد أن نرى ان الواقعية العربية التي لا تغفل القوميات الصغرى (مصرية، اردنية، مغربية، لبنانية، سورية، سعودية...) ربما بدأت تحل محل التفاخر الجماعي. وإن مطلب الوحدة العربية، الضروري حتى من الناحية البراغماتية، لا يمكن تحقيقه إلا إذا أخذت مصالح الشعوب المنضوية في دول – وطنية مستقلة بعين الاعتبار في تطلعات الأنظمة. ولا يمكن أن ينجح النظام العربـــي كعمل جماعي إلا إذا كان يناسب تطلعات كل شعب، وليس رغبات القادة في الخطب والمزايدات من أجل بلوغ السلطة.

لذا التغيير المطلوب لن يحصل سوى عبر الاعتراف بالدولة – الوطنية كإطار نهائي وشرعي لجميع مكونات المجتمع. من هنا أهمية معالجة أزمة الدولة – الوطنية اللبنانية من قبل النظام العربـــي ومساعدتها على الاستقرار وحماية استقلالها كخطوة أولى وكتمرين على إيجاد نظام عربـــي عصري وفاعل يكون الخطوة الأولى نحو اتحاد عربـــي حقيقي يحقق مصالح الدول المنتمية إليه دون إجحاف أو غلبة أو انتهازية.

* * *

زيارة لدمشق... رغم التحذيرات[1]

أنت ذاهبة إلى دمشق؟ أحقاً؟ والآن؟ ما الذي يجبرك على ذلك؟

لاحقني السؤال طوال مدة تحضيري للسفر، وكاد البعض يثنيني عن عزمي ويجعل من رحلتي إليها عملا جريئا يكاد يلامس الطيش.

في المرحلة التي تم فيها اغتيال الشهيد الحريري كنت اراسل صديقا سوريا معارضا وفي خضم الأزمة التي عصفت في البلدين وبينهما، وإن على وتائر مختلفة، أرسل لي يسألني ما إذا كان ما يجري يؤثر على علاقاتي بالسوريين وبسوريا نفسها!!

وكان ان اجبته بأننا كلبنانيين غالبا ما تكون أول رحلة لنا هي إلى دمشق، واول ما نتعرف عليه (معظم الأحيان) من أسواق تقليدية هي سوق الحميدية، يتعرف عليها واحدنا قبل أن نتعرف على أسواق طرابلس التاريخية هي أيضاً بزمن طويل – من المفيد هنا عمل احصاء حول عدد اللبنانيين الذي لم يزوروا الحميدية مقابل من لم يزر منهم سوق طرابلس القديمة الممتعة قط. كذلك تشكل زيارة السيدة زينب، في وعينا وفي لا وعينا، المزار المقدس الأول الذي يتوجه إليه اللبنانيون عامة على اختلاف درجات إيماهم لتحقيق أماني ممكنة أو مستحيلة.

وعند التوجه إلى دمشق لا اعتقد ان اللبناني يحسبه سفرا حقيقياً، كما هو الأمر بالنسبة للاردن أو القاهرة، الها لقرها تكاد أن تكون زيارة لمدينة داخلية.

لذا كنت سعيدة حقاً اني قمت بزيارة دمشق وقابلت اصدقائي وتمتعت بحضور مؤتمر علمي حول الجسد والهوية[2]، جيد التنظيم حيث تعرفت على باحثين/ثات واستفدت من النقاشات والحوارات التي تخللته كما لفتني الحضور المكثف للجلسات والنقاش الغني والجدي.

---

(1) النهار، 2006/02/03.

(2) الجسد والهوية، تمثلات الجسد في الثقافة العربية، ندوة دولية باشراف المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، عقدت بين 12–20 كانون الثاني 2006.

وصلت صبيحة الجمعة، شوارع دمشق هادئة بشكل لا يصدق وقيل لي اليوم الجمعة، غدا سوف ترين الازدحام، لكنها ظلت هادئة، زادت الحركة ولكن من دون زحمة كالتي اعتدنا عليها هنا. الاستقبال كان متفاوتا كما هي الحال في كل الأمكنة. هناك من يرحب بك بحماسة وهناك من يفعل ذلك بشكل اقل، لكن الاصدقاء يغمرونك بلطف ينسيك مشقة السفر وتغيّر آليات النوم وما شابه. قال لي صديق: نحن ندعمكم ومشكلتنا واحدة، ثم اردف مازحاً: من هو رستم غزالي هذا؟ هل هو سوري أصلاً؟

ذلك لا يمنع أن تشعر أحياناً ببعض الحذر وبعض العتب في أحيان أخرى، مستغربين: جعلوا من الحريري أسطورة! أقول ان ظروف اغتياله والدور الذي لعبه استشهاده والحاجة إلى من يجتمع حوله اللبنانيون جعلت منه كذلك وليس الأمر موجها ضد السوريين أو سوريا، إنها مســألة داخلية متعلقة بآليات لبنانية. هناك عدم تفريق بين الإنتماء إلى وطن وبين سياسة النظام الحاكم وممارساته ساهمت فيه وشجعت عليه عنصرية بعض الشعارات اللبنانية وعدم تمييزها بين نظام ومواطنين؛ ومن هنا يسألني السوريون ببراءة: لماذا تخافين؟ انظري، اللبنانيون يأتون دائماً، هناك الآن أكثر من 20 محامياً (مؤتمر اتحاد المحامين العرب!). لا يضعون أنفسهم تماماً مكان من ينتمي إلى المعارضة، ولا يتذكرون مئات المعتقلين مجهولي المصير ولا تزال قضيتهم راهنة حتى الآن، ربما تغيّر الوضع الداخلي وشعورهم بتراخي قبضة القمع جعلا الأمور مختلطة نوعا ما. يغيب عنهم الربط بين تحسّن الوضع الداخلي وبين ما حصل في لبنان. البعض الآخر يشعر بأنه تعرّض للخيانة لا تفهم تماماً هل بسبب الطريقة التي حصلت فيها الأمور أم بسبب الشعور بالتخلي عن تقاسم وطأة النظام المستبد؛ هل هي خيانة تركهم وحدهم للاستبداد والتخلي عن "دعمهم" عبر الخضوع للشروط نفسها أم شيء آخر؟

تشعر ان هناك نوعاً من العتب المتبادل الأمر الذي يحتّم ضرورة العمل للحفاظ على الروابط بين الشعبين السوري واللبناني. وإذا كان تبدل الأنظمة وتغيّر سياساتها من طبيعة الأمور وبديهياتها فإن بقاء البشر هو الأمر الأكثر ثباتا وحتمية، من هنا ضرورة استعادة الثقة وتشجيع الصديق الذي مازحني بشأن رستم غزالي على أن يكون قادراً على استعادة طريق الشام- بيروت التي لم يطأها منذ 14

شباط، فهم يعانون أيضاً من هاجس استقبال اللبنانيين لهم: ماذا لو أساء إليّ أحدهم بكلمة؟ بنظرة؟ تشجيعه يتم بعدم التغاضي عن أي اساءة قد يتعرض لها أي سوري، سواء أكان عاملاً أم غير ذلك.

يجعلني ذلك كله، أكرر ما طرحه عليّ الصديق المعارض السوري حول العمل تحت شعار: "ما تخربه انتهازية السياسيين يرممه وعي الشعوب"، حيث طرحت مبادرة شعبية من أجل سوريا ولبنان قام بها التيار السوري الديموقراطي في بريطانيا عبر الدعوة إلى لقاء شامل للحوار حول صياغة مبادرة شعبية من أجل سوريا ولبنان. وكانت أولى بوادرها جلسة النقاش المفتوحة[1] في لقاء حر حول نقاط تحاول الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ماذا يمكن للمواطن العادي أن يفعله في سبيل التغيير الديموقراطي السلمي وابعاد شبح العنف والتدخل الخارجي؟
- كيف يمكن توثيق العلاقات السورية – اللبنانية بمبادرات شعبية؟
- هل تختلف "الحقيقة من أجل لبنان" عن "الحقيقة من أجل سوريا"؟
- ما هو السبيل لتوظيف وعي الشعوب الغربية بعيداً عن أطماع دولها في حل الأزمة السورية – اللبنانية المتفاقمة والمتداخلة؟

من هنا أشعر اني سعيدة لكوني غلّبت عنادي على التحذيرات اللبنانية الصديقة؛ انها خطوة صغيرة ولكنها ضرورية من أجل كسر حاجز الرهبة والتخوف من أجل استعادة الدفء في العلاقات بين السوريين واللبنانيين والذي لن يشجع عليه سوى الانفتاح والتحدث بصراحة عن الصعوبات المتبادلة والعمل على زيادة مبادرات حوارية متزنة ومنفتحة وإقامة ورش عمل في مواضيع المواطنية والديموقراطية وبناء المجتمع المدني وطرق الممانعة لكل الآليات التي يستخدمها الاستبداد، من مثل الشائعات التي راجت في بداية توتير العلاقات عن سيدات شُتمن في الأسواق وعن سوء استقبال وما شابه. وهذا يتطلب من اللبناني الفصل بوضوح بين المواطن – إلى أي جنسية انتمى– والنظام الحاكم في بلده.

(1) عبد الوهاب بدرخان – نائب رئيس تحرير صحيفة الحياة اللبنانية، د. محيي الدين اللاذقاني – كاتب واعلامي سوري، مصطفى كردي– حزب الوحدة الديمقراطي الكردي، أنس العبدي – حركة العدالة والبناء السورية ونقلتها مباشرة قناة الجزيرة في 2006/01/14.

لا ننسى اننا بشر وعلينا النظر في عيون الآخرين ككائنات إنسانية تجمعنا معهم معاناة مشتركة خضعت لها جميع الشعوب العربية على درجات، ومستقبل يمكن أن يكون واعدا لكلا الشعبين إذا ما تضافرت جهود الديموقراطيين من الجانبين.

* * *

عن السجناء السياسيين في سوريا: مقارنات[1]

تابعنا جميعاً الأزمة الديبلوماسية التي حصلت منذ فترة قريبة بين الصين واليابان عندما قلّل رئيس الوزرء الياباني من أهمية طلب الصينيين الاعتذار عما ورد في كتاب التاريخ الذي اعتمد حديثا في اليابان وقلل من أهمية الجرائم التي ارتكبتها الأخيرة بحق الشعب الصيني. وكان سبق ان أدين الامبراطور هيروهيتو والدولة اليابانية رمزياً بجريمة الاستعباد الجنسي التي تعرضت لها 200 ألف امرأة خلال الحرب العالمية الثانية من جانب "المحكمة النسائية لمكافحة الاستعباد الجنسي".

هذا دليل آخر على أن جرائم الحرب لا يعفو عنها الزمن ويحق للضحايا الذين تعرضوا للعنف والتعذيب والاعتقال المطالبة بالتعويض وبمحاكمة المجرمين الذين ارتكبوا هذه الجرائم مهما امتد بهم الزمن ومهما علا مركزهم.

كذلك نشرت جريدة الحياة في العام 2000 التقرير الذي كتبه 25 أستاذاً جامعياً (عرباً ويهوداً) إلى باراك يطالبون فيه إنهاء تهميش الأقلية العربية ومساواتها باليهود. وجاء في هذا التقرير وفي حيثيات تبرير مطالب الأساتذة ما يأتي:" إن إسرائيل لم تعترف حتى شكلياً بمأساة العرب الذين عاشوا حرب 1948، و لم تظهر حتى الآن تعاطفاً مع كون هؤلاء المواطنين وجدوا أنفسهم بعد الحرب رعايا دولة فُرضت عليهم ولا تمثل حلمهم السياسي، بل، وفي الواقع قامت على أنقاضهم وهذا التجاهل الرسمي لمعاناة العرب يعمّق شعورهم بالاغتراب وإنهم على الهامش".

كذلك كانت تقارير منظمة العفو الدولية قد اشارت" إلى أن الأفعال التي حصلت في معتقل الخيام جرائم حرب ومحاكمة المسؤولين عنها ضرورة واجبة". وقضية المعتقلين الاسرى السابقين (والموجودين حالياً) لا تزال حية وخاضعة للمساءلة والمتابعة والنقاش خاصة ان أوضاع هؤلاء الاسرى المحررين لم تسوّ بعد

---

(1) النهار، 2005/06/26.

بالشكل الذي يساعدهم على تخطي المشاكل العديدة التي تعرضوا لها بسبب السجن والاعتقال.

وهنا لا بد من الإشارة إلى المسجونين اللبنانيين في السجون السورية والذين تم تجاهلهم طويلاً بسبب الخوف من مجرد الإشارة إليهم تحسبا للقمع والملاحقة الممكنين وخاصة ان صفة العمالة – التي يسهل اطلاقها من جانب انظمتنا الأمنية ومخابراتها على كل من يعارضها أو يقف في طريقها – هي الصفة الملازمة لهؤلاء المسجونين.

تشيع ممارسات السجن التعسفي والتعذيب في الوقت الحاضر في نصف بلدان العالم بما فيها بعض البلدان الغربية بحسب بعض الدراسات، وينتمي ضحايا التعذيب إلى بلدان أميركا اللاتينية وآسيا وأفريقيا وخاصة، ولنشدد على خاصة هذه، في الشرق الأوسط. وقد يتبادر إلى الذهن ان هذا التشديد يتعلق فقط بما تقوم به إسرائيل من تنكيل وتعذيب وانتهاك لكل القوانين الدولية لحقوق الإنسان، إذ يكفي أنها تحتل أراضي بلد آخر، وحدث هذا منذ منتصف القرن العشرين حتى الآن، بداية القرن الحادي والعشرين. وصحيح ان ممارسات إسرائيل تعد من أكثر الممارسات جرمية ويجدر إدانتها من جميع بلدان العالم.

لكن اللافت، والذي يحمّلنا مسؤولية أكبر مما نعتقد، أن هذه الممارسات التي تحصل في الشرق الأوسط لا تقتصر على ما تقوم به إسرائيل (كدولة عنصرية محتلة لأراضي الغير) بل تشمل ما تقوم به الأنظمة العربية مجتمعة (وليس فقط النظام السابق لصدام حسين الذي ترك من العراقيين تحت الأرض أكثر مما ترك فوقها)، تلك الأنظمة الاستبدادية التي ترفع الشعارات القومية والوطنية والتحرير أو محاربة الإرهاب والأصولية، كذريعة تغطي بها ممارسات وحشية وأنواع من التعذيب والتنكيل تطاول من المواطنين العرب كل من يرفض ممارسات الاضطهاد والقمع الفكري والقضاء على حرية الرأي.

والأمر اللافت أن المعارض العربي يتعرّض لأبشع أنواع الاضطهاد والتنكيل من دون أن يطاوله شرف أن يكون معارضاً كما حصل مع المناضل الإفريقي نلسون مانديلا مثلاً، بل هو إرهابي أو مخرب أو خائن، ويمكن مراجعة أدبيات منظمة العفو الدولية وتقاريرها التي تتابع الوضع في البلدان العربية وتشير إلى

الممارسات المناهضة لحقوق الإنسان البديهية في جميع البلدان العربية ما عدا سلطنة عُمان! وأشارت إلى أن سياسة محاربة الإرهاب التي تشجع عليها الولايات المتحدة تشكل غطاء لكل ممارسات القمع وانتهاك حقوق الإنسان.

وهكذا من الملاحظ أن المواطن العربـــي يتعرض للتعذيب والاضطهاد من جانب أنظمته التي تمثله و"ينتخبها" مثلها في ذلك مثل النظام القمعي والعنصري الإسرائيلي، وكأن هناك وحدة مصالح ووحدة مصير.

ما لفت نظري عندما تابعت قضية الاسرى المحررين وكتبت عنها وقمت بدراسة بعض الحالات مع طلابي، كان الحرج الذي شعرنا به جميعاً امام كيفية وصفهم ووصف معاناتهم النفسية، وهل يمكن أن نسمي الأشياء بأسمائها ونقول ان هؤلاء الأبطال يعانون فعلا من اضطرابات وامراض نفسية وغيرها؟ كيف سوف يؤثر هذا على صورتهم أمام أنفسهم وأمام الآخرين وعلى نفسيتهم وما شابه من الاسئلة التي قد تخدش صورتنا عن المقاوم البطل؛ وقد تم تخطي هذه الاشكالات والقبول نوعا ما بأهمية الاعتراف بمشاكلنا كي نستطيع مواجهتها وحلها وأن المرض أو الاضطراب النفسي ليس خطيئة أو عيباً، هو تعبير عن وضعية صعبة ويمكن تخطيها بتلقي المساعدة الملائمة.

الحرج الذي الاحظه الآن هو في كيفية التعامل مع ملف المسجونين في سوريا ولن أقول اللبنانيين فالمساجين من السوريين أكبر عدداً، فهل يمكن أن نشير إلى أن سجنهم غير مبرر وضد القانون؟ حتى لو كانوا حقاً متهمين بالتعامل مع العدو وكلنا نعلم انها تهمة باطلة في الغالبية العظمى للحالات، فإن سجنهم بالطريقة التي يتم بها وفي الظروف التي يخضعون لها وتغييب حقهم في محاكمة عادلة عدا عن تعذيبهم، كل هذه تعد ممارسات ضد القانون.

المسألة الأخرى التي لا تولى العناية الملائمة هي ان من يتعرض للسجن على يد الإسرائيليين وبالرغم من الظروف غير الإنسانية القصوى التي يعاني منها يظل يجد ان سجنه مبرر امام نفسه مما يعطيه بعض القوة على تحمل الاضطهاد لأن من سجنه هو العدو أي انه سجن من أجل قضية عادلة! وعندما يخرج يعامل معاملة الأبطال؛ عدا عن انهم معروفون ومتابَعون من جانب الصليب الاحمر والمنظمات الدولية وهذا يشكل ضمانة الحد الأدنى لحمايتهم من التوحش الإسرائيلي مما يساعدهم

على احتمال السجن ومقاومة آثاره المدمرة وعلى تخطي الظروف الصعبة وما ينتج عنها عند خروجهم من السجن.

أما المسجونون في سوريا أو في سجون الأنظمة الحاكمة في البلدان العربية فإن وضعهم أكثر صعوبة، لأنهم بالاضافة إلى أنواع التعذيب وسوء المعاملة القصوى غالبا ما لا يعترف بوجودهم، فهم كالاحياء الاموات وهذا ما يزيد وضعهم سوءا ويزيد من المعاناة وآثارها المدمرة على إنسانيتهم وتوازنهم. ومن ثم بالاضافة إلى كل ذلك نجد أنهم عندما يخرجون من مثل هذه السجون فإنهم لن يلقوا المعاملة الطيبة كالتي يلقاها بطلنا المقاوم والمعترف به كذلك. فهم اما خارجون عن القانون واما سياسيون معارضون خطرون يخيفون من حولهم واما عملاء يجدر بالآخرين ازدراءهم وبالتالي تزداد معاناتهم وعدم تأقلمهم في وضعيتهم الجديدة ولا يعودون قادرين على الشفاء من جروحهم القاتلة. هذا عدا عن انهم لا يمكن أن يغفروا الظلم الذي تعرضوا له من جانب إما "الشقيق" وإما الحاكم الذي يفترض به حمايتهم وتأمين حقوقهم وتمثيلها.

وقد أشار لي أحد الاصدقاء الذين سبق أن تعرضوا للاعتقال (الموقت فقط!) في سوريا إلى أن ما يخيف في مثل هذا التوقيف القسري الشقيق هو كونه بلا هدف ولا أي مبرر ولا حدود تقف امام السلطة المطلقة التي يمارسون عبرها ما شاؤوا من التعذيب والتنكيل أو حتى الاخفاء وعدم الاعتراف بوجودك! فالهدف هو إثارة الرعب والخوف وتأديب الآخرين.

وما يدعم ذلك دراسة أعدها باحثون من الجامعة الأميركية تناولت الأثر النفسي والجسدي على المعتقلين اللبنانيين المحررين (نشرت في "النهار" عام 2000)، تبين أن الدعم الاجتماعي الذي يحصل عليه المعتقلون المحررون يفوق الدعم الذي تحصل عليه المجموعة الشاهدة التي قورن السجناء المحررون بها وأن حياتهم أكثر غنى مما هي عليه تلك المجموعة؛ لكن مع ذلك نسبة عالية منهم تعاني ضغوطاً نفسية واحباطاً وقلقاً وتوتراً. مع العلم، كما تشير الدراسة، أن نسبة القلق والاكتئاب مرتفعة لدى الشعب اللبناني مقارنة بالدول الأخرى.

وإذا كان من اعتقل في إسرائيل يلقى الدعم الاجتماعي على الأقل فإن المعتقل في السجون العربية لا يلقى حتى الاعتراف به أو بحقوقه وقد سبق للكاتب الياباني

نوتوهارا أن أشار إلى أن "الناس هنا لا يكترثون أو يشعرون بأي مسؤولية تجاه السجناء السياسيين، الأفراد الشجعان الذين ضحوا من أجل الشعب، ويتصرفون مع قضية السجين السياسي على أنها قضية فردية وعلى أسرة السجين وحدها أن تواجه أعباءها. وفي هذا برأيه أخطر مظاهر عدم الشعور بالمسؤولية". ويعطي مثلاً عن زياراته الخمس إلى تدمر في سوريا، دون أن يعرف ان فيها سجناً مشهوراً وهو حتى الآن لا يعرف موقع هذا السجن بسبب الخوف الذي يحيط به بالطبع. فعند السؤال عن سجن ما يخاف الشخص ويهرب، كأن الأمر يتعلق بسؤال عن ممنوع أو محرّم. الخوف يمنع المواطن العادي من كشف حقائق حياته الملموسة. وهكذا تضيع الحقيقة وتذهب إلى المقابر مع أصحابها. الناس في العالم العربـــي يعيشون فقط، بسبب خيبة آمالهم وبسبب الإحساس باللاجدوى أو اليأس الكامل، وعدم الايمان بفائدة أي عمل سياسي.

ويستخدم التعذيب كأداة سياسية تمكّن الحكام من السيطرة على مجريات الأحداث، خاصة عندما تشعر دولة ما أنها مهددة في شرعيتها من قبل من تسميهم الأعداء الداخليين أو الخارجيين فتلجأ إلى التعذيب المنظم لقمع المعارضة. وهو من سمات الدول ذات الحزب الحاكم الواحد لكن ذلك لا يمنع أن بعض البلدان الديموقراطية تلجأ إلى التعذيب.

وتتخيل الدول طرق تعذيب مبتكرة وهو قد يمارس في أماكن ومراكز شرطة قريبة من مراكز السكن ومعروفة، كما كان عليه الأمر في بيروت ولكنه قد يتم أيضاً في أماكن مجهولة. ونجد من ضحايا التعذيب شخصيات مرموقة ناضلت ضد الطغيان ومن أجل الديموقراطية في بلادها أو انهم ينتمون إلى أقليات عرقية أو ثقافية. والناجون من التعذيب هم غالباً مسؤولون نقابيون أو صحافيون أو مدافعون عن حقوق الإنسان أو قادة جامعيون...

الهدف من التعذيب محو الفرد، فهو قد يحطم شخصية الضحية على نحو يغيّر حياته الخاصة والاجتماعية إلى درجة انه قد يحط منها تماماً. والمشكلة أن التعذيب لا يتوقف حتى عندما تنتزع المعلومات من الضحية. فرغبة الجلادين هي تحطيم إرادة الضحية وجعل الشخص "ميتاً حياً". كما انهم قد ينجحون في جعلهم مخبرين. ومن أهدافه أيضاً التطهير العرقي. أما النظام العراقي فقد استخدمه للترهيب

والقمع واخافة السكان وترويعهم من أجل السيطرة عليهم وعلى مقدرات البلد وقد نجح في ذلك لمدة تزيد عن 35 عاماً.

ما هي الآثار النفسية والجسدية لهذا التعذيب؟

ان الانعكاسات النفسية بعد التعذيب هي أكثر ما يجعل الإنسان عاجزاً، فهي ردود فعل عميقة ومؤثرة. بالطبع لم تتوضح بعد آثار التعذيب النفسي تماماً على الضحية، لكن لا شك أن ردود الفعل تختلف باختلاف عوامل السن والجنس والخلفية الثقافية ومدى الاقتناع السياسي بجدوى هذا الاعتقال كأن نكون جزءاً من مقاومة العدو، لكن ان نكون ضحايا حكوماتنا أو حكومة الاشقاء فما هو المبرر لذلك؟

وقد قام باحثان أوستراليان بتحليل منشورات 12 مركزاً لإعادة تأهيل اللاجئين في أوروبا الغربية وأميركا الشمالية فأمكنهما أن يلاحظا ان الضحايا يعانون من أعراض نفسية مزمنة وأنهم يتعرضون لجروح خطيرة اثناء التعذيب لا يتم التبليغ عنها. كذلك وجدت دراسة دانماركية أن أكثر السمات التي تتبع التعذيب بروزاً هي الكوابيس المتواترة والأعراض الانفعالية (القلق والاكتئاب المزمنان) والإحساس الذاتي بتغيّر الهوية، ولم يقفوا على حالات شفاء تلقائي (من دون علاج) عند من تم فحصهم. وقد تمرّ أشهر وسنوات قبل أن تظهر على الناجين من التعذيب أعراض ردود الفعل النفسية إذ تستنفدهم الطاقة الضخمة التي يبذلونها من أجل تدبر أمورهم والهرب من بلادهم كما الاهتمام بسلامة عائلاتهم ولمّ شملها وتدبير أحوالهم في البلدان التي يلجأون إليها. فلا تبدأ ردود فعلهم في الظهور إلا عندما يحصلون على اللجوء ويتوافر لهم بعض الاستقرار. كما أن ضحايا التعذيب، شأنهم شأن المساجين، يصبحون شديدي التحفظ لأنهم يخشون إلحاق الضرر بأقربائهم الباقين في بلدهم. وهو قد يشعر بالذنب لأنه يشعر بنفسه مسؤولاً عما آلت إليه أحوال أبنائه وزوجته. من هنا نجد أن خطر الانتحار يكون ماثلاً.

في ما عدا ذلك يمثل القلق ومشاكل الأرق والكوابيس ثالوثاً شديد الوطأة والتواتر. فنومهم سيء بشكل عام، متقطع وسطحي وقد لا يدوم لأكثر من 3 أو 4 ساعات متوالية. وقد يكون اضطرارهم إلى إجراء معاملات حيث يتواجد

أشخاص بزيهم الرسمي أكثر باعث على القلق في نفوسهم؛ فهم يصابون بالذعر وقد لا يصلون في الموعد...

وهم لا يشاركون الآخرين بما عاشوه، فيعيشون الذكريات وحدهم ويخافون تالياً من الإصابة بالجنون. والناجي من التعذيب يلازمه شعور آخر بالذنب، فهو يسأل نفسه دائماً لَمَ نجوت فيما الآخر (أو الآخرون) مات؟ وقد يكون للشعور بالذنب أسباب أخرى تتعلق بما تعرضت له عائلته فعلياً مثل إيقافهم أو تعذيبهم وقتلهم.

أما آثار التعذيب الجسدي، فتنعكس أمراضاً مزمنة والتهاباً في الكبد واسهالا وتهيجاً في القولون والأمراض الصدرية المزمنة التي قد تنتهي بالموت. وهناك آثار نفسية مباشرة وأخرى تظهر بعد مدة، في الأذنين والأنف والحنجرة وفي الأسنان والقلب (3 من 4) والقناة الهضمية (70% منهم يعانون منها)، والجهاز البولي والتناسلي والجهاز العصبي المركزي والعصبي المحيط...

لكن الأمر لا يتعلق بمعاناة الناجي من التعذيب وحده، فبعد الحرب العالمية الثانية تمت ملاحظة أن الصمت، أو ما لا نقوله عن الأحداث المسببة للصدمة النفسية تؤثر في الأطفال رغم ذلك فينتحل هؤلاء قصص الآباء ويختلقون الاستيهامات حولها وحول "الأسرار العائلية". فالإحساس بالخجل ينقل إلى الأطفال بشكل لا واعٍ. ولقد تسنى ملاحظة أن تجارب التروما التي تعرض لها الأهل تطبع الأطفال. خاصة أن التوقيف الشرس والعنيف لأحد الوالدين، أو لكليهما، يحصل امام أعينهم فيترك آثاراً بالغة العمق. وينجم عنها عذاب نفسي للأطفال ويصبحون ضحية تصوراتهم وخيالاتهم التي قد تكون أكثر فظاعة من الواقع.

وقد تبين من فحص أبناء الناجين من التعذيب أنهم يوسمون بعلامة أو أكثر ذات دلالة على إصابتهم باختلال نفسي. كما لوحظ أن القلق كان سمة عامة وقد عانى أكثر الأطفال من القلق المرتبط بأشياء واقعية مثل الظلام والحرب والقنابل والأسلحة والطائرات والماء والارتفاع، في حين اشتكى آخرون من الصداع والمغص ووجع الأطراف والاضطراب في النوم، كما سجل الاكتئاب والنكوص. كما يجد هؤلاء الأطفال صعوبة في التركيز في دراستهم.

من هنا ضرورة الاعتراف بوجود سجنائنا في سوريا وبالاعتذار منهم ودعمهم ومحاكمتهم محاكمة عادلة في بلدهم عند ادانتهم بجرم ما ومحاكمة سجانيهم إذا ما تبينت براءتهم من التهم الموجهة إليهم عندما توجد!!

أخيراً من المهم لفت الانتباه إلى اننا نعيش في أكثر المناطق عرضة لانتهاك حقوق الإنسان، مثل السجن والتعذيب والاضطهاد وقمع حرية الرأي، ونحن مع ذلك أقل الناس معرفة بما يجري حولنا. فهل نسأل أنفسنا عن الأجيال التي نساهم في عذابها النفسي وعدم تكيّفها مستقبلاً خاصة بعدما علمنا عن الممارسات التي تحصل في بلدنا وفي بلد شديد القرب ومع ذلك تغافلنا وصمتنا؟

الصمت بسبب القمع يلفنا من جميع الجهات وعندما نتجرأ على الكتابة إما أن ننعت بالعمالة والخيانة وببيع أنفسنا، لكن من غير الواضح من الذي يشتري هذه الأنفس حتى الآن وأين يذهب ثمنها وما هي مصلحته؟ أو يكون الاغتيال حصته كما حصل للشهيد سمير قصير الذي اهدي هذه المقالة إلى روحه التي اتمنى أن تبث فينا بعض التمرد والقليل من الأحلام لكي نسعى إلى تحقيق بعض ما اراده لهذا الوطن.

في ضرورة الحد من إستغلال قوى الاستبداد للحرية القائمة في الديموقراطيات الغربية[1]

تصف مختلف انواع النظم السياسية في العالم نفسها اليوم بالديموقراطية. غير أن ممارساتها كثيراً ما تكون متباينة بشكل جوهري بين نظام وآخر. الديموقراطية، التي تعني صيغة للحكم تكون فيها السلطة للشعب بدلاً من الملوك والطبقات الاريستوقراطية تستتبع بالضرورة وجود جماعة يتمتع أفرادها بنوع من المساواة السياسية.

بالنسبة لمونتيسكيو، يمكن للنظامين الملكي والجمهوري أن يكونا معتدلين حيث يتم الحفاظ على الحرية. بينما نجد أن الاستبداد هو جوهرياً نظام اعتباطي لفرد أو حزب واحد وليس نظاما معتدلا ولا يمكن أن يكون كذلك. ففي ظل حكومات الاستبداد لا داعي لتغليف الاحكام القانونية بصيغ استثنائية: إذ لا يحتاج المستبد الذي باسمه يُقاضى المتهم إلى أي ضمانة للمقاضاة غير سلطانه المعترف به.

إن التعبير الأول الذي يتكون منه مفهوم الحرية، هو غياب التعسف أو الاعتباط. فعندما لا تمارس السلطة الا إنطلاقاً من القوانين، يمكن للأفراد أن يصبحوا آمنين.

ونصوص القوانين التي شكلت المبادئ العامة التي ترتكز عليها الدساتير المعاصرة أقرت جميعها حق الشعب في التدخل في الشؤون السياسية، والاقتراع الحر بشأن الضرائب ولاختيار ممثليهم السياسيين. كما أقرت مسؤولية السلطة عن أعمالها وضرورة محاسبتها بالاضافة إلى الحرية الفردية.

وإذا كانت هذه هي شروط الحرية والديموقراطية في الغرب فمن المؤسف ان انظمة العالم الثالث التي تتسم بالشمولية والاستبداد في معظمها والتي تخاف من ممارسة الشعب لحقه السياسي وتسمّي كل سلوك لا ترضى عنه "بالتدخل في

(1) نشر في مجلة الأفق عدد 8.

السياسة" وكأنه ذنب واعتداء على حقوق محتكري السلطة ووارثيها. هذه الأنظمة نفسها تستفيد من انفتاح الديموقراطيات الغربية لكي تمارس، إما البروباغندا لتحسين صورتها واظهار تفوقها "البلاغي" أو من أجل استيعاب مشاكلها الداخلية خاصة عبر إظهار قدرة ساستها في الفصاحة.

ولدينا مثالين على هذه الممارسة التي تستغل المناخ الديموقراطي لمصالحها الخاصة: الأولى تمثلت في زيارة الرئيس الإيراني إلى الولايات المتحدة - وهي ليست الأولى- ومحاضرته الشهيرة في جامعة كولومبيا، والثانية في الضغط الذي يمارسه النظام السوري على المعارضة في الداخل والخارج.

زيارة نجاد إلى الولايات المتحدة وضغط النظام السوري على معارضيه

شكلت زيارة نجاد مادة دسمة للكثير من التعليقات في حينها؛ فلاحظ البعض دون أي احتشام أن الرئيس الإيرانيّ «دحض دسائس أميركا»، وأنه «ردّ لهم الصاع صاعين»، و«أفحمهم» بقدرته على النقاش لتحسين صورته والتهرب من تصريحاته النارية التي تلهب جماهيره في الداخل الإيراني. وذريعة هؤلاء حجج تستخدم تعابير بائدة تعود إلى قيم وعادات وتقاليد لما يسمونه ضيافة وكرم أو حسن أخلاق، منتقدين رئيس جامعة كولومبيا على "قلة تهذيبه" ومستنتجين أن النقاش الذي جرى مع رئيسهم في صرح جامعة كولومبيا كان نقاشاً «مسيّساً». فالسياسة التي لا تشكل سوى "تهديد" بالنسبة إليهم بينما الحرية السياسية هي جوهر الديموقراطيات الغربية، وممارستها حق وواجب. في المقابل، وعندما أراد هؤلاء الجامعيون الإيرانيون أن يمارسوا "ديموقراطيتهم" وانفتاحهم، دعوا رئيس جامعة كولومبيا، واضعين له جدولاً مسبقاً لبرنامج النقاش وللمواضيع التي "يستطيع" أن يتطرق إليها، وحدّدوها بعشرة اسئلة سياسية بامتياز، تتراوح بين أسباب دعم أميركا لصدام حسين في حربه مع إيران و«سر» العجز الأميركي عن العثور على اسامة بن لادن! وفي ذلك ما يشبه العثرة الكلامية الفرويدية التي تفضح ما تعتبره المؤسسات الاكاديمية في إيران وظيفتها الحقيقية، أي كونها بوقاً "سياسياً" للنظام تنتهي حرية عملها "الأكاديمي و"الفكري" عند حدود المصلحة الحكومية،

وهو ما يمنعها من إثارة سجن أكاديميين بتهمة "التجسس" والتغاضي عن عمليات «التنظيف» التي أمر رأس النظام بالقيام بها في الجامعات الإيرانية في السنتين الماضيتين. وشهدت على ذلك الصدامات بين طلاب مؤيدين للرئيس الإيراني محمود احمدي نجاد، وعشرات من زملائهم الليبيراليين الذين تظاهروا مطالبين بإطلاق ثلاثة من رفاقهم المسجونين منذ أشهر، بسبب إصدارهم منشورات مناهضة للملالي. كذلك يقبل هؤلاء الجامعيون منع شرطة مكافحة الشغب المتظاهرين الذين رددوا شعارات مناهضة لنجاد، من الخروج إلى الشارع. ومطلب هؤلاء كان رفض الازدواجية الممارسة إذ رفعوا لافتة كتبوا عليها: «لماذا في كولومبيا فقط؟ نحن لدينا أسئلة أيضاً».

إذن في الوقت الذي ينتقدون فيه جامعة كولومبيا على اخلالها "بحسن الضيافة" تفرض قوى الأمن الإيرانية إجراءات استثنائية خلال إلقاء الرئيس الإيراني خطابه، وتمنع أي شخص من دخول الحرم الجامعي ما لم يكن حاملاً بطاقة طالب، كما منعت الطلاب «غير المدعوين» من الاقتراب من القاعة التي كان فيها نجاد. أليس الأمر يتعلق دائماً باللياقة وشروط الضيافة!؟

السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يمكن أن يقبل العقل هذه الممارسات المزدوجة التي تسمح بوقوف الرئيس الإيراني محمود احمدي نجاد على منصة جامعة كولومبيا الأميركية وأن يعد ذلك ممارسة معتادة وهو حق له وواجب (والأمر نفسه تقوم به كثير من التنظيمات والحركات الراديكالية التي تعتبر المنابر الغربية، الاعلامية والاكاديمية، ساحة مباحة لممارسة نشاطاتها الدعائية والسياسية). في نفس الوقت الذي تُشتم فيه الغرب لتحيزه الأعمى ولا يسمح للمختلفين مع الشتائم وأسلوبها حتى التعبير عن أنفسهم.

الاسوأ من كل ذلك هو عدم تورع الأنظمة الاستبدادية (وبعض التيارات الراديكالية ذات الأفق الأحادي) عن رصد نشاط معارضيها في الخارج وممارسة جميع انواع الترهيب ضدهم. فعند كتابة أي مقال أو القيام بأي نشاط يفضح ممارسات الاستبداد، لا تتورّع الأنظمة المعنية عن السعي لمقاضاة الكتّاب أو التهديد بذلك وسوق الاتهامات المالية والأخلاقية التشكيكية بهم لإسكاتهم حتى في الغرب حيث الكلام حقهم وحرية التعبير تحميهم...

المسؤولية الغربية

من هنا، نرى أن مسؤولية الأنظمة الغربية مزدوجة. فهي أولاً في حماية الديموقراطيين الذين يلجأون إليها، وثانياً في حماية قوانينها من الاستغلال من قبل الأنظمة الاستبدادية وامتداداتها التي تبرع في استخدامها لكي تزيد من تحصين نفسها ضد أي إمكانية تغيير سياسي. وقد سبق لتوكفيل ان اكتشف في القرن التاسع عشر ان سر نجاح القضاء الأميركي في الحفاظ على الديموقراطية يكمن في احترام الحدود المرسومة للسلطة الممنوحة للمحاكم الأميركية في الإعلان عن عدم دستورية القوانين مما يحول دون طغيان المجالس السياسية.

فمتى يتم منع حصول مثل هذا الاستغلال المؤذي من قبل انظمة الاستبداد لروح القوانين "الغربية" من أجل ممارسة القمع والتهديد لكل من يطالب بمجرد حريته في التعبير وفي الممارسة السياسية!

ونرى أيضاً مسؤولية كبرى على "الأنظمة الغربية" التي تغلّب الانفتاح والمصالح الاقتصادية أو السياسية الآنية على المبادئ الكبرى التي تنسبها إلى نفسها. ونجدها تغض الطرف في الكثير من الأحيان عن ممارسات القمع الوحشية التي تبرع الأنظمة الاستبدادية في اختيار التوقيت المناسب لتنفيذها. فنلاحظ مثلاً ان مقابل كل خطوة انفتاح تقوم بها فرنسا في الآونة الأخيرة تجاه دمشق، يرد النظام السوري بتوجيه ضربة إلى القوى المعارضة له يتم فيها انتهاك حقوق الإنسان... وقد ذكرت الصحف مؤخراً أن "الأسد يشارك في ذكرى سقوط "الباستيل" باعتقال العضو 13 في المجلس الوطني لإعلان دمشق". ورافق ذلك أيضاً قمع ما سمي بانتفاضة سجناء صيدنايا وسجن العديدين، ومن بينهم الممثل المعروف بياسين...

في الخلاصة، لا مفرّ من رفض ازدواجية المعايير أينما وُجدت، ومن رفض مظاهر الاستبداد والديماغوجيا، ومن العمل لجعل مبادئ الديمقراطية وروح القانون المساوي بين حقوق الأفراد السياسية سيدة في عالمنا اليوم.

متوالية وجوه الحرب،
استرجاع للذاكرة المفقودة(1)

إذهبـــي إلى الأونيسكو الطابق الأول، هناك معرض(2). قال لقمان. عن ماذا؟ سألت. شيء حول المفقودين، تجدر رؤيته. اذهبـــي لتري. وذهبت.

لم يكن لدي فكرة عن ماذا أو كيف سيكون هذا المعرض، وعندما دخلت القاعة الكبرى في الطابق الأول من الدرج العريض الذي على يسار القاعة فوجئت بوجوه تطالعني.. متوالية من الوجوه، مصفوفة بشكل متتابع وموزعة في القاعة على نفس العلو من الجدران. معرض للوجوه، وجوه متعددة، متنوعة تشدك عن بعد وكأنها تسألك لماذا هي معلقة هنا؟ هل هي تقليعة فنية تريد استعراض نماذج من الوجوه اللبنانية لحقبة ما؟ وتسأل نفسك كيف وزعت هذه الوجوه المختلفة وبأي نظام؟ هل بحسب نظراتها: حزينة، فرحة، متفائلة، قلقة أو متأملة؟ سني عمها: شابة وفتية أم كهلة ومعمّرة.. جميلة أم أقل جمالاً.. وجوه وجوه وجوه أكثر من 500 معلقة تنتظر اعترافا بانها كانت هنا ذات يوم. وجوه طويلة، مستديرة، باسمة، عابسة، حالمة، تنظر اليك أو إلى نقطة أخرى بعيدة. وجوه اعتنت بهندامها وبكيفية ظهورها للكاميرا واعتنت بشعرها صففته أو تركته على طبيعته، قصرته أو إطالته أو أطالت الشاربين أو نـــزعتهما. بينهم شاب اعتنى بوضع احمر شفاه واضح وجليّ مع احتفاظه بمعالم وجهه الأخرى طبيعية مثل باقي الذكور.

وجوه للتأمل تحمل أسماء أسماء أسماء بعددهم منها ما يخطر على بالك ومنها ما تقرأه لأول مرة.. أسماء تتبع تسلسلاً أبجدياً: عفيش، عون، عوض، عواد، عياد، عميرات، عمر، عيد، عواضة، عياش، عفيفي، غملوش، فاعور، فارس، فرحات، فزاع، فقيه.. وهكذا تتابع بحسب تتابع الحروف الابجدية. هناك أيضاً اثنتا عشر

---

(1) الحياة: 2008/05/08.

(2) ولم يعودوا: معرض صور قيد الانشاء في سياق ما العمل؟

امرأة موزعات بين مئات الرجال. وجود رمزي لنساء تحاول اكتشاف جمالهن وما بداخل رؤوسهن وهن هنا لكي يكسرن القاعدة التي تقول عدم التعرض لهن. واحدة منهن تجاور صبياً، جورجيت العوّ وبقربها سامي العوّ. نظرت طويلاً لا بد انه ابنها. حسنا قلت لم تعش لكي تقضي بقية حياتها بانتظار عودته أو التأكد من هلاكه.

انه البؤس والمرارة والصدفة أن تكون معلقا هكذا بالتتابع وتتجاور صورتك مع صورة وجه آخر لا يجمعك به في غالب الأحوال شيء سوى انه يحمل اسما يبدأ بنفس حرف اسمك. يرتبطان هكذا في المكان بعد أن كان ربط بينهما المصير نفسه: الاختفاء والفقد وترك عالم لا متناه يتكون من أمكنة وأشخاص ومهام وارتباطات ومواعيد وأعمال ومشاعر... يصير الواحد صورته المعلقة فقط ووجها أحياناً نعبره بسرعة وأحياناً أخرى يستوقفنا ويشدنا لنتأمله بسبب تسريحة أو نظرة أو مجرد تعبير أو لا أدري ماذا...

تحمل الوجوه تاريخ ولادتها وأحيانا يغيب هذا التفصيل وتحمل تاريخ اختفائها أيضاً.. تواريخ متقاربة لحقب اتسمت بموجات عنف بالغ.. عنف مجاني، وربما له ثمن جعل أحدهم أو مجموعة من المقاتلين تسأل وجها أو أكثر عن اسمه وهويته ومن أين هو ويجعله حظه العاثر- أو حظها نعم فللنساء نصيب - تمر في هذه اللحظة بالذات من هذا المكان: معبرا أو حاجزا أو طريقا عادية وتصادف الها تحمل هوية لا تلائم الواقف على المعبر، هوية معادية لها دين أو طائفة أو مذهب تجب مقاتلته ومحاربته والقضاء عليه. أو هو وجه لم يحمل هذه الهوية وربما اخفاها عن قصد ربما كي لا يتعرض لما تعرض له بالضبط.. وربما يكون شكل هذا الوجه الذي صار ضحية لم يعجب الواقف على الحاجز فشكل له تحدياً ما واصابه في بعض مشاعر نقص أو تسبب بغضبه لكلمة فائضة لفظها أو لنظرة أو لصمت فسر عنادا ومواجهة..

وجوه مختلفة علّقت هنا لكي نعلن عليها الحداد الذي لم يعلن حتى الآن؛ لأننا نتماهى مع مفقودينا للظلم لذي وقع عليهم فنرفض موتهم ونعجز عن الحداد عليهم وبدلاً من ذلك يتم نكران الواقع، نكران الخسارة:" مفقودي لم يمت، ربما سوف يعود". لن يمكن دفنه قبل التأكد من موته أولاً. ويظل اختفاؤه

هكذا مرفوضا وتظل غياب نظرته وصوته وحنانه والدعم المتبادل الذي كان موجودا وغياب المستقبل المشترك والمشاريع المتخيلة القادمة.. هناك عجز تام على القدرة على قبول غياب كل ذلك. ما يزيد الأمر صعوبة هو الندم، الندم على كل سوء فهم أو تمني السوء المتخيل للمخطوف وتعذيب النفس بتقليب الاحتمالات التي كان يمكن أن تساعد على عدم فقدانه: كان يمكن أن يظل الآن حاضراً معي لو أخّرت ذهابه قليلاً، لو جعلته يؤجله، لو حذرته، لو كنت معه، لو منعته من الذهاب، لو، لو!

لن يتمكن الاهل من القيام بكل ذلك طالما انهم لم يعرفوا مصير مفقوديهم و لم يتأكدوا من موتهم ومعرفة مكان رفاتهم لن يتمكن الاهل من القيام بعملية الحداد الضرورية لتخطي الألم وسوف تتجمد هذه الوجوه بوضعها الحالي ستبقى على الحالة التي تمثلها صور هذه الوجوه ولن يتمكن الاهل من تصور شيخوختها أو تغيّر هيأتها. سوف يتعطل الخيال هنا ويتجمد محافظا على تمثل الشخص على هذه الصورة الازلية. ومن هنا أهمية الكشف عن المقابر الجماعية لكن بعيداً عن المزايدات وبشكل جماعي يطال كل الفئات والأحزاب والتيارات. فالجميع مشترك في هذه الجرائم الحربية من دون استثناء.

يجب أن يمر وقت لكي يتحولوا ووجوههم إلى جزء من التاريخ وليس من الذاكرة الحية المتحولة. ذلك ان مادة التاريخ هو الزمن ومروره وفي هذه الحالة هناك تجميد لهذا الزمن واحتجاز له على شكل صورة لشخص لن يطرأ عليه أي تحول.

هنا يتم أكثر اقتراب الذاكرة الفردية من الذاكرة الجماعية فما حصل، حصل بسبب الاضطراب الجماعي والاجتماعي الذي ساد في تلك المراحل والألم الذي مهما تصورنا انتماءه إلى الجماعة يظل فردياً بدرجة كبيرة، لكن اجتماعه وتراكمه كما هذه الوجوه يجعله ألماً عاماً وألماً يطال مجموعة كبيرة فتوحّد بينها آلامها الفردية نفسها. ويتحول هنا التاريخ الفردي إلى جزء فاعل من التاريخ الجماعي وتصبح وجوههم مسلكا للتواصل الاجتماعي وجعل حدث اختطافهم الحامل لهذه الذاكرة لكي لا يغيب عنا ان هذا حصل واننا ندينه ونعترف بخطأ حصوله ولكي نمنع تجدد أسبابه مرة ثانية.

ومعرض الوجوه هذا هو المخزن الذي نخزّن به ذاكرتنا كي لا تخوننا مرة أخرى وتخرج عن حدود مداركنا فتضبط افعالنا عبر تأطير هذه الوجوه التي سوف تظل تطل علينا كي تقول: حاذروا الخطأ مرة جديدة.

ففقدان الذاكرة لا يعبر عن اضطراب على المستوى الفردي فقط، بل هو أيضاً يصيب الجماعات ويتسبب باضطرابها وباضطراب هويتها الجماعية.

تعيش الذاكرة لحظات تطفح فيها وتصبح فائضة عن اللازم وتمر بلحظات ضمور، لقد سارعنا إلى تناسي ضحايانا ولم نعتذر منهم مع ان هناك فيض وطفح لهؤلاء فلنحتفل بذكراهم ونعترف بهم ضحايا عبر تذكّرهم كي يرقدوا بسلام ونكمل حياتنا بسلام أيضاً.

ويشير بعض الباحثين إلى أهمية الانتقال من الذاكرة الشفهية إلى الذاكرة الكتابية عبر تنفيذ لوائح للتذكر، عمل جداول ولوائح بنظام معين تطال الكلمات والمفاهيم والحركات. نحن هنا بحاجة إلى لوائح للوجوه فهذا ليس بمجرد اضافة تقنية بسيطة على مستوى عمل الذاكرة لكنه يسمح بالانتقال إلى إعادة موضعة جديدة للذاكرة عبر تفكيكها واعادة تركيبها مرة أخرى. انها فعل تربوي مهم لكي نستخلص درسنا التاريخي.

من هنا ضرورة إقامة متحف دائم يساعدنا على تذكّر كل جرائم الحرب التي ارتكبت والمعاناة التي نتجت عنها.

* * *

معنى أن تكون لبنانياً

مقالات في حال الوطن... وأحوال المواطن

منى فياض

• كاتبة وأستاذة جامعية من لبنان



«.. ولقد تم التوصل ببطء وصعوبة بالغين إلى الاقتناع بشرعية وجود هذه الدولة وهذا الوطن، من قبل السياسيين اللبنانيين أنفسهم بداية وعلى اختلاف مشاربهم، مثل رياض الصلح الذي تحول من عروبة عابرة للدولة الوطنية الى أن اصبح أحد رمزي الاستقلال اللبناني المنفتح، إلى عبد الحميد كرامي الذي تحول من رافض للكيان إلى مشارك فيه وصائب سلام وكمال جنبلاط. وهذا يشمل ازدواجية صورة الإمام المخطوف موسى الصدر وصولاً إلى رفيق الحريري الذي ختم حياته كأكبر ضحايا «وحدة المسارين» عندما أراد قيام الدولة اللبنانية واستقلالها مجدداً.

لذا، ومهما قيل حول السنوات الثلاث الماضية التي تلت اغتيال الشهيد الحريري، ومع صعوبة اللحظة الراهنة وعدم وضوح منحى اتجاه الأوضاع إن في لبنان أو في المنطقة؛ فلا بد أن نلاحظ حصول عدة تطورات مهمة وذات معنى طالت معنى لبنان ووظيفته وشرعية وجوده كدولة وطنية ناجزة بما زعزع المفاهيم التي كانت سائدة حول عدم شرعية وجوده وكيانيته المصطنعة.

ربما ليس جديداً القول أن الكيان اللبناني في خطر، فهو مهدد في وجوده منذ لحظة تكوّنه لأسباب عديدة ومتنوعة... حالياً أن هذا الكيان يتعرض للخطر الشديد م... وأيضاً في الوقت الذي لم يعد فيه هذا اللبنا... المصطنع منقوص الهوية والمشكوك في عروبته... النموذج اللبناني بما هو عليه مطلباً وضرورة لأبنائه...

من المقدمة





www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

ISBN 978-9953-87-543-9

